تَمَار

თამარ

مي خالد

رواية

العربي للنشر والتوزيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تَمَار

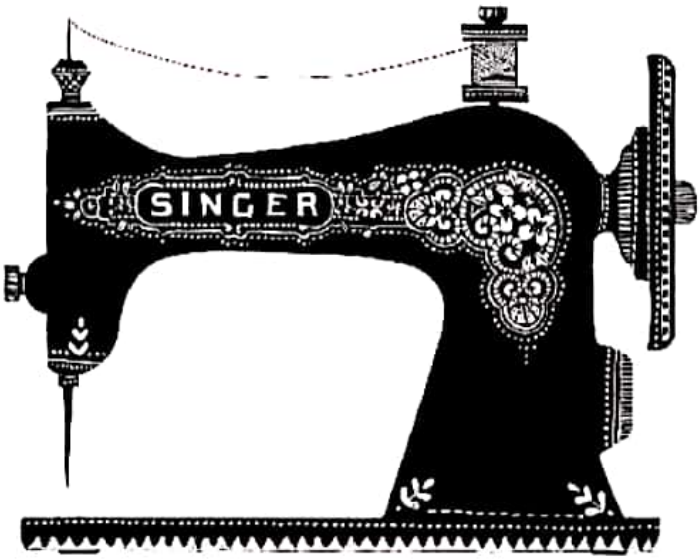

مي خالد

رواية

تَمَار

مي خالد

350 دقيقة متبقية من «تمار ..»

0%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اهداء

" لولا ظهورهم الجميل في حياتي، ما كتبتُ هذه الرِّواية..

شريف بكر – د. حمدي السيسي - نجوى مهدي..

إليهم... "

"الشَّخصُ الوحيد الذي أعرفه ويتصرَّف بعقلٍ هو الخيَّاط، فهو يأخـذ مقاسـاتي مـن جـديد فـي كـل مـرَّة يـراني. أمَّا البـاقون فيستخدمون مقاساتهم القديمة، ويتوقَّعون منِّي أن أُناسبها".

- " برنارد شو "

"مُرَّ على عدوِّك كسيانَ، ولا تمرَّ عليه شبعانَ" .

- " مثل شعبي "

"Good things happen to those who dress well."

- Hadley Davis

"تحدُث الأشياء الجميلة لمَن يهتمُّون بهندامهم" .

الأماكن كلها حقيقيَّة،

أمَّا الأشخاص والأحداث،

فأي تشابه بينها وبين الواقع،

ربما لأن الله يخلق من الشَّبه أربعين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الأوَّل : القاهـرة

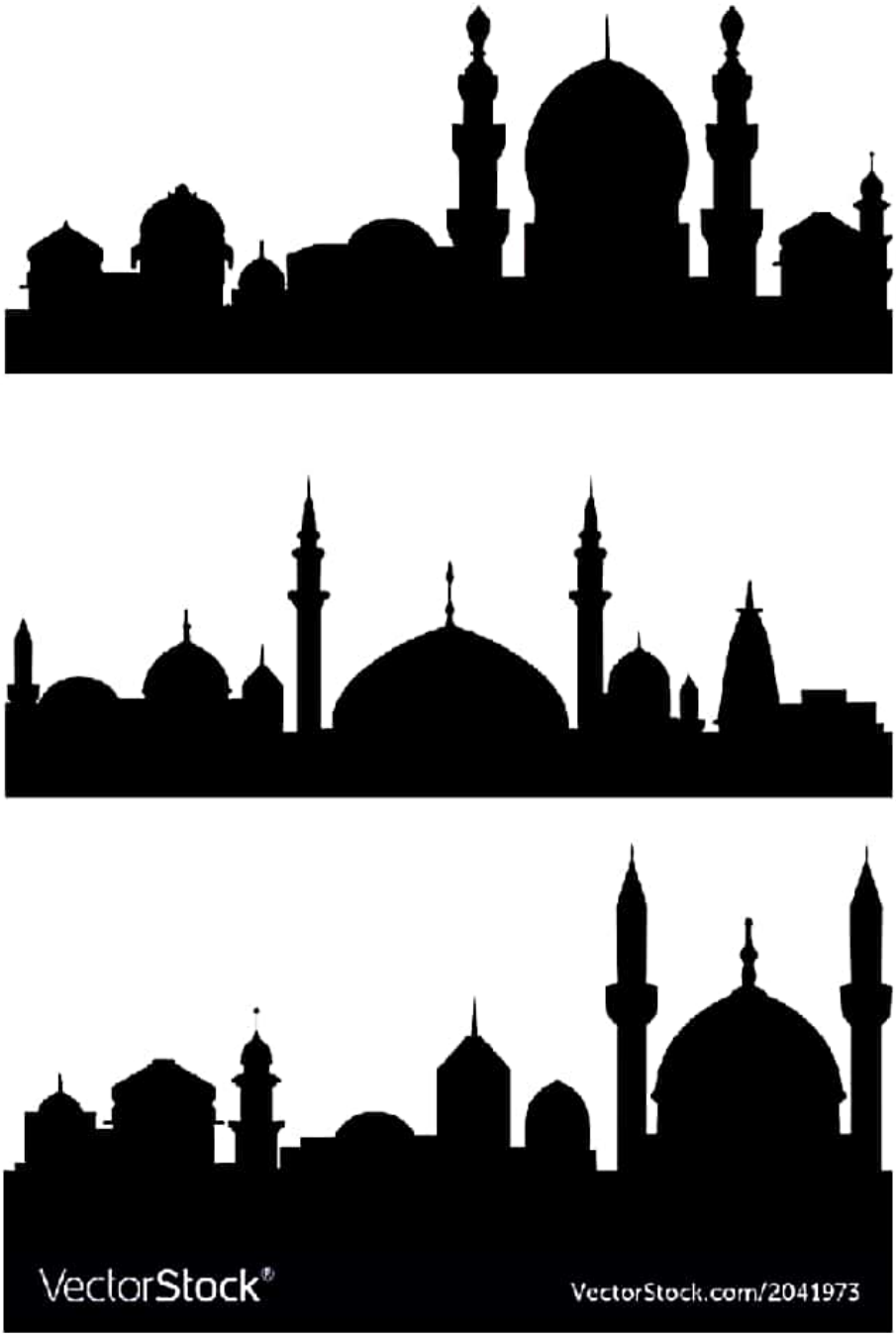

"تمارا"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

●●●○○ Orange EG 4G 12:41 PM 17%
Buraq

the first verse of *surah* 17 of the Qur'an, but the details of the al-Buraq legend were not consolidated until the formulation of the *hadith* literature (Bravmann 1983: 75). The established representation of al-Buraq usually comprises a crowned head, often of a young woman, attached to a winged horse (see figure 5.3). The inspiration for this, according to Arnold (1965: 119), was drawn from many pre-Islamic representative traditions in western Asia, including the

Figure 5.3 Al-Buraq image (after Bravmann 1983: 73)

centaur of Babylon, the 'man-headed bulls' of Assyria and the Sphinx. It was a powerful image among Sufis in Iran, but also of particular popularity in both West Africa and Indonesia. In West Africa, al-Buraq is represented on printed posters imported from Egypt and North Africa, and in stylized amulet form, on masks, and in one instance supporting an initiation drum of the non-Muslim Baga people of coastal Guinea (Bravmann 1983: 82). Al-Buraq images

"للشَّطحات حدود، وأنت تجاوزتَها لعدم تقيُّدك بالإطار المُحدَّد للمُسابقة".

بهذه الجُملة صُرِفتُ، أو بمعنى أدقَّ، طُرِدتُ من مُسابقة تصميم الأزيـاء. لـم تمتلـئ عينـاي بالـدموع وأنـا أحضـن زملائـي أمـام الكاميرات، ولا هربت وأنا أُداري وجهي خزيًا لأنفجر حسرةً في الكواليس كما نشاهد في البرامج. انسحبتُ في خطوات رشيقة واثقة؛ لأنني تـأكَّدتُ من صحَّة يقيني الأوَّل بأنه لا خير في التَّنافُس، وبأن المُسابقات قيدٌ يحدُّ من جموح الإبداع. فالموضة بالأساس شطحة نبتت في رأس إنسان، حوَّلتها إلى ثياب تلفُّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجساد آلاف البشر، وتشبّثوا بها بفرحة وافتخار.

لكن هل كوني أصبو لأن أكون صانعة للموضة، أو شغفي بسماع حـواديت جَدِّي عنـها، يُعتبـر مبـررًا للشَّطط الذي يجعلني أتقيَّد بحزام عريض في مقعد طائرة، وأصطحب معي شقيقتي "تُقى"، التي تُعاني فوبيا الركوب في الهواء والمرتفعات والأماكن المغلقة والخوف من كل شيء، لنسافر إلى بلد لم يسمع عنه نصف سكان الكُرة الأرضية، لمُجرَّد أنني تلقَّيث رسالة إلكترونية من مجهول، يعدنا بكنزٍ، إن سلَّمته إنجيلًا مُهترءًا وفردة قُرط مُتكسِّرة؟

نعم....

إن الأمر يستحقُّ، فلا مكان يُناسبنا أنا و"تُقى" أكثر من چورچيا. ذلك البلد الذي حين قُلتُ إنني مسافرة إليه منذ عامين لحضور أسبوع الموضة، سطع وجه كل مَن سمعني انبهارًا، ظنًّا منهم أنني مدعوَّة إلى"أمريكا". وحين صحَّحتُ الخطأ وقُلتُ إنه بلد يُدعى چورچيا، كان ضمن مُقتنيات الاتحاد السوفيتي البائد، ويقع على البحر الأسود، ينطفئ وجه المُتلقِّي؛ لأنه ببساطة عدو لما يجهله، أو يتحوَّل فجأةً لطفل ساذج ويتلقَّى الكلمة حرفيًّا، فيتوه خياله في أمواج بحر لونها فعلًا أسودُ.

لـم تكن "تُقى" منذ عـامين مُقيَّدة علـى خريطـة حيـاتي كما هي الآن، لا هي، ولا أي شخص آخر، فلقد هجرت آنذاك البشر جميعًا، وهربت إلى چورچيا بالصُّدفة البحتة، حين قرأت خبرًا عابرًا عن أسبوع الموضة الذي سيُقام هناك. لم يكن الحدث هو المهم في حـد ذاتـه، بـل لأن الخبـر قـد أشـار إلـى دار أزيـاء "بالينسـياجا"، ومُصـــمِّمها الجـديد "ديمنـا جفاسـاليا"، الـذي يحمـل الجنسـية الجورجيـة. كُنـتُ مثـل طفلـة أهرع نحو أي كلمة يرددها جَدِّي. أحببـتُ هـذا المُصمِّم الراحـل المدعو "بالينسياجا" كأسطورة، أو كحدوتة، فتشبَّثتُ بالرحلة مثل طفلة، وليس في رأسي سوى تصميمات لثياب فاخرة من الحرير، والقطيفة، والأصواف الدافئة؛ لأرسم بها باترونًا جديدًا لحياة أتطلَّع إليها. كُنتُ في ذلك الوقت أتَّبع حرفيًّا نصائح جَدِّي، فذهبتُ لأبحث عن روح "بالينسياجا"،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي رحل في القرن الماضي بعد أن ألهم معظم مُصمِّمي الموضة. أخذت أنتبه إلى كل تفصيلة في الطريق والبشر والطبيعة بحثًا عن الإلهام والشُّهرة، إلا أنني منذ وطئت قدماي "تبليسي" العاصمة، وشقَّت بي السيارة طرقًا مُلتوية تحفُّها جبال داكنة الخضرة وتحتويها مثل غوريلا حنون تحمي صغارها، ثم وجدتُ نفسي في الدور السابع عشر بفندق "هوليداي إن"، أحتضن الجبال نفسها بعينيَّ من فوق فراشي الوثير، فكَّرتُ أن لوني في ذلك الموسم سيكون الأخضر بمشتقاته؛ زيتوني، فستقي، زيتي.. لون الطبيعة والخير والنماء والعُملة الصعبة.

غلبني النُّعاس فور أن ارتميتُ فوق ملاءة السرير البيضاء، وظننتني كالعادة سأشاهد إشراقات في أحلامي على هيئة وجوه مُقدَّسة، تتحوَّل إلى خيالات لنساء جميلات يرتدين فساتين وسراويل وتنوُّرات، وسأنهض سريعًا لرسمها، قبل أن تتبخَّر مرَّة أخرى. إلا أنني سمعت همسًا بنبرة مألوفة؛ كانت كصوت "أم إدريس" تتلو آية في أذني:

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

ظننتُها آنذاك البشارة، وهممتُ بسحب كرَّاسة رسمي، لأخطَّ ثوبًا يجمع بين نعومة ورقَّة الحرير السندسي، وغلاظة وسُمك حرير الإستبرق المنسوج بخيوط الذهب، وأوفِّق بينهما بأساور من فضَّة مُطعَّمة بالزُّمرُّد. لكن ذراعي ثقلت، ولم تسعفني قدماي على مغادرة الفراش. وبينما أنا مُستلقيَّة في شبه إغماءة، شاهدتُ بياضًا مرسومًا بشكل مُجسَّد لفَرَس، ومُحلِّقًا في السماء بحجمه الأسطوري، رافعًا قوائمه الأمامية، وفاردًا جناحيه. إنه البراق، ليس تمامًا كما وصفته لنا "أم إدريس" في حواديتها عن ليلة الإسراء، فلم يكن له وجه كوجه الإنسان، وعُرف من اللؤلؤ، منسوج بقضبان من الياقوت، وأذنان من الزُّمرُّد الأخضر، كما كانت تقصُّ علينا وتُبهرنا. كان فقط فرسًا، مرسومًا بإبداع نوراني من سُحُب بيضاء مُتكثِّفة، تطلُّ من عينيه أشعَّة شمس، ويطفو بخفة على خلفية سماوية بحجم مدينة"تبليسى". هكذا أيضًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخيَّلت البراق الذي قالت لنا عنه "أم إدريس":

- بيطير بالطيبين لسابع سما، وهو اللي طار بأمكم في ليلة حلوة.

لم يكن ما رأيته من تكوينات السُّحُب خارج نافذتي الزجاجية العريضة جموح فنانة أو شطحة إبداع، فلقد سحبت تليفوني، وسجَّلت تلك اللقطة بالصوت والصورة، وأرسلتها إلى أصدقائي المُقرَّبين في الحال، وكتبت فوقها "البراق يطير أمام نافذتي". تيقَّنتُ أن هذه هي الإشارة والبشارة كما روتها لنا "أم إدريس"، حين حكت لنا أنا و"تُقى" عن يوم مولدنا الذي كان في ليلة الإسراء والمعراج.

وفي اللحظة نفسها التي كدت أترك فيها تليفوني، رنَّت إشارة بوصول رسالة قصيرة. كانت من "ألبرت". فتحتُها سريعًا، فوجدت أنها تحتوي على اعترافٍ بالغرام:

"لا أدري لماذا لم أخبركِ منذ زمن أنني عشقتكِ!!!".

تذكَّرت في تلك اللحظة حدوتة "أم إدريس" المُتكرِّرة عن ليلة الإسراء، فقد حكت لنا أنه حين سأل النبي "محمد"(ﷺ) الملاك "جبريل" عن الفرس ذي الجناحين، قال "جبريل": "هذا براق العُشَّاق، وسفينة الوصل للالتحاق". فتيقَّنتُ أن ظهور تلك السحابة علامة، وأنه سيكون لي مقام وكرامة في هذا البلد البعيد، المدعو چورچيا. لكن الأسبوع المقرر للرحلة مرَّ سريعًا، وكأن التلفريك الذي ركبته وطار بي فوق سماء "تبليسي" ليس إلا بساطًا للريح. وشاهدتُ مثل نائمة تحلم بالجنَّة أحياء قديمة من كتاب ألف ليلة وليلة، ومباني مزخرفة بألوان ومزركشة بأخشاب مشغولة، وكنائس بقباب ذهبية، وأديرة حجرية عتيقة، ومسجدًا أزرقَ، ومعبدًا يهوديًا يتجاوران صعودًا وهبوطًا على تلٍّ واحد، و"شهبندر" التجار يبيع سجَّادًا فاخرًا، وأكلمة مُلوَّنة، بدرجات لم تشهدها عيناي، وساعة ذهبية كبيرة تتوسَّط ميدانًا صغيرًا، تدور حولها عرائس تتحرَّك، وحكَّاءً يجلس بجوارها يروي قصصًا ومواعظَ لم أعِ منها شيئًا؛ لأن المطر هطل فجأةً بشدَّة، ولأنني أيضًا كُنتُ مُستغرقة في مشاهدة السُّلَّم الحديد اللولبي وسوره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المزركش مثل أسورة مطليَّة بالفضَّة، فهمس لي سائح لا أعرفه: "هذا السُّلَّم يشبهك". إلا أنني عُدتُّ ممتلئة بروح غامضة حلَّت بي حين لمست بأصابعي طرف تمثال "الأم چورچيا"، بحجمها الضخم، ولونها الفضي، والتي تطلُّ من أعلى قمَّة جبلية على مدينة "تبليسي"، تشهر سيفًا للأعداء، وتحمل كأسًا من النبيذ في اليد الأخرى للأصدقاء.

ولما أتتني رسالة أخرى عجيبة على بريدي الإلكتروني بعد ذلك الحدث بعامين كاملين، تأمرنا أنا و"تُقى" بالحضور إلى البلد نفسه، وأن نحجز تذكرتي ذهاب فقط، نفَّذتُ الطلب مثل مُريد يُطيع شيخه؛ لأنني كُنتُ هائمةً في البحث عن سر وروح جَدِّي هذه المرَّة، والكنز المزعوم الذي سيُنقذنا بعد أن طار جَدِّي في ليلة "ليست حلوة"، تاركًا لنا إرثًا من الحيرة.

"تُقى"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"إلهي، أنا فقيرة إليك. سوف أتحمَّل كل ألم، ولكن عذابًا أشدَّ من هذا العذاب يؤلم روحي ويفكُّ أوصال الصبر في نفسي".

أشعر أن دُنُوَّ أجلي سيكون في السماء الرابعة، فليس ذنبي أن "تمارا" تمتطي الطائرات وتجوب العالم مثل طفلة تلهو فوق أرجوحة، أو أنها سافرت إلى هذا البلد منذ عامين وقضت به وقتًا أمتعها.

ليس اسمي "شانيل" أو "ديور"، أو أي من الأسماء الأعجمية التي تتفاخر بمعرفتها، وتقول إنها تساوي الآلاف من الجنيهات. اسمي "تُقى"، من تقوى الله، كما علَّمتني سِتِّي "أم إدريس" في طفولتي، وأخبرتني أن شيخ المسجد قال إن اسم "تمارا" حرام، ففرحت في ذلك اليوم، وذابت قليلًا عقدة الخجل من اسم "تُقى"، الذي ينطقه الجميع "تُؤى"، ولا يفهم معناه الأطفال الذين يجلسون بجواري في الفصل. لم يفهم أحد معنى اسم "تمارا" أيضًا، لكن أعينهم كانت تضيء بلمعة غريبة حين يسمعون اسمها للمرَّة

342 دقيقة متبقية من «...»
2%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صارت صديقة لهم.

لستُ حقيبة يدها، أو عطرها الفوَّاح لكي تطير بي إلى عالم الغيب.

يكفي ما حدث سابقًا في رحلاتنا المدرسية وما جرى لي ولها. لا أريد أن أموت مرَّة ثالثة. تكفيني ميتتان جلبت منهما ملائكتي التي تُحدِّثني وتهمس لي بصوت "أم إدريس" أن هذه الرحلة شر، خاصة أنني أشعر بأن الكتلة المعدنية التي ينحبس الناس بداخلها تحلِّق طويلًا في السماء الرابعة. لن أنسى وجه "أم إدريس" وهو ينقبض، حين حكت لنا أن سيدنا "إدريس" (عليه السلام) كان على صلة بالملائكة، وكان بعضهم يزورونه ويتحدَّثون معه. وفي يوم من الأيام، قال للملاك: "أنا أريدك أن ترفعني للسماوات لأشاهدها"، فحمله هذا الملاك إلى أن وصل إلى السماء الرابعة، وهناك انتهى أجله، وقُبضت روحه. ثم تحمرُّ وجنتا "أم إدريس" وتتندَّى عيناها، وكأن "إدريس" ولدها وحبيبها هو الذي لقي حتفه.

تُحِبّني "أم إدريس" كابنها الذي سمَّته على اسم النبي "إدريس". قالت إن للأسماء معاني غير التي نتداولها، وللحروف أسرار. حتمًا سأنال أنا أيضًا حظًّا من اسم "إدريس" النبي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة فوق السحاب.

أرى السُّحُب دائمًا على هيئة عفاريت وأصنام تتحرَّك ببُطءٍ وجُثث مُلقاة تحت باب زويلة، وقد استبدل لونها الأحمر بلون أبيض مُخيف، ثم تتحوَّل إلى دببة ضخمة، وكلاب تنبح، وأحصنة ترفع قوائم لتنقض عليَّ.

تنسحب روحي إلى حلقي، ثم تخرج على هيئة صرخات مُتقطِّعة، وأشعر بأن ملك الموت الذي تحدَّيته مرَّتين سينال منِّي في المرَّة الثالثة. يغمرني شلَّال من العَرَق على الرغم من أن ذراعيَّ يمكنهما أن تتجمَّدا من البرودة التي يبثُّها مُكيِّف الهواء في غرفتي الآن. تبزغ صديقتي "ميراي" فجأةً في زي مثل زي الممرضات. تمسك بأدوات طبية، وتُعاون شخصًا يجلس الآن إلى جواري بدلًا من "تمارا"، يغرس إبرة في ذراعي، وهو يسأل "تمارا":

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هي جالها قبل كده أي "بانيك آتاك"؟

ترد "تمارا" في ثقة:

- لأ، خالص.

وبينما يسري مفعول الحقنة المُهدِّئة ويعود قلبي إلى موضعه وتتجاور أنفاسي في صدري، أغفو وأنا أبتسم من سذاجة "تمارا" التي لا تدري شيئًا عن شقيقتها التوأم، وإنه لو أمكن إطلاق اسم يناسبني أكثر من "تُقى"، لكان اسمي "نوبة فزع".

"تمارا"

بمُجرَّد أن تقلع الطائرة، أو ينطلق بي قطار أو حافلة سفر، أشعر بأنني انقطعت عن فوضى العالم الأرضي، وتوحَّدت مع العالم السماوي، فتَخرُج "الإسكتش" الخاصَّة بي تلقائيًّا من جُعبتها، وقلمي الرصاص من كيسه، ويبدآن مُجدَّدًا في التَّعارُف والتَّآلُف، بخطوط صريحة قوية وظلال. يتلوَّى القلم مُداعبًا الصفحة ويبدأ باللف والدوران في حردات رقبة، وانحناءات كتف، ووسط، وأرداف، ثم يُضيف ستُّهُ الذائب قُبلات ناعمة على أنحاء الفستان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرسوم توًّا؛ كسرات، وثنيات، وأزرارًا، وفيونكات. وحين تعلن المُضيفة عن قرب الوصول، يكونا قد أتمَّا لقاءهما الحميم الذي أسفر عن وليد جديد، رداء للصباح، أو تايير كلاسيكي، أو فستان للسَّهرة، فأصل معها إلى ذروة السعادة بما صنعته قُوَّة عُليا تتجلَّى في أصابعي. وكأن "چيمي جدو" كان واقفًا على يدي، وراغبًا بشدَّة في أن يُسلِّمني مقصَّه اللامع الضخم وهو يقول لي:

- هيَّا، أكملي ما بدأتِه، وكوني مثلي صاحبة لقب في المهنة، ولتكن "تمارا الشوافيلي" هي الامتداد الحالم الأملس لصاحب المقص الذهبي "جمال الشوافيلي".

أنظر في زهو إلى التصميم المرسوم، وأنعم في تلك الليالي تحديدًا بنوم لا يصطخب بالأفكار والابتكارات وتداخُل الألوان. فقط يذوب في مسامعي نغم من مقام صوفي يتلاشى شيئًا فشيئًا، قبل الظهور المُتكرِّر للحرف: "T".

الحرف الأول من اسمي فقط هو ما يبرز بنجوم ذهبية... ويتصدَّر خلفية الحلم الذي يشبه السحابة البيضاء.

هل كان الفرس الذي رسمته السُّحُب، ولاح لي في سماء "تبليسي" منذ عامين هو البراق الذي حكت لنا عنه "أم إدريس"؟ أم كان "راشي" بحسب الأسطورة الجورجية؟ الـ"راشي" حصان سحري مُجنَّح يخضع للبشر، ويصنع الأبطال، ويقرأ المستقبل.

ما يهم الآن هو أن أحاول ترتيب الخطوات التالية في هدوء، فـ"تُقى" الآن في أيدٍ أمينة، ولن يشغلني الانزعاج بحالها عن الهدف الذي رحلت بمفردي من أجله.

حكايتي أنا و"تُقى" تُشبه امرأة ريفية تتلقَّى خبرًا مُفجعًا، فتطلق صرخة عالية، وتشقُّ ثوبها نصفين. الثوب الذي تمزَّق كان رحم أمي. أما الصرخة العالية فقد أصدرتها أمُّنا وهي تلدنا، قبل أن يلفظنا جسدها ثم يهمد تمامًا، في الوقت الذي يُعلن فيه الطبيب لأجدادنا أننا "توأم".

مُخطئ مَن يزعم أن الـ"توينز" نُسختان طبق الأصل. فالـ"توينز"

338 دقيقة متبقية من ... 2%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي يُجمل ويستر البدن ليس إلا قطعتين: بلوزة، وچاكيت، لا يتشابهان سوى في نوعية القماش. فقد كُنتُ أنا و"تُقى" كالثوب الذي يُشطر نصفين إثر فجيعة، فيؤول نصفه إلى شرق القرية المزدهر، ونصفه الآخر إلى غربها المتواضع. تمامًا مثلما أصبحتُ من نصيب جدَّيَّ لأبي في حي "جاردن سيتي"، ووقعت قرعة "تُقى" على جَدَّتنا لأُمِّنا في حي "الدرب الأحمر". هذا لأن أبي "شامل الشوافيلي" كان قد سبق أمي إلى السماء بأربعين يومًا، حين داهمته عربة كبيرة وهو يعبر الطريق ذاهلًا، فلفظ أنفاسه في الحال، فوُلدنا أنا و"تُقى"بلا أم، ولا أب، وتفرَّقنا مثلما توزع الملابس القديمة على الجمعيات الخيرية.

فكرة واحدة ظلَّت تسيطر على رأسينا على الرغم من اختلافنا؛ وهي أن وجودنا معًا في الرَّحِم الضعيف هو ما تسبَّب في النزيف الذي أودى بحياة أُمِّنا، وأن إحدانا فائضة عن الحد، وأن تلك الأخرى - حتى وإن كانت مجرد وليدة - فهي قادرة على القتل.

التشابه الوحيد الذي جمعنا كـ"توينز" هي تلك الملبوسات التي أتى بها "چيمي جدو" من بلد أجنبي كان به، حين علم بأن زوجة ابنه قد وضعت توأمين، فأحضر سُترات متطابقة في الأحجام والألوان تكفينا لعامٍ كامل، واحتفظنا بها كذكرى في إحدى حقائب جَدَّتي الضخمة. ما ميَّز تلك الملابس وجعلها تشبهنا هو أن كلًّا منها كان مكتوبًا عليه جملة بالإنجليزية تدلُّ على الاختلاف، وأن التطابق في الشكل خدعة كبرى. فسُترتي كان مكتوبًا عليها:

I am daddy’s team

وسُترة "تُقى"، كما ظهرت في الصور التي التقطت لنا، كان مطبوعًا عليها جملة:

I am mom’s team

أو "أنا من فريق أبي"، والأخرى "أنا من فريق أمي".

أما الأقرب إلينا فقد كانا قميصين مرسومًا على كل منهما إصبع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُشير نحو التوأم الآخر، ومكتوبًا بجانبه:

She did it

أي "هي مَن فعلتها"، وكأن كلًّا مِنَّا ترى الأخرى مُدانةً بشكل ما.

"تُقى"

الوحيدة التي وثَّقتْ مولدنا بحكاياتها الشَّفاهيَّة هي "أم إدريس". ملاذي المعرفي وصندوق الحكايات. قالت إن تليفونًا قد أتاها ببشارة مولد التوأمتين، وسمعَتْ همسًا بجوار أذنها بجملة غريبة: "واحدة متنغنغة، وواحدة مستشيخة"، فخفق قلبها طربًا، وقالت في حسم:

- ح نسمِّي البت التانية "تُقى"، وح ناخدها. والأولانية تروح لأهل أبوها اللي بيسموا بنتهم البكرية "تمارا".

قام جدِّي "جمال" بتوثيق ميلاد "تمارا" في مكتب الصحة التابع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد توجَّه خالي "عادل" بعد موعد مولدنا بأسبوع إلى مكتب صحَّة الدرب الأحمر. وبمنتهى الاستهتار، لم يراجع ما سجَّله موظف الصحة كما سمعه. "تُقى شامل جمال أبو لاسة". "تمار الشوافيلي" و"تقى أبو لاسة"، اسمان لا يجمعهما أي شيء سوى حرف التاء. فأي شخص يتمتع بقليل من الحكمة سيدرك من دلالة الحروف أن "تمار الشوافيلي" تنتمي إلى أسرة عريقة، وأن "تقى أبو لاسة" ليست سوى البنت اليتيمة التي تعيش في كنف جدتها لأمها في حي "الدرب الأحمر". فقد التصق بي اللقب الذي ما إن يسمعه أحد حتى يعلق بالأغنية التي صارت سخفًا محضًا من كثرة ما ترددت أمامي: "اتدلع يا عريس يا أبو لاسة نايلون". حتى تاريخ مولدنا الذي قد يدل على أننا وُلدنا في اللحظة ذاتها ليس مقيدًا في الأوراق الرسمية كالحقيقة، مثله مثل اسمينا.

ولما سألت "أم إدريس" حين كبرتُ قليلًا لماذا قالت لي إن اسم "تمارا" حرام؟ قالت لأنه اسم عبراني، يعني تمرة، أو نخلة، وإن لكل إنسان نصيبًا من اسمه، ومعنى ذلك أنني سأفوز بالتُّقى والصلاح كاسمي، لكنني اشتهيت اسم "تمارا"، فصرت فعلًا شبه النخلة. ليس لأنني فارعة الطول، بل لأنني كُنتُ نحيلة بما لا يتناسب وطولي المتوسط، وكان شعري المقسوم من النصف يشبه حزمتي التمر على جانبي النخلة. حتى ملابس "تمارا" شقيقتي التي كانت تضيق عليها، كُنتُ آخذها كأخت صغرى أقل حجمًا، فتصير مهلهلة وتفقد معظم جمالها.

في الصف الأول الإعدادي، كانت تجلس بجواري "ميراي"، فتاة سمراء حنونة، شعرها أكرت مفروق من المنتصف مثل شعري. هي الوحيدة التي نسيت أو تناست واقعة التبول اللاإرادي التي حدثت معي وأنا في الصف الخامس الابتدائي، وأنا جالسة في الفصل، في منتصف حصة التاريخ الذي كرهته لاقترانه بتلك الفضيحة. أحببتُ حروف اسم "ميراي" التي تُشبه اسم "تمارا"، وأبهرني فرح أختها الذي ذهبتُ إليه في الكنيسة؛ الموسيقى، والترانيم، والأجراس، والصور الذهبية المرسومة على الحوائط، خاصة صورة الأم التي تحتضن الصغير وتنظر إليه بمحبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشفقة. إلا أنني كُنتُ أرهب عمَّها القس، وأتنحى جانبًا حين كان يزورهم، ويجتمع حوله جمع كبير من أفراد العائلة. كُنتُ أخاف من لحيته الكثيفة، ورداءه شديد السواد، لكنني كُنتُ أستمتع بالحكايات التي يروونها والكلمات المختلفة التي يقولونها. كلمات أعرفها كل على حدة، لكنها مركبة بشكل يحدث تأثيرًا في النفس غير تأثير الكلمات التي اعتدت عليها.

كانت تنتابني أحاسيس عند أهل "ميراي" كالتي كُنتُ أشعر بها حين أزور تيتة "نازلي" وجدي "جمال" في "جاردن سيتي". فحين كانت تيتة "نازلي" تعد السُفرة، كُنتُ أشعر برغبة في التهام كل ما يضعونه على مائدتهم من أطباق شهية ووفيرة، رغم أنهم لا يتحدثون أبدًا عن الطعام نفسه أو يتجادلون بشأنه مثلما تفعل تيتة "زكية" التي أعيش معها في "الدرب الأحمر". كانوا يتناولون طعامهم في سلاسة وهم يتناقشون في أمور أخرى، كالأزياء التي ترتديها "تمارا"، ويعلقون في شغف على الملابس التي يرتديها الآخرون في التليفزيون أو حتى مَن يمرون في الطريق تحت بلكونتهم. الأمر الذي كان يشعرني بالضجر، بعد أن يكون بطني الصغير قد انتفخ من حشر اللحوم والفواكه والمكسرات. لكنني كُنتُ أنظر في صمت إلى جَدِّي "جمال"، وأشعر أنه كل هذه الأكلات؛ رجل بحلاوة الفراولة والمانجو، ومقرمش كالمكسرات المرشوشة فوق أطباق الأرز باللبن، ومشبع مثل شرائح الإسكالوب، واللحم البارد، والديك الرومي بالأرز بالخلطة. إلا أنني حين سمعته يهمس لتيتة "نازلي" بأن تهتم بملبسي وتسريحة شعري، شعرت أنه سيكون مصدرًا لمهام مزعجة، فتباعدت عنه نفسيًّا وفقدت اهتمامي به هو الآخر. وظلت زيارة الغداء كل بضعة أسابيع عند "ميراي" هي المفضلة لديَّ، خاصة حين يجتمعون في غرفة الجلوس، ويقولون حكايات تنقلني إلى عالم آخر، مثل حواديت سِتِّي "أم إدريس".

انتبهت ذات حوار كان يدور بينهم بصوتٍ عالٍ إلى كلمة "تمارا"، فظننتهم يقصدون شقيقتي، لكنهم كانوا ينطقونها "ثامار". وكان هناك جدل غريب حول ما إذا كانت "ثامار" زانية أم لا، وهل كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبوها الملك "داوود" مُدانًا حين أرسلها إلى أخيها الذي اغتصبها؟ سألت "ميراي":

- هل تفهمين شيئًا؟

فقالت:

- لا، فالكبار دائمًا ما يدخلون في نقاشات عميقة لا أستوعبها ولا أهتم بها حول قصص من الكتاب المقدس.

الحقيقة أنني فهمت كل ما قاله الكبار في بيت "ميراي"، وكنت فقط أسألها حتى أجد شخصًا يصدقني حين أقص عليه حكايتي، وأتخلص من ثقلها الجاثم فوق صدري. فتَّشت عن تلك القصة كثيرًا حتى وجدتها أخيرًا.

تمارض "عمنون" على سريره، وإذ جاء أبوه ليراه، فقال له دع "ثامار" أختي تأتي وتطعمني خبزًا، وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها. جاءت "ثامار" إلى بيت أخيها "عمنون" وهو مضطجع، فأخذت العجين وعملت كعكًا أمامه وخبزته. وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل. طلب أن يخرج كل الناس، ثم أمسكها وحاول اغتصابها.

إذ حقق "عمنون" شهوة جسده، أبغض "ثامار"بغضًا شديدًا جدًّا، حتى إن البغض الذي أبغضها إياه كان أشد من المحبة التي كانت تستولي على قلبه تجاهها. قام بطردها، فتذللت أمامه ألا يلقيها للعار، أما هو فطلب من الخادم أن يطردها عنوة.

تملَّكتْ قلبي تلك الحكاية التي حدثت ذات مرَّة في "العهد القديم"، وتكرَّرت معي في طفولتي في الليلة السابقة لليوم الذي انفلت الماء منِّي تحت مقعدي في المدرسة، وأخذتُ أتجرَّع مرارتها بمفردي.

كان "عمنون"هذا أخًا لـ"ثامار" من الأب فقط، يعني نصف أخ، مثل خالي "عادل"، الذي لم تفهم "ميراي" أيضًا معنى أن يكون لي نصف خال، فقد كان خالي ليس شقيق أمي لأنه ابن الست

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"صابرة" الشهيرة بـ"أم إدريس". كان خالي "عادل" مضطجعًا على ظهره مثل "عمنون"، لكن لم يكن متمارضًا. كان شبه غائب عن الوعي فعلًا، وتنبعث من فمه رائحة تُشبه الديتول، أو السبرتو. كُنتُ خائفة من عينيه الحمراوين ونظراته الغريبة، لكن تيتة "زكية" لم تلحظ رعبي، وأخذت حقيبتها وتركتني معه وخرجت إلى السوق لتشتري له الدواء. قالت لي أن أعدَّ له طبقًا من الحساء الساخن بالليمون، وأن أدخل الطعام إلى غرفته لأنه دائخ ويهلوس من الحُمى. حملت الصينية إلى غرفته مثلما أمَرَتني، وعصرتُ الليمونة وأخذت أقلبها في الحساء مثلما فعلتْ "ثامار" أخت "عمنون". وفي ثوانٍ وقبل أن يأخذ خالي "عادل" ولو رشفة واحدة من الحساء، كان يجثم فوقي مثلما فعل "عمنون" بأخته. العجيب أنني كُنتُ الوحيدة التي نالت حظًّا سيئًا من اسم "تمار"، أو "ثامار" حين اشتهيت ما ليس لي، أما"عمنون" أو "عادل"، فقد خالفا نظرية "أم إدريس" تمامًا، في أن للناس نصيبًا من أسمائهم. فـ"عمنون" بالعبرانية تعني "أمين"، كما لم يكن خالي "عادل" عادلًا معي حين فعل فعلته النجسة وهو مخمور، أو حين ذهب إلى "وديدة" صاحبة البيت وغيَّر عقد الشقة باسمه، حتى يقوم بطردي بعد أن تتوفَّى تيتة "زكية".

لم يفهم أحد سر الابتسامة الثابتة على وجهي، التي لا تنبع من القلب، ولا تؤكدها العينان، فأبدو كبلهاء لا تعرف هي نفسها لماذا تنفرج شفتاها كعروس خشبية. فاليوم الذي حدثت فيه تلك الواقعة كان يوم الوفاة الأولى لي، فقد شاهدت نار جهنم بأم عيني، وأنا مُنحشرة بين يدي وساقي خالي "عادل"، مثل فأر ضعيف يُعافر بين القوائم الأربعة لوحش أكثر منه قوة. وتلك الابتسامة نفسها هي التي قابلت بها تيتة "زكية" حين عادت من السوق، حتى أداري على فعلة خالي "عادل"، الذي تناول الحساء بنصف عقل بعد أن استيقظ من نومه، ثم وقف تحت الدش الساخن، فساحت تحت المياه أحداث الساعة الفائتة ونسي كل شيء. كما صرت أحرص على بث تلك الابتسامة في وجهه هو تحديدًا، لكي لا يتذكر فزعي وصوتي المكتوم وأنا أدفعه بكل ما أوتيت من عزم، حتى انقلب على وجهه وراح في نوم عميق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صرت أنا التي تضحك له، لكي أطمئنه أن لا شيء قد حدث، وكأنني أنا المتهمة التي تتذلل سرًّا لضحيتها. مَن لم أسامحها قط هي تيتة "زكية" التي تلقَّفت "عادل" ابن زوجها وضرَّتها كابن من صلبها، ودلَّلته وتغاضت عن كل هفواته على مدار سنوات عمره العشرين، حتى فشل في دراسته، وهاجر إلى ألمانيا، وتركها تتعذَّب بحسرة أمومتها المحرومة.

وحين نجحت أنا بمجموع متوسط في الثانوية العامة، اخترت المكان الذي أعرف فيه "كيف تُغزل الخيوط التي منها تحاك أكفان الحق والعدل" كما يقولون. كلية الحقوق، حيث سمعت كلامًا يُهدِّئ النفس عن أن المُحاماة هي "أمل السجين في سجنه، ومرجع الخائف على حقه والمُروَّع في حياته". كما كُنتُ قد بدأت مشوار جهاد السالكين والصالحين في التَّخلِّي عن الأوصاف الذميمة كالتَّزيُّن للخلق، والتفاخر، والضحك، وكثرة الكلام والمزاح، وبدأت أتحلَّى بالأوصاف الحميدة كالزهد، وقلة الكلام، وحب العزلة. إلا أن قلبي ظل متوجهًا إلى تدليل معدتي بما لذَّ من صنوف الطعام، حتى تحولت من طفلة نحيلة تتخبط عظامها في الملابس، إلى فتاة ممتلئة تأكل كل ما يقع تحت يديها. وقد أوقعني هذا الإثم في ظلمات المعاصي.

جاءت "تمارا" ذات صباح لزيارتنا، ومعها قالب كبير من تورتة الشوكولاتة، وكانت تيتة "زكية" قد وهنت عظامها، وأصابتها الهشاشة، حتى إنها كانت لا تستطيع أن تبرح الفراش إلا لو استندت إلى كرسي نضعه لها بجوار السرير. وضعت "تمارا" التورتة على منضدة في الفراندة، وقالت لي:

- هاتي الكرسي ده وتعالي.

كالمُغيَّبة سحبت الكرسي المجاور للفراش، وأخذت ألتهم الشوكولاتة السائحة في المكسرات. استيقظت تيتة "زكية"، ونادتني فتجاهلتها حتى أنتهي من قطعة التورتة، وقد سمعتها "تمارا" أيضًا، لكنها كانت مأخوذة بزقزقة العصافير وهديل الحمام في الباحة. وبعد دقائق، سمعنا خبطة قوية، أسفرت عن كسر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالحوض والساق اليسرى لتيتة "زكية". أثبتت التحاليل أن تيتة قد وقعت بالقرب من الحمَّام نتيجة خلل دماغي، وليس لأنني سحبت الكرسي، المجاور لفراشها. لم أسهر على راحة تيتة "زكية" من منطلق الندم، بل لأنني طمعت في دخول الجنة من باب بر الوالدين، وقد سلكت هذا الطريق من سلم الخدم. كُنتُ أطعمها في فمها، وأغسل ملابسها، وأنظف فضلاتها، ثم أحمِّيها. وحين يتملكني الضجر وأتذكر قرصاتها وتوبيخها لي ومقارنتي بـ"تمارا" النظيفة الأنيقة اللطيفة في كل مناسبة، أتخيَّل أيضًا جسدي النحيل حين كُنتُ أقف عارية في الطِّست، وهي تسكب فوق رأسي الماء الدافئ اللذيذ وتحكُّ ظهري بالليفة والصابون. ثم صرت أستمتع بالخدمة من منطلق أن خادم القوم سيدهم، فبدأت أشعر أن لي يدًا عُليا على تيتة "زكية"، وكأنها مجرد أداة لفعل الخير مثل صندوق النذور الذي نسقط فيه بعض القروش حين نمر من أمام المسجد.

لم أرَ "تمارا" طوال شهرين، فقد كانت تلهو في إحدى سفرياتها، وحين أتت لزيارتنا، تركتها قليلًا مع تيتة "زكية" و"وديدة" لأذهب إلى الكلية لمعرفة نتيجتي. وحين عدت، وجدت تيتة "زكية" مُغطَّاة حتى أعلى رأسها، والبيت ممتلئ عن آخره بالمُعزِّين.

تلاقت أعيننا أنا و"تمارا"، كانت تنظر لي في حياد بارد، لكنني كُنتُ أشعر أننا دبَّرنا لقتلها معًا. كان لـ"تمارا" نظرية سخيفة حين يموت أحد، تحمي بها نفسها من الوقوع في دوامة الحزن. كانت تقول: "سأتذكر كل الأشياء السيئة التي فعلها وقالها". فعدت ثانية إلى قصة "عمنون" الذي اغتصب "ثامار"، وأخذت أقرأ تفاصيلها وأجترُّ عذاباتي. الخطيَّة تجلب الخزي والعار، وتحطم مرتكبيها. تجسدت الخطية في جسد تيتة "زكية" المُسجَّى بلا حراك، فهي مَن كانت وراء إفساد وتدليل خالي "عادل". شعرت براحة لأنني حتى لو كُنتُ قد شاركت في قتلها، فقد كفَّرت عن ذلك الذنب بالتفاني في خدمتها، وقرَّرت أن أتخلَّص من مرتبة النفس الأمَّارة بالسوء بالانتقال لمقام أنقى وأطهر، بترديد الأذكار والأوراد، ومحاسبة النفس، وتخويفها بالموت، وعذاب القبر، وأهوال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القيامة. وكان على "تمارا" أن تكفِّر هي الأخرى عن معصيتها الكبرى في إغوائي بالحلوى ومشاركتي في قتل تيتة "زكية"، بدلًا من أن تظهر في حياتي كومضة، كل بضعة أشهر، ثم تحمل حقائبها وتغيب في ترحال طويل.

"جمال الشوافيلي"

عجيبة جدًّا اللحظات التي أقول فيها قولي هذا، فهي بحساب عقارب الساعة لا تتجاوز خمس دقائق، وبمقاييس سماوية عُليا، تساوي عُمرًا طويلًا.. حياتي بأكملها التي زادت على الثمانين عامًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفم قليلًا، في فراشي الحبيب، بشقة "جاردن سيتي"، 15أ شارع "جمال الدين أبو المحاسن".

يقول الذي أسبل جفوني منذ ثوانٍ: "البقاء لله". تُصدر "نازلي" زوجتي أصواتًا تزعجني، نداءات باسمي كالولولة، "يا جمال! يا جمااااال!". ينبح "چاكيت" بقوة في الفراندة، ويمتزج عواؤه بأذان الفجر الذي يأتيني كأصداء من ميكروفونات بعيدة.

تضع "تمارا" رأسها على صدري، فوق موضع القلب الذي توقَّف منذ قليل، وتحتضنني صامتة بذراعها اليُمنى. يأتي شخص غريب ويسحب "نازلي" زوجتي من الغرفة، فتنزلق "تمارا" تحت البطانية الدافئة التي تُغطِّيني، وتغمض عينيها لثوانٍ، ثم تفتحهما وتتمعن في تفاصيل وجهي. أعرف أنها لن تذرف دمعة أمامي الآن، فهي توفر بكاءها حتى أغادر تمامًا، وتعفيني من مشاهدتها وهي تتألَّم. تُمرِّر كفَّها على خدِّي، وتقول دون أن تنطق:

"إنت جميل قوي يا چيمي جدو".

أستطيع أن أسمعها وأراها، على الرغم من أنها لا تفتح فمها، وعلى الرغم من أن عينيَّ مغلقتان.

"ماتخفش يا چيمي جدو، ربنا بيحبك".

تقولها وهي تربت على كتفي، وتقبلني قبلة خفيفة، وتريح رأسها على ذراعي.

ينبعث ضوء من نقطة بعيدة، ويتسع أمامي، وكأن وجهي شاشة عرض تدور عليها أحداث أعرفها جيدًا، بل كُنتُ أنا بطلها. أراني طفلًا، وشابًّا، ورجلًا مهيبًا. أشم روائح الصوف، والكشمير، والتويد، والقطيفة، وزيت الماكينة، والطباشيرة الناعمة، وإسفنجة الدبابيس والإبر، كما أسمع صوت الماكينة "السينجر" المنتظم يدور سريعًا، ثم تخف سرعته، فيطغى صوت بكاء طفلة رضيعة، آتٍ منذ زمن بعيد، أضمها إلى صدري آنذاك، فتهدأ، مثلما ترقد في اطمئنان على كتفي الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتكـرر أسماء كثيرة على مسامعي؛ "شامل"، "نـازلي"، "تُقى"، "چاكيت"، "بالينسياجا"، "كريستان ديور"، "شانيل"، ثم يسود اسم "تمار" عمتي و"تمار" حفيدتي.

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

تتردَّد تلك الآية القرآنية أيضًا في مسامعي. أعرف الآن فقط أنني فـي الآونـة الأخـيرة كُنتُ قـد بـدأت أفتقـر إلـى البصيرة، أنسى المواعيـد التي أتفق عليها مع أصدقاء النادي، ويصيبني ضيق شديد حين أفاجأ بزيارة أحد معارف"نازلي" وبصحبته أطفاله، أو حـين يـرتفع صـوت التلـيفزيون أو الباعـة الجـائلين، أو رنَّات المحمـول. كما كُنتُ أخفي أشياء مهمة حتى لا تطالها أيـدي العـابثين، وبعـد ساعات أنسى مكانها، وأفقدها أنا شخصيًّا إلى الأبد. ليتني أستطيع الآن أن أخبر "تمارا" أنني ما كُنتُ لأسحب كل أموالي وأغامر بها، إلا لأزيد رأس المال الذي يدر دخلًا يضمن لها ولـ"نازلي" الحياة الكريمة نفسها بعد رحيلي. ليتني أستطيع أن أعتـذر لـهما عـن تبـديدي لكل الأموال ووضعها فـي ذلك المحل الصـغير بـالحي الأثـري البعيـد، أو أن أنـهض الآن، وأفتـح درفـة الدولاب لأخرج الصندوق الخشبي الذي يحتوي على فردة القرط القديمة، المربوطة بشريط قطيفة في كتاب مقدس صغير. ذلك الإرث العجـيب الـذي سـلمتني عمتـي "تمـار" إياه حين تزوجْت، وضغطت على كفي وهي تقول:

- أبويا قال لي ده مفتاح السعد، وأبوه وأبو أبوه قالوا كده.

لا أدري أي سعد كان يحمله مع أسرة ظلَّت تتضاءل حتى لم يتبقَ منها سواي، أنا وحفيدتان يتيمتان. كان مع القرط الذهبي تحذير شفاهي تتناقله الأجيال:

"إياكم أن تغسلوه بالماء، حتى تظل فيه روح ورائحة صاحبته".

فكان مَن يقع في حوزتهم يقلبونه في سُخرية، ويسميه بعضهم "القرش البراني"، فلا هو من الذهب حتى يباع، ولا له فردة أخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى يُلبَس في الأذن. حتى تلك الوصية بعدم المساس به كانت تحمل ترهيبًا وتهديدًا، فلم يقع أي من الورثة في غرامه على مر العصور، كما لم نجرؤ على التخلص منه.

ليتني نصحت "تمارا" أن تأخذه في راحة يدها وتقبض عليه، أو ترتديه في أذن واحدة، فتنتقل تلك الروح الثرية التي يخشون فناءها إليها. أو ليتني حتى نصحتها بأن تخالف الوصية وتمرر عليه الماء الجاري أو تتخلص منه إلى الأبد، فربما كانت به لعنة جعلتني أفعل ما فعلته في لحظة طمع نبيل، فخسرت كل ما كُنتُ سأتركه ليسترها.

تتسرَّب الدقائق بمقاييسهم، ويدخل إلى الغرفة أشخاص بوجوه مُكفهرَّة وخطوات ثقيلة. تسحبني نقطة الضوء بعيدًا عنهم، فتغمرني السكينة. تستنشق "تمارا" ملابسي ورائحة جلدي وكأنها تسحب بداخلها الشعاع الأخير، قبل أن تشدَّها ذراع ما وتفصلها عنِّي.

تمتلئ الغرفة بالسواد والدموع وكلمات الرحمة، فأدور في دوامة من نور حتى أغوص تمامًا في بياض كالسحاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"تمارا"

ارتديت فستانًا أحمرَ فاقعًا بعد وفاة "چيمي جدو" بيومين فقط. ظنت النسوة اللاتي كن يتلفحن بالأسود وقت زيارتنا أن في أزيائهن الداكنة مواساة لروحي، وأن رحيل جَدِّي قد أفقدني صوابي، وجعلني أخالف العُرف السائد. لم يعرفن أنني كُنتُ أنفذ وصايا لم يكتبها، لكنه ظل يلقنها لي على مدار حياته. فالوحيد الذي كانت كلماته تضاهي حكايات "أم إدريس" في سحرها، هو "چيمي جدو". الفارق أن حواديت "أم إدريس" كانت لها نكهة البيجامات الكستور وقت دخول الشتاء، و"رحرحة" الجلوس فوق الكليم البُنِّي الخشن، أو النوم في ليلة صيفية على زهور قماش "الكريتون"، الذي يكسو الكنب البلدي المتناثر على سطح بيت "تيتة زكية" جدَّتي لأمي، في حي "الدرب الأحمر". أما الأقوال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممشوقة التي كان يحفظها "چيمي جدو" وصارت جزءًا لا يتجزأ من أسلوب حياته، فقد كان لها ثراء المخمل، ونعومة الحرير، ورقّة الدانتيل، ودفء الكشمير.

كان "چيمي جدو" عاشقًا للون الأحمر، ليس كلون فقط، بل كضمادة للروح حين يكسوها الأسى. وكان يقول إن خبراء الموضة ينصحون المرأة أن ترتدي الأحمر حين تكون في شك من أمرها. فلما كان ينزوي صامتًا في ركنه المحبب إلى جانب الراديو الكبير، عقب فقد صديق أو حدوث أزمة نستشعرها ولا يفصح عنها حتى لا نشغل بالنا، ويوهم جَدَّتي "نازلي" إنه مستغرق في سماع أغنية لـ"نجاة" أو لـ"عبد الوهاب"، كان يتلفح بكوفيته الحمراء، أو يُداري برد روحه بروب البيت بلون النبيذ الأحمر. وكنت الوحيدة التي تشبك يدها في يده في صمت، وأنا ألمح دمعة ساخنة تتدحرج في استحياء من طرف عينه. ولما كان يتهلل وجهه في آخر الليل، كانت تظن تيتة "نازلي" أن المشكلة قد انحلت، بينما كُنتُ أنا التي تعرف أنه قد شم فقط رائحة المكرونة الإسباجيتي التي تُعدها له على العشاء، وأنه لا يأكلها بهذا التلذذ، إلا لأنها غارقة في الصلصة السميكة الحمراء.

جدي "جمال الشوافيلي"، أنيق الروح، المصرح لي أنا فقط بأن أناديه بـ"چيمي" سرًّا، و"چيمي جدو" أمام الآخرين، ليس مثولًا لأوامر ونواهي تيتة "نازلي"، بل لأن "چيمي جدو" لا يمكن أن ينادى باسمه مجردًا من دون حلية أو تاج، وهو مَن يناديه زبائنه من العظماء بـ"جمال بيه"، ويلقبه الأقل منه مقامًا بـ"الباشا". ليس مثل الباشا التي تقال لسائقي التاكسي، بل لأنه كان صاحب رونق وجاه، جلوسًا وقيامًا وحديثًا مختصرًا وتبسمًا هادئًا وأبهة غامضة نابعة من الأعماق، لا تستطيع وصفها بكلمة محددة قالها، أو زي غالٍ ارتداه.

هذا الوجيه الشامخ صار في أيامه الأخيرة مثل طفل بائس تنهمر دموعه لأسباب لا نعرفها، ولم يعد يتمكن من التعبير عن سببها بعدما شخص الأطباء حالته بالـ"ألزهايمر" أو "خرف الشيخوخة". سمعت تلك الكلمة الثقيلة ذات مكالمة بين تيتة "نازلى" وإحدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صديقاتها، ووددت لو كان بإمكاني أن أصرخ في وجهها وأنهرها. كيف هان عليها أن تتلفظ بكلمة قاسية كهذه على صانع الجمال والأناقة "جمال الشوافيلي"، الذي ظللت أتساءل طوال سنوات عمري كيف تزوجها أصلًا، بل كيف تقبَّل بتلك الوداعة ورحابة الصدر زيادة وزنها، ومداومتها على التخفِّي في البيت تحت هذا الرداء الواسع الذي تسميه إسدالًا، وهي مَن يقول الجميع عنها إنها كانت تُشبه "جريتا جاربو" شكلًا وأناقة، وكان "چيمي جدو" يهمس لي في حسرة:

- دي كانت "كوكو شانيل"، زيًّا وعطرًا.

أما أنا فلم أتحسَّر إلا على "چيمي جدو"، حين كُنتُ أقرأ وأتفرج على نجمات "هوليوود" الحاليات وهن يتفاخرن بأن فساتينهن المبهرة صنعها مصممون عرب مثل "إيلي صعب"، أو "زهير مراد"، فلم تكن تختلف كثيرًا عن رسومات "چيمي جدو" على أوراق الكلك، والتي كان قد تحول جزء كبير منها إلى ملابس من روح وحياة تكاد تنطق بالحكايات، وتكتظ بها حقائب تيتة "نازلي" الضخمة، المدسوسة تحت الأسرَّة وفوق الدواليب.

لم يكن جَدِّي مريضًا كلاسيكيًّا بآفة النسيان، فلم يغادر البيت ذاهلًا، أو ضلَّ يومًا في الطرقات مثلما نسمع عن المُبتلين بال"ألزهايمر"، بل ظل قابعًا بجوار أوراقه وكتبه، ينظر إليها مليًّا وكأنه يعيش أحداث حلم سعيد، ثم يفيق من غفوته ويطلب أشياء جديدة لا أجادله بخصوصها، وأحضرها له فورًا، حتى تكدَّست غرفته بالمساطر الخشبية، والمازورات، وورق الكربون، والمقصات، والأشرطة اللاصقة، ومئات الباترونات لفساتين طويلة، مجسمة من تحت الصدر، ثم تتسع فجأة. عكف على رسمها في صمت وشغف، وكأنها لنساء بدينات أو لأمهات ينتظرن حدثًا سعيدًا. أما حين بدأ يخلط بيني وبين أخته وعمَّته اللتان سمَّاني على اسميهما، نصحني الطبيب بأن أطلب منه أن يحكي لي عنهما، حتى تحل الفرحة مكان الحيرة. فيبدأ في سرد حكايات قديمة كأفلام الأربعينيات، تبهرني وتُهدِّئه، ولم يكن يعكر صفونا سوى صوت تيتة "نازلي"، وهي تأمره كأم متشددة

8%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يكفَّ عن الكلام ليأكل، ويتناول الدواء.

ما لم أجد له تبريرًا حقًّا هو كيف لم نجد بين أطنان تلك الأوراق والمستندات التي عكف على تستيفها في دقة طوال حياته، ولو صفحة أو وثيقة واحدة تدل على إرث أو رصيد بنكي، أو حتى عقد بيع المحل أو الأتيليه، أو كنزًا أو دنانير مخبوءة تحت بلاطة، أو في حشوة لحاف أو بطانة فستان، كالحواديت الخرافية التي كنا نسمعها من "أم إدريس"، أو نتابعها في مسلسلات إذاعية في الراديو الخشبي الكبير؟!

تزعجني المقولات الجاهزة التي تحمل شحنة سلبية، مثل جملة "المصائب لا تأتي فُرادى"، وحين تقال تتشكل أمامي لوحة مرسوم عليها جنود مهزومون يتقدمون نحوي في زي موحد أسود مائل إلى الرمادي، محاولين طمسي وسط تعاستهم، لكنني فوجئت بلسان حالي ظل يردد الكليشيه الحزين بعد أن فقدت "چيمي جدو" مباشرة. فارتديت البيجامة القطيفة الحمراء، لأتجاوز فكرة أن "شادي عبد الهادي" قد تلاشى في نذالة سلسة في هذا الوقت العصيب، وحتى أضع رأسي على وسادتي دون أن أقلب في الرسائل الواردة على المحمول تلهفًا على كلمة مواساة منه. وتلفحت بالبالطو الصوف الأحمر وأنا أتردد على مكتب المقاول الذي اشترى كل الشقق من سكان العمارة، ووعدهم بمنحهم شققًا تماثلها أو أوسع قليلًا في حي "جاردن سيتي" نفسه، إلا أن الرجل سافر وترك لنا سكرتيره يرد بمراوغة وتبجح، بأنه لا يعرف متى سيتم تشطيب الشقة الموعودة، وفي الوقت نفسه يطالبنا بإخلاء مسكننا خلال شهر، كما ينص العقد. أما الطامة الكبرى التي لم يكن ليخفف من وطأتها فساتين بكل ألوان الطيف، فهي كيف سيغلق علينا باب وأعيش بمفردي مع تيتة "نازلي"؟

"تمارا"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"نازلي سنجر"، جَدَّتي والدة أبي، وزوجة "چيمي جدو"، يبعث ذكر اسمها فحسب على الرهبة، وانقباضة خفيفة في الروح. فلطالما ظننتُها الكائن الخرافي المُجنَّح المرسوم باللون الذهبي على ماكينة الخيَّاطة الحديدية السوداء، والمكتوب عليها بحروف إنجليزية "سينجر". وحين تعلَّمت في المدرسة أن كلمة "سنجر" تعني "مُغنِّي"، استبعدت أن تكون تيتة "نازلي" هي صاحبة صورة "أبو الهول" ذي الجناحين، والذي لم أعرف إن كان رجلًا أم امرأة أم شبحًا، ويستقر في ثقة بعرض ماكينة الخيَّاطة. كما استبعد عقلي الباطن فكرة أن تكون تيتة "نازلي" هي المسيطرة على آلة تجلب لي السعادة، حين تصدر صوتًا هائلًا فوق أقمشة ملونة، تقص، وتلتئم وتنكمش، وتُفرد تحت إبرتها المكوكية، لتصبح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فساتين وشورتات وجونلات، يستوقفنا الناس في الطريق، ويسألوننا من أين أتينا بها، فتعتذر تيتة للسائل لأن ما أرتديه "تفصيل". تلك الومضات أو الخروجات الصغيرة إلى شارع "قصر النيل" لشراء أقمشة "الديولين"، و"الجرسيه"، و"التويد" شتاءً، و"الكتان"، و"اللينو"، و"الترجال" صيفًا، هي أبهى ذكرياتي مع تيتة، تليها تلك اللحظات التي تشرح فيها لـ"عمو عزيز" الترزي أو لـ"وديدة" الخيَّاطة كيف سيشكلان هذه الأقمشة لتصير فساتين "كلوش"، أو "إيفازيه"، أو "تاي باس". كانت تنطق تلك المصطلحات الفرنسية في سلاسة، وتتلقاها "وديدة" الخيَّاطة في بساطة، وأفهمها أنا الطفلة التي لم تتقن اللغات بعد، وكأننا ولدنا مزودين بكارت ذاكرة لمصطلحات الموضة. كان ذلك منذ زمن بعيد، سنوات الطفولة الأولى، ربما قبل الصف السادس الابتدائي. حتى تلك الومضات كانت تتخللها قرصات في غلٍّ بأصابع تيتة، تترك علامات زرقاء على الفخذ، حين أحصل على علامة تقل عن الدرجة النهائية، أو حين لا أضم ساقيَّ على جنب واحد، كما يقول الإتيكيت، أو حين تقول تيتة معلومة خاطئة على الملأ وأصححها لها. ثم ظهرت الهُوَّة العُمرية الكبيرة بيننا. ليست فجوة عادية بين جيلين، بل حفرة عميقة وعريضة تفصل بين جدة صارمة حُرمت من ابنها الوحيد، وحفيدة منعمة في حنان أبيها. نعم، كُنتُ أعتبر "چيمي" هو أبي المباشر، وأحيانًا صديقي وأخي، وحين كبر وأصبح عاجزًا عن القيام بأمور عدة، صار ابني. وعلى حد كلامه، في أحد حواراتنا الليلية، حين كان يعود مُنهكًا من الأتيليه، ونعتبرها اعترافات سرية خاصة بنا نحن فقط، قال لي إنه لم يعتبر ابنه "شامل" رجلًا من صلبه، بل نطفة تكونت في رحم تيتة "نازلي"، وصارت النسخة الذكورية منها. وعلى الرغم من حزنه الشديد عليه، حين فارق الحياة قبل مولدي بأربعين يومًا، شعر أنني أنا كُنتُ المعنية بأن أكون ابنته. "تمار" التي تنص الوصية الشفاهية المقدسة في أسرته بأن الابنة الكبرى لا بد أن تحمل اسم "تمار"، وكأنها أمر رباني مقدس. وكنت أنا الأمل الأخير في كشف حجاب هذا السر، أو دفنه ونسيانه إلى الأبد، فقد أخذت عائلة "الشوافيلي" في التناقص والاندثار، حتى لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

يتبقَ منها سوى "جمال الشوافيلي"، وابنه "شامل"، الذي داهمته السيارة، وتلاشى على حياة عين أبويه.

كانت تيتة "نازلي" تشعر بشكل ما أن "چيمي جدو" قد تقبَّل العوض والهدية السماوية بفرح. الأمر الذي لم تتجاوزه هي، وأن التوأمتين "تمارا" و"تُقى" لا تساويان "شامل" ابنها، على الرغم من الإرث في القرآن، والمصحف الذي لم يعد يغادر يديها أو لسانها بشكل مبالغ فيه، ينص على أن "للذكر مثل حظِّ الأنثيين". في الواقع لم تكن سيرة أو اسم تيتة "نازلي" هو ما يحث على الرهبة، بل اسمي أنا حين تنطقه. كانت عادة تستدعيني من غرفة بعيدة، وبالنبرة المتوعدة التي تناديني بها "تمااااراااا"، فيقع قلبي في قدمي كما يقولون، وأشعر أنني ارتكبت جرمًا لا يُغتفر، حتى لو كانت تريدني لكي أعلق فستانًا أو لأحضر لها فكَّة عشرة جنيهات، أو لتسألني عن أمر نسيته هي. كُنتُ دائمًا من وجهة نظرها أنا المُلامة، فظللت محملة بذنوب صغيرة عشَّشت في روحي كلما سمعت اسمي بصوتها. أما حين كانت تريد أن تُثني عليَّ أو تمتدحني، تقول بنبرة محايدة مثل مذيع نشرة الأخبار: "ميرسي يا ست تمارا". وقلَّما قالتها، حتى وهي في أضعف حالات مرضها، وأنا أحضر لها الدواء، والطعام، وأسندها حتى تصل إلى الحمَّام لتقضي حاجتها، وتصر على الوضوء خمس مرَّات في اليوم، بما فيها صلاة الفجر، حتى بعد أن أتينا لها بفتوى لجمع الصلوات، نظرًا لحالتها الصحية رفضَتْ. لم أسمع جملة "ميرسي يا ست تمارا" سوى مرَّة واحدة أو مرَّتين، بناءً على رجاء من "چيمي جدو" يرسله لها بعينيه، بعدما لم يعد قادرًا على القيام بمهام الاعتناء بها العصيبة، وخوفهما هما الاثنين من أن يحضرا ممرضة قد تنتهز فرصة عجزهما وتسرقهما أو تقتلهما. ما ذنبي في أن تيتة "نازلي" قد وافقت على زواج ابنها "شامل"، أبي، من قريبتها من الفرع الفقير البعيد من العائلة لأنها عليلة وكسيرة الجناح، فتستطيع تيتة أن تفرض هيمنتها على حياتهما بسهولة ولا يخرج "شامل" من حضن أمه إلى حضن امرأة قوية تعاملها رأسًا برأس، لكن "شامل" ضعيف الشخصية أمام أمه، كان قوي الجسد على زوجته، فاعتلَّت أكثر ولم تتحمل أن تُبقى على حياة توأمتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحياتها أيضًا. يقال إنني و"تُقى" كنا متطابقتين لحظة مولدنا، فتوزَّعنا على البيتين من دون انتقاء، لكن ملامح "تُقى" أخذت تتبدَّل حتى صارت نسخة من أبي، وأنا أصبحت توليفة من كل أفراد الأسرة، لكن الأوان كان قد فات في أن تستبدل تيتة "نازلي" البضاعة وتعيد تقسيم التركة، فقد صارت "تُقى" نسخة نفسية من أمها وجدتها تيتة "زكية" في "الدرب الأحمر"، وأصبحت أنا الروح المكملة لرفيق القلب "چيمي جدو".

أخجل من الاعتراف حتى أمام نفسي بأنني كرهت تيتة "نازلي"، وطالما تشككت أنها والدة أبي، وأنني عانيت من فوبيا رسم السيناريوهات للحظة وفاتها هي و"چيمي جدو"، وتمنيت أن تسبقه هي، حتى لا أضطر للعيش معها من دونه، فلولا التوازن النفسي الذي كان يحدثه لي باحتوائه ولطفه وحكاياته وعالمه الثري، لصرت عُقدة كبيرة تسير على قدمين، أو لكنت الآن امرأة في منتصف الثلاثينيات، يشوبها الذهول ونظرات البلاهة الطفولية كالتي تعلو وجه "تُقى". الغريب أنها كانت دائمًا تُوجِد لـ"تُقى" المبررات لحماقاتها، وتتعاطف مع صعبانياتها، وكأن "تُقى" هي التي ولدت يتيمة وحدها، وكأنني لم أشاركها الرَّحِم الذي تهتك لوجودنا معًا به. حتى فساد ذوق "تُقى" في تنسيق الألوان وإهمالها لمظهرها كانت تجد له مبررًا بأن "تُقى" أقل منِّي حظًّا، لوقوعها في قرعة تيتة "زكية"، ابنة الحي الشعبي. ثم نالت "تُقى" صكًّا شرفيًّا للغفران الأبدي عن كل زلاتها بعد أن فقدت عينًا في حادث انقلاب الحافلة في رحلة المدرسة.

ربما كان من الخطأ أنني أظهرت تصالحي مع فكرة اليُتم هذه، وكنت أتذمَّر من أي تعليق يشير إليها كمأساة؛ لأنني لم أكن أشعر بها من الأساس. يقولون إن مَن ذاق اشتاق، وأنا لم أذق حضن أم، أو لمسة أب، فلم أشتَهِمَا لأنني لم أعرف لي أبًا أو أمًّا، أو لأن "چيمي جدو" كان أبًا بما يكفي ويفيض. ربما تساءلت أحيانًا عن كيف تكون الأم، خاصة حين كُنتُ أتفرَّج على مجلة "البوردا"، وأشاهد الأمهات الشقراوات اللاتي يشبهن بناتهن، ويرتدين الموديل نفسه، ويتخذن وضع التصوير نفسه، وكأن البنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصغيرة صورة مُستنسخة من الأم، فتمنيت حين أكبر أن تكون لي ابنة تشبهني، ونرتدي فساتين باللون نفسه والموديل، ونسير يدًا بيد ونحن نجوب الشوارع الفسيحة، ونقف لنلتقط الصور، وفي الخلفية بنايات عريقة وآثار. ربما أيضًا كانت هذه هي الحالة الوحيدة التي عشقت فيها التكرار، وأن أجد صورة مُصغَّرة منِّي. ثم فقدت الأمل بعد طلاقي من "محمد"، فقمت بتبنِّي "سهر" روحانيًّا. كما اكتفيت بغرس أصابعي في فراء كلبي "چاكيت"، وهدهدة باطن كفِّي بالتربيت والطبطبة على شعره الغزير الأملس، والفرحة بتهليله كطفل يحتفي بأمه حين أدخل البيت.

نجحْتُ في التحايل على تنغيص تيتة "نازلي" بالهروب، بحجة المذاكرة، والتزود من كورسات اللغات، والعمل في الإجازات الصيفية، ودبلومة التاريخ، ثم دبلومة تصميم الأزياء في لندن، وفترة زواجي القصيرة. العجيب أنني طلبت الطلاق من "محمد الخيامي" لأننا كنا نشبه "چيمي جدو" وتيتة "نازلي" كزوجين غير متجانسين. وما كُنتُ لأظل على تلك الحال معه لأكثر من خمسين عامًا مثلهما، تاركين البعض يتساءلون في حيرة عن السر الذي يبقينا على قيد الزواج، لأعود وأعيش مع أنيق الروح "چيمي"، ومشوشة المشاعر تيتة. ولولا الجملة التي قالها لي جدو قبل أن يتمكن منه داء النسيان، والدفتر الصغير الذي اكتشفته بعد وفاته، وكتب فيه بعضًا من حكايتهما، ما كُنتُ لأتحمل أن يجمعني بها بيت بمفردنا، وكأن حضن "چيمي جدو" الذي مكثت فيه لساعتين كاملتين بعد رحيله، كان كالورقة الزرقاء، التي كان يضعها في طيات الباترون، فصرت نسخة "بالكاربون" منه، وعاشرت تيتة "نازلي" بالمعروف.

"البيت المؤقت عبارة عن دار أثرية اكتُشفت توًّا، قصرًا كان لأمير أو أحد الأكابر.

رئيس الدولة وزوجته الجميلة، سليطة اللسان، تباشر الخدم، وهم يرصصون أطباقًا خزفية ناصعة البياض، وملاعق وسكاكين من الذهب الخالص، وكؤوسًا من الكريستال. تشاهد تيتة "نازلي" الحركة الدؤوب مبهورة بمظاهر الأبهة، وأسير أنا كالمنومة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مغناطيسيًّا خلف عالم الآثار، الذي يفتح صوانًا ممتلئًا بالعاديات النادرة، وألتقط صورًا لها. أما "چيمي جدو"، فينظر إلى المشهد في عدم اكتراث، ويتجه نحو بحيرة صغيرة في بهو القصر، مرتديًا بذلته الرمادية التي لا أحبها، واتسعت عليه بعد أن فقد كثيرًا من وزنه. في جرأة لا يتحلى بها، قفز في البحيرة فغمره الماء وتنعم بأمان جنين يسبح في رحم أمه، ثم خرج رائقًا، تنقط بذلته الرمادية ما تبقى من أدران روحه".

على مشهد "چيمي جدو" الصاعد من البحيرة، أفقت من الحلم، فجر اليوم السابق لمغادرتنا أنا وتيتة "نازلي" لشقة شارع "جمال الدين أبو المحاسن"، لنقيم لأجل غير مسمى مع "تُقى" في شقة "الدرب الأحمر"، بعد أن تم القبض على مُشتري عمارة "جاردن سيتي"، بتهمة النصب والتزوير، وفقدنا البيت الذي كان يُؤوينا.

"الميَّة في الحلم مراية روح اللي شاف الحلم".

جملة رددتها "أم إدريس" ذات تفسير لمنام، تذكرتها وأنا ما زلت مُتسمِّرة في فراشي أحاول استرجاع أحداث الحلم العجيب. فأدركت أن "چيمي جدو" حين قفز في البحيرة، قد حلت روحه في روحي. ما أزعجني هي تلك البذلة الرمادية التي لم تلِق به، وصارت زيه الرسمي في كل المنامات والرؤى التي سيزورني فيها. الغريب أنني اكتشفت فيما بعد أن تلك كانت البذلة الوحيدة التي احتفظت بها تيتة "نازلي" في حقائبها، كتذكار من ملابس "چيمي جدو".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"تمارا"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

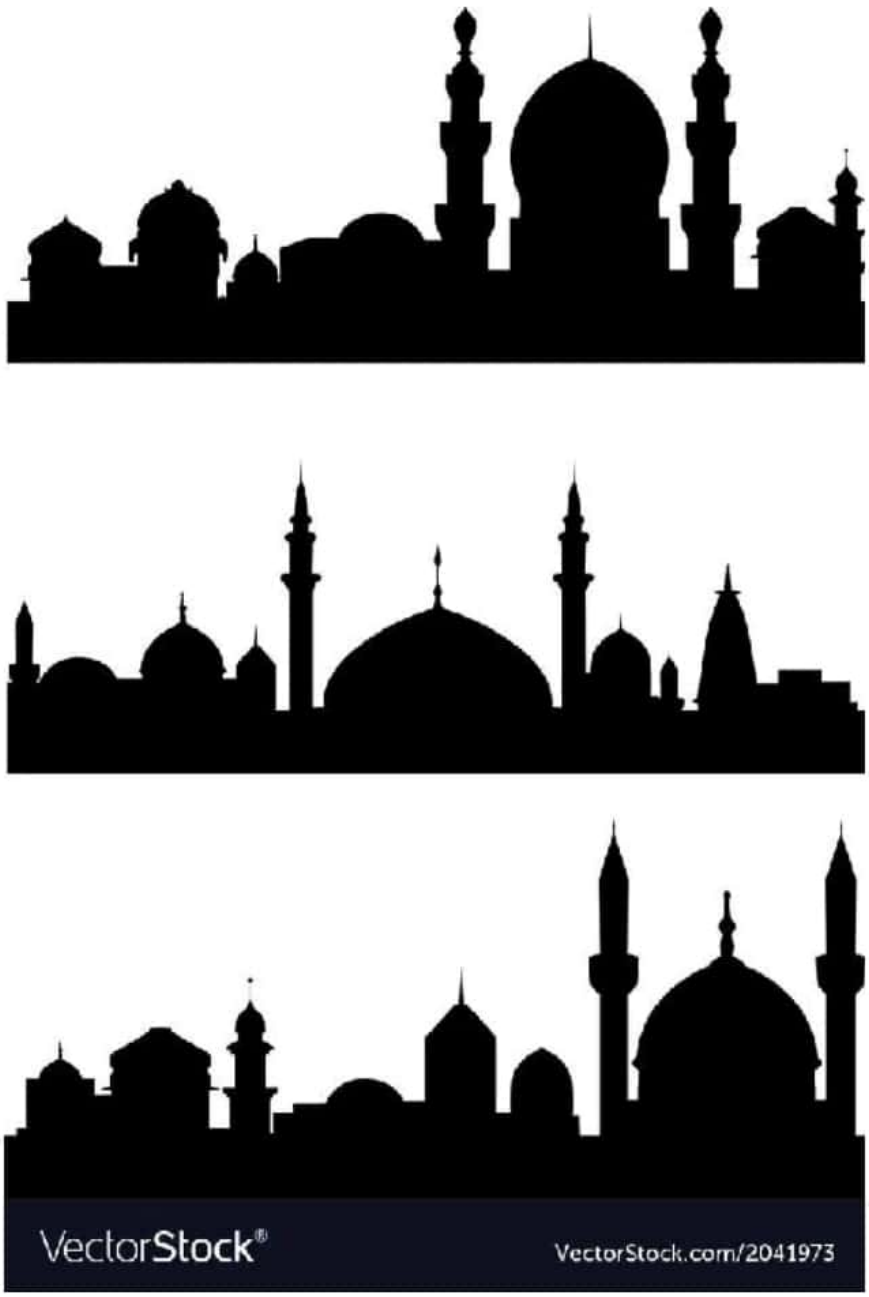

أي عـالم جـديد، قـديم قـدم التـاريخ، سـأنقل إليـه تيتـة "نازلي"، بأمراضها وأوجاعها التي تراكمت على مدار سنوات عمرها، وشدة طباعها ورأسها الصلب، وحقائب ملابسها الضخمة التـي تغلقها على ماضيها، ولا تفتحها سوى مرَّة في العام لتدس فيها كرات النفتالين التي تحميها من العثة، وقطع أثاث بيتها العتيقة الثقيلة، هذا فضلًا عن "چاكيت"، كلبنا المدلل، الذي يتعب حتى من نزوله شارعنا الهادئ لقضاء حاجته.

سـمعت أن المرَّة الوحيـدة التـي اضطرت فيهـا تيتـة "نـازلي" إلـى الذهاب إلى حي "الدرب الأحمر" كانت منذ حوالي أربعين عامًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أن الحي كان مجرد منطقة أثرية، يلتف فيها السائحون في انبهار حول مئذنتي "باب زويلة"، وواجهة جامع "الصالح طلائع"، ويمتعون أبصارهم بالتشكيلات اللونية للأكلمة وزخارف لوحات الخيامية، التي يعكف على إبداعها الصناع المهرة في شغف على أبواب محالهم.

أدرك تمامًا ماذا تعني مقولة إنك لا تنسى الإنسان الذي يأخذك إلى الأماكن الجديدة. هذا يجوز في دنيا الخيال والترحال. أما هنا، فكنت أضع يدي على قلبي خشية صدمة حضارية ستحل بها، حين ترى المكان نفسه الذي احتقرَتْه منذ أربعين عامًا وقد امتلأ الآن بعربات الخضر والفاكهة، والمحال الصغيرة للوازم المقاهي والمصايف والخيام، ومحال الكشري وأفران الخبز المتواضعة، والمقاعد الخشبية والمناضد الصغيرة المتناثرة بعشوائية على الأرصفة، يجلس عليها رجال يدخنون الشيشة، وعربات "التوكتوك"، التي تحفر طرقًا رفيعة وسريعة، مخترقة الكتل البشرية المارة في المدق المؤدي إلى بيت تيتة "زكية"، والمسمى مجازًا بشارع "أبو حريبة". ما يجعلني أتخفف من ذنبها قليلًا هو أنها هي مَن اتخذت هذا القرار في لحظة شفقة على "تُقى"، التي تعيش الآن مرتعبة بمفردها في شقة "الدرب الأحمر"، بدلًا من أن نقضي فترة العزال المؤقتة في شقة مفروشة أو في فندق. إلا أنني ما زلت أتعجب من تلك المروءة التي تلبَّستني، لأخفف عنها، وجعلتني أصف لها شقة "الدرب الأحمر" مثل ساحر يأخذ طفلًا تحت عباءته الكبيرة وينقله في الزمان والمكان، فتسرَّبت بصوتي إلى تلافيف مخها مثلما كُنتُ أفعل مع "تُقى"، لكن ليس لأخيفها، بل لأصور لها شقة الدرب كملاذ آمن. قلت لها إنها تعشق عمارة "جاردن سيتي" لأن جدرانها الخارجية مكسوة بأوراق الأشجار، ولأن العبور إلى باب العمارة يتطلب سيرًا في ممر طويل، لطالما حيَّر الضيوف والأصدقاء، فكان يعطينا إحساسًا أننا بعيدو المنال، حتى عن اللصوص، الذين كنا نتصور أنهم سيضلون طريقهم إلى المدخل. كشاعر يتغنى ببلد المحبوب، وصفت لها الممر المؤدي لمدخل عمارة شارع "أبو حريبة" بـ"الدرب الأحمر"، وأنه يماثل ممر عمارة "جاردن سيتى"، إلا أن ممر الدرب

309 دقيقة متبقية ... «تمار» 12%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يأخـذ الزائـر إلـى عـالم متفـرد بـذاته، ويسـري كشـريان مبطـن بـالأحجار، وينسـاب بـين الباحـة التـي تضـم بـيت تيتـة "زكيـة"، والحي الشعبي بالخارج. إلا أن الباحة تكسوها الحشائش زاهية الخُضـرة، وتضـم عمـارات أثريـة حـول أضـلاعها الأربعـة، فتبـدو كمحميــة ترعـاها أشـجار باسـقة، تميـل علـى البنـايات العتيقـة، فتطرب البلابل والعصافير التي تحط على أغصانها سكان الباحة صباحًا، وتشجيهم أدعية الكروان ليلًا.

مثل مؤرخ خائن لذاكرة الفرح، صورت لها شقة "جاردن سيتي" والحي كله كساحة حرب خطرة، بعد أن تراشقت فيها السفارات المتاخمة لبيتنا كأجسام دخيلة وصارت مواقع مستهدفة للانتقام. كـان يكفيـها قليـل مـن التحامل على ضعف قدميها والنظر من النافذة الخلفية، لتشاهد عربات الشرطة بلونها الأسود، والجنود الشاهرين أسلحتهم لأي تهديد محتمل، والبراميل وكتل الخرسانة والحواجز الحديدية المخططة بألوان العلم، لحماية السفارات. تعجَّبَتْ تيتة "نازلي" حين قلت لها إن أهل البلاد الأجنبية الذين تحميــهم تلـك الترسـانات الحربيـة يعيشـون مُنعَّمـين بالسَّكينـة ومحبـة أولاد البلـد بـين أهـالي "الـدرب الأحمـر". حكـيت لها عـن "أنســتازيا" التــي يطـل بلكـون "تُقـى" علـى بلكونـها فـي البنايـة المقابلة، و"باتريك" الذي استأجر شقة الدور الأرضي ويعيش فيها مع زوجته، واشترى لابنته "كاترين" الشقة التي تعلو شقة تيتة "زكيـة"، وأن الكلمـات المتـردد صـداها فـي هـدوء فضـاء الباحـة حروفها إنجليزية بلكنات بريطانية، وفرنسية، وألمانية.

رضخت تيتة "نازلي" تمامًا للواقع الجديد، خاصة حين أقسمت لها أنني لن أقتل نفسي حتى لا تفقد الراحة والرخاء اللذين كانت تتمتع بهما في حضرة "چيمي جدو"، بعد أن أخذت تنعى حظها وتلعـن الظـروف التـي سـتهبط بـها مـن أعلـى سـماء إلـى أسـفل سـافلين. يبـدو أن تيتـة "نـازلي" كـانت تخشـى هـي الأخـرى أن أستفرد بها وآخذ بثأر السنوات التي استقوت عليَّ فيها، حين كانت تتمتع ببقايا عنفوان. وما كُنتُ لأصبح تلك الحفيدة البارَّة، لولا نبرات "چيمي جدو" المختنقة بدموعه وهو يوصيني بها خيرًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل رحيله بأيام، مشفوعة بحكمة سطعت في رأسه في لحظة صحوة موت، حين عبرت له عن شعوري بأن جفاف تيتة "نازلي" معي يدل على كراهية تحملها تجاهي، فقال إن مَن تظن أنهم يكرهونك، هم في الواقع لا يكرهون إلا أنفسهم، لأنك ببساطة تذكرهم بما كانوا يتمنون أن يصبحوه وفشلوا. أما تيتة "نازلي" نفسها، فقد أصبحت مثيرة للشفقة بعد أن صارت مثل قطعة قماش مستهلكة، نُقعت في الماء والصابون ثم نُشرت تحت أشعَّة شمس حارقة، فانكمشت وبهتت ألوانها.

لم أسمعها أبدًا في الماضي البعيد، حين كانت تحكي لرفيقاتها عن أمر يخص "تُقى"، إنها تفوهت بكلمة "الدرب الأحمر"، وكأن الحي العتيق عار على جبينها، هي ساكنة حي "جاردن سيتي"، وسليلة العائلة الراقية. كُنتُ أسمعها تقول دائمًا:

- "تُقى" عند جدتها التانية في وسط البلد.

"وسط البلد" هذا هو "الدرب الأحمر" نفسه الذي كلما وطئتُ فيه موضعًا، صارت لي حكاية جديدة. يكفي أنني امتطيت أجنحة الملائكة، ومشيت على الماء، وصعدت سلالم السماوات السبع مع حواديت "أم إدريس"، وضحكت ملء القلب وأنا أخترع القصص المرعبة مع "ضيا"، لنخيف "تُقى". وفي بيت الدرب أيضًا كان لقائي الأول مع "ألبرت"، وبداية قصتي الملغزة مع "شادي عبد

الهادي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ثُقى"

السلام عليكم ورحمة الله. السلام عليكم ورحمة الله.

"اللهم إن كُنتُ أعبدك خوفًا من نارك، فاحرقني بنار جهنم، وإن كُنتُ أعبدك طمعًا في جنَّتك فاصرفني منها".

كيف هوَّن العشق الإلهي الخوف من السعير على "رابعة العدوية"، فناجت ربها بهذا الدعاء، الذي أردده بعد صلواتي وأنا أرتجف منه رعبًا؟

يكفيني ما سيحل بي بعد قدوم "تمارا" للعيش معي في الدرب، وأظنها لن تكفَّ عن تخويفي حتى بعد أن تجاوز عمرنا الثلاثين. تعرفان جيدًا هي وتيتة "نازلي" أنني أرتعب من الكلاب وأنفر من لعابها الذي ينجس طهارتي ويفسد وضوئي. ومع ذلك جلبتا معهما الوحش الذي يسمونه "چاكيت"، بدلًا من أن يملأ عليَّ البيت

الحـائط ليـلًا، والصـوت الـذي يـهمس منـاديًا باسـمي بصـوت كالفحيح.

يحكون أنني في طفولتي كُنتُ لا أهاب كبيرًا ولا صغيرًا. قالت جَدَّتي "زكية" والدة أمي إنه كانت لي طباع وحلاوة القطط، من كثرة ما كُنتُ أغوص بكل حواسي مع قطط السلم. كُنتُ أخمش الأطفال في وجوههم، وأجذب البنات من شعورهن، وأجرحهم بأظافري الصغيرة، وحين يستغيثون ويصرخون، تعلو وجهي علامات الارتياح. حتى جَدَّتي "زكية" لم تسلم منِّي حين هددتها بأن أسكب زجاجة الزيت على الأرض وفعلت، فطلَبَتْ من تيتة "نازلي"حزامًا جلديًّا متينًا تربطه على جسدي، وتلف طرفه الآخر حول كفِّها. فأرسلت لها الحزام القديم لكلبهم السابق الذي كانوا يسمونه "ديور". كانت جَدَّتي "زكية" تربطني به، حتى تضمن سيرًا آمنًا للأطفال المارين بجوارنا في الشوارع الضيقة، وحتى لا أنتش السجاجيد والخداديات الملونة المتراصة على أبواب دكاكين الخيامية. كما كانوا يتندَّرون بأنني قد سرقت فرخة مُحمَّرة وأنا في الثالثة من عمري، وأتيت على نصفها تحت السرير، وأنني فضحت أمر خالي "عادل" حين كان يخفي علبة شوكولاتة محشوة بالويسكي أسفل دولابه، فعثرت عليها والتهمت خمس قطع دفعة واحدة، استراحوا بعدها ليوم كامل من قفزي وجريي بأرجاء البيت وركوبي سور البلكونة الخشبي. أوحت لهم تلك الحكاية بأن السوائل تخمدني، وبدلًا من أن يلوموه على جلبه للمنكر إلى البيت، صاروا يلقمونني ملعقة كل صباح من دواء السعال الذي يحملني على النعاس، ويضمن لهم ولي يومًا هادئًا.

لم أتحلَّ أبدًا بهذه الجرأة التي يحكون عنها في حضور "تمارا"، حين كانت تأتي لتبيت لدينا بضع مرَّات في العام، إلا حين كانت تسايرني في لعبة "الجزار". كُنتُ أشعر بسطوة وثقة حين أنتزع أيادي وأرجل العرائس البلاستيكية، ونرصصها مثل اللحوم المعروضة على رخامة عريضة في دكان الجزار، الذي تتقمَّص "تمارا" شخصيته تارة، وأشتري منها اللحم، ثم نتبادل الأدوار على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مـدار النـهار، ثـم نعيـد الأيـادي والأرجـل إلـى أجسـاد العـرائس، ونكسوها ثانية بفساتينها حتى لا تنهرني جَدَّتي "زكية". وحين تعرض عليَّ "تمارا" أن نلعب "محل الملابس"، أكون قد تعبت وبدأ يغلبنـي النعاس، خاصة أنني لم أحرص على أن يمتلئ دولابي بالملابس مثلها، فتغريني بأنها ستحكي لي حدوتة، فأفيق وأنتبه. لكن لم يكن يغمض لي جفن طوال الليلة والليالي التالية، وأنا أنتفض رعبًا تحت اللحاف، بينما أستدعي الصور والأصوات التي كانت تتمعن في إضافتها للحدوتة، حين تمط الحروف وتخفض صـوتها، أو وهـي تمثـل لـي شكل أبطـال الحكايـة، فتقـف فـوق السرير، وتغطي نفسها بملاءة تملؤني رعبًا، وتقول ببُطءٍ رخيم:

- أنا "زوبيبيلة".

على الرغم أنني كُنتُ أدرك أنها هي "تمارا". وحين أبيت لديهم في شــقة "جـاردن سـيتي"، تـرغمني علـى مشـاركتها لعبـة "محـل الملابـس"، فتخـرج مـن دولابـها سُتـرات مـن الجلـد والصـوف وقمصـانًا مـن القطـن، تصـفها وهـي تغير نبراتـها كـامرأة كبـيرة صاحبة محل تروج بضاعتها، فتقول كلمات بلغات غريبة، تضفي غموضًا ونفورًا من جانبي تجاه الملبوسات، خاصة التي كانت تقـول إن خـالي "عـادل" قد أرسلها لها من ألمانيا، إلا أنني كُنتُ أتحمَّل على أمل الحدوتة التي تعدني بها إن رضختُ للعبة الأزياء هذه.

كنت أمضي هذه الساعات في رؤى تدور في رأسي، فأربط كل كلمـة تقولـها بشـيء يشـابهه فـي حـدوتة النبـي "إدريـس" التـي سمعناها مرارًا من سِتِّي "أم إدريس". فقد حكت لنا أنه كان يعمل في الحياكة، وكان أول مَن خاط الثياب من نبات يسمى الكتان، الذي لا أدري كيف يكون نباتًا وخيطًا في الوقت نفسه. ثم أتخيل الأشكال الخرافية للناس قبل ظهور النبي "إدريس"، وهم يرتدون ثيــابًا مصــنوعة مــن جلـود حيوانـات يقتلونـها ويسـلخونها ثـم يتسترون بها وينعمون بدفئها.

تقول "تمارا" هذه "ستيتش" أي غرزة، فأكاد أسمع صدى صوته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما يحكون عنه، أنه كان يذكر اسم الله ويسبحه وهو يدخل الإبرة ويخرجها مع كل غرزة. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. تصيح "تمارا":

-أنتِ نمتِ ولا إيه؟ أحكيلك حدوتة؟

فأنسى حدوتة "إدريس" النبي، وأنتبه في اشتياق لحكاية جديدة أحلم بها في نومي ويقظتي، لكنها تُنهي الليلة بالطريقة نفسها، وهي تضحك من انكماشي رعبًا، بعد أن تقصَّ عليَّ حدوتة "أبو حريبة" التي حكاها لها جارنا "ضيا" عن جده، أو تأتي بتنويعات جديدة في حكاية "زويلة" المخيفة، وتُردد كلمات عجيبة عن أناس من التاريخ كانوا يعيشون ويتجولون في الشوارع والأزقة التي أعيش فيها مع تيتة "زكية"، إلا أن مجرد ذكر أسمائهم كان يُلقي الرعب في نفسي. كلمات كانت تقذفها في وجهي وتتفرج على وقعها عليَّ في إثارة وتلذذ. يكفي أن تقول أسماء من الماضي السحيق مثل "خشقدم"، أو "بلباي المجنون"، أو "قجماس الإسحاقي"، حتى أغلق عينيَّ بشدَّة وأسحب الغطاء حتى أعلى رأسي، وأتمتم طوال الليل بدعوات تتعجَّل طلوع النهار. وما إن أعود إلى بيت تيتة"زكية" بـ"الدرب الأحمر"، حتى أسرع الخُطى كعادتي حين أمر بجوار مقام من مقامات الأولياء الذين يرقدون في توابيت خضراء في شارعنا الضيق، أو عند باب زويلة. كُنتُ أشعر أنني أعبر فوق جثث المغول التي أمر السلطان "قطز" بقطع رؤوسها وتعليقها أعلى الباب الحجري الكبير، وأتخيل الساقين والذراعين المتأرجين والرأس المُدلَّى على صدر السلطان "طومان"، بعد أن شنقه السلطان العثماني بالمكان نفسه. وحين كانت تيتة "زكية" ترسلني لشراء مستلزمات من السوق، وأضطر للمرور بجانب البوابة التي لها بابان، كُنتُ أحسب خطواتي وأقف طويلًا لأتساءل من أي البابين خرجتُ، البوَّابة المُؤدِّية إلى الجامع التي مَن يمر منها يصبح مُباركًا، أم البوَّابة التي تفضي إلى محلات صنع وبيع الدفوف، ولا يفلح مَن يعبرها وينشغل بالفسق والمجون.

فليغفر الله لـ"ميس عايدة" مُدرِّسة التاريخ بالصف الثاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإعدادي، التي كلفتنا بواجب مدرسي بأن تأتي كل طالبة بتاريخ شارعها أو الحي الذي تعيش فيه، ولماذا أطلق عليه اسمه، فكأن مسًّا من سحر قد أصاب "تمارا"، حين فُتحت في رأسها تلك الطاقة المسماة بـ"جمال الدين أبو المحاسن"، الشارع الذي تسكنه في "جاردن سيتي"، وهو نفسه "ابن تغري بردي"، المؤرخ المولع بتاريخ المماليك، الذين أسكن أنا في عقر ديارهم، وشغفت "تمارا" بحكاياتهم، لا لشيء إلا لتسردها عليَّ وتتسلَّى، ولتكون سببًا في أن أعود إلى البيت قبل حلول الليل، حتى لا تصادفني أشباح قتلاهم، أو أن ألاقي "المتولي" صاحب الكرامات التي ترفرف روحه بين الجدران؛ لأنه كان وليًّا صوفيًّا، يحج في مكة ويعود بآخر الليل لحراسة البوابة ولقضاء حاجات الناس الذين يضعون الأسنان التي انخلعت بين الألواح الخشبية التي تكسو الباب، ويلقون بالقطع النقدية والأحجبة خلف هذه الدرفة، ويربطون الخيوط وأشرطة من القماش في المسامير، فيعرفهم من آثارهم ويقضي لهم حاجتهم، أو يستوقفهم ويرغمهم على دفع الإتاوات.

هل مَسَّتْني أنا أيضًا روح جن كافر من كثرة ما خطيت فوق آثار القتلى، وجعلتني أزهق روح تيتة "زكية" بمساعدة "تمارا"، أم أن الملائكة هم الذين قبضوا روحها بعد أن تكسَّرت عظامها، مثلما تقول الآية:

﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؟

"تمارا"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

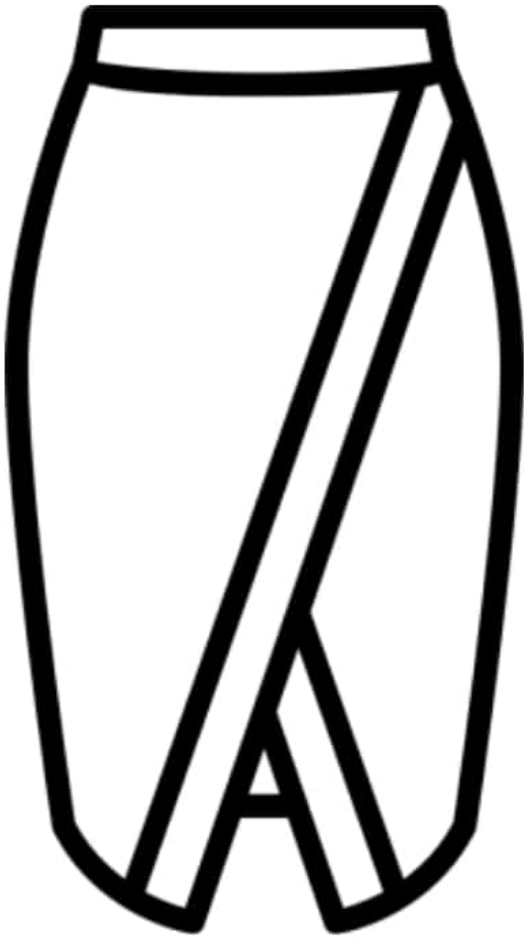

يسمى هذا الموديل في دنيا الأزياء "جيب أونفيلوب"، أو تنُّورة المظروف. أما المظروف الحقيقي المصنوع من الورق، فقد يحمل مرسالًا ينطوي على أخبار أو أشواق أو أسرار، تمامًا مثل موديل "الأونفيلوب"، الذي أحببته دون غيره من موديلات التنورات. فتلك التنُّورة تمنحني وقارًا وأناقة، حين أفصلها بقماش الكاروه الصوفي الداكن بدرجات الرمادي، أو مربعات الأحمر والأسود الأسكتلندي وأشبك طياتها بدبوس ذهبي كبير. وتزيدني حيوية وبهاءً حين تكون من قماش قطني خفيف، منقوش بورود ورسومات نخيل، وألفها حول وسطي وأربط طرفيها بعُقدة من المنتصف، لتضيف حلاوة إلى مشهد الشاطئ الصيفي البهيج. لكنها في الوقت نفسه تزيد الجسد إغواء، بحسب رواية خالو "عادل"، الذي سمعته يقول يومًا إن نصف الساق العارية التي تفلت من فتحة جلباب فتاة ريفية تفوق عُري المايوهات البكيني إغراءً. حتى "چيمي جدو"، كان يمنح الـ"جيب أونفيلوب" قدسية ما، حين يلف بشكيرًا كبيرًا حول وسطه إن حل موعد الصلاة وهو يرتدي "شورت" فوق الرُكبة.

15%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا شيء يضاهي التنُّورة المُلتفَّة على شكل مظروف، مثل انتقالنا أنا وتيتة "نازلي" إلى حي "الدرب الأحمر". مزيج معقد من المحافظة والفتنة. قطعة مستطيلة من القماش تُترك على حالها من الخلف، مثل ماضٍ مقدس، يجب علينا عدم الالتفات إليه، لنهتم بطيات الأمام التي تلف على الجسد تاركة إيحاء بوجود فتحة على الجنب، أو أمل وبصيص نور في المستقبل القريب.

كان الفرح الشعبي الذي احتشدت مظاهرَهُ من أول شارع "أبو حريبة" حتى آخره لحظة دخولنا أنا وتيتة "نازلي"، كثوب القماش البافتة الأبيض الذي يلف الطفل الوليد، ويحميه من ظروف الطقس المزعجة. استعادت تيتة "نازلي" شغفها القديم بالأفراح، وزغللت عينيها الملاءات المطرزة والبطاطين الملونة بجهاز العروسة، والمنشورة على أحبال بطول وعرض الشارع الضيق ليتفاخر بها أهل العروسين، تفصل بين كل بطانية وأخرى دبة وردية وقلوب كبيرة من القطيفة الحمراء، دليل الحب والغرام. كُنتُ أشرح لها كل تفصيلة مثل مرشد سياحي يفسر لغرباء عادات وتقاليد بلد عجيب يزورونه للمرَّة الأولى. ثم ارتفع صوت أغنيات الأفراح من سماعات الـ"دي جي"، التي سدَّت جزءًا كبيرًا من الشارع والتف حولها بنات وشباب المنطقة، وهم يأتون بحركات عنيفة يفترض أنها رقصات شعبية، وقد لطخت البنات وجوههن بألوان صارخة وارتدين فساتين لامعة وسراويل ضيقة تبرز مؤخراتهن التي ترتعش مع إيقاع الطبلة وتصفيق أمهاتهن وأهالي المنطقة. ومع وصولنا نحن والحقائب وما استبقيناه من أثاث المنزل، إلى الممر المفضي إلى الباحة الهادئة التي تضم بيت تيتة "زكية" القديم، تأكَّدت تيتة "نازلي" أنني ما كُنتُ أخدعها حين قلت لها إن تلك الباحة بأشجارها وزقزقات عصافيرها، وهديل حمام غيَّاتها، هي ملاذ آمن من صخب وفوضى العالم.

مثل ملكة تعتلي كرسي العرش، جلست "وديدة" الخيَّاطة في قلب الباحة، ترتدي جلابية قطيفة وطرحة باللون الأحمر، وتمسك في رفعة بخرطوم طويل تسقي به الحشائش المتناثرة وهي جالسة في مكانها المقدس، فوق كنبة الصالون المتربة، ذات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرجـل الثـلاث، والمبقـورة أحشـاؤها، والمزركشـة بفضـلات العصافير والطيور التي تسقط عليها من فوق شجرة التوت التي تظلل المكان. تضع أمامها منضدة خشبية تقشَّر طلاؤها، عليها صـينية مـن الألومونـيوم تحتـوي أكـوابًا وإبـريق شـاي وسـكرًا و"سبرتاية" صغيرة تنبعث منه رائحة نعناع أخضر، وتصنع جوًّا من الحيوية يليق بالزقزقة وهفيف أوراق الشجر.

تهللت "وديدة" وانتفضت لكي تحتضن تيتة "نازلي"، وتدعوها إلى كوب شاي معد توًّا على الإبريق الذي يغلي فوق "السبرتاية"، لكننا كنا كالمنومتين مغناطيسيًّا، يسحبنا التعب وترقب المجهول، بجاذبيـة علويـة نحـو السُّلَّم الحجري العتيق، وسوره الحديدي المفضي إلى باب شقة تيتة "زكية"، والتي تسكنها حاليًا "تُقى" بالـدور الثـاني، وكنـت أنا وتيتـة "نازلي" بمثابـة "الأونفيلوب"، أو المظـروف الـذي سيطوى حـول وحـدتها ومخاوفـها مـن كـل مـا حولها، حتى في هذا المحيط الآمن.

غـالبًا مـا تكـون هنـاك أزرار أو مشـابك لتـأمين الفتحـة الجانبيـة للتنُّورة "الأونفيلوب". وهذا الأمان هو ما كُنتُ أفتِّش عنه بدأب وحماقـة، فـي كـل مـا تقع عليـه يـدي من أوراق، وبقايا الأقمشة المهترئة بحقـائب تيتـة "نازلي"، والبريـد الإلكتـروني الـذي يـأتي بمراسيل من مجهولين، مخابيل أو أفاقين يسعون إلى الانقضاض على حياتك أو مدخراتك. كُنتُ أتشبَّث بأي كلمة أو جملة تقال، علها تُنقذ تلك التنُّورة المُخادعة من الانفكاك والسقوط، وتركنا نحاول مُداراة عوراتنا.

أولـى تلـك الحمـاقات هـو أننـي اضطررت أن أخلـع عـن كلبـي "چاكيت" سترته التي جلبتها له من لندن؛ لكي يتساوى ومجموعة الكلاب في المأوى وساحة انتظار السيارات التي يديرها "مأمون" ابن "وديدة" على رأس الشارع. شعرت بإحساس أم حملت من سِفاح، وتركت وليدها بجوار مسجد أو ملجأ، حتى تُجنبه تبعات فعلتها، وما سيلحق به من فضيحة. فتاريخ "تُقى" يشهد بأنها قادرة على جلب العار للكلاب ومَن يحنو عليهم. وخزات الضمير كانت مثل إبرة مكوكية، تحدث جلبة فى ماكينة حياكة بدائية، إلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنني كُنتُ أخفض من صوتها بإيجاد المبررات. فبالإضافة إلى أن فضيلة إبعاد "چاكيت" عن محيط "تُقى"، إيثارًا لسلامته وسلامتها، كُنتُ قد تأكَّدت من أن "مأمون" ابن "وديدة" سيكون بمثابة عم أو خال لـ"چاكيت"، فالبرج الخشبي الصغير الذي يضم أنواعًا شتى من الحمام واليمام ببلكونه المقابل لبلكون تيتة "زكية"، وتطرب الساحة الهادئة هديلًا ورفرفة، يشهد بأن "مأمون" يحمل نصيبًا كريمًا من اسمه.

كان النوم يهرب من عيني ليلًا، فأقطع الحارات الهادئة والفارغة إلا من الحوانيت المغلقة، والأضرحة الصغيرة، لأتسلل إلى ساحة انتظار السيارات بحجة أنني نسيت شيئًا في سيارتي. وما إن يشم "چاكيت" رائحتي على بُعد أمتار، حتى يبدأ وحده في النباح، ثم ينضم إليه باقي الفريق حين أدخل إلى الساحة.

جاءنا "چاكيت" كرضيع لقيط فعلًا، حين أودعه صاحب المحل المجاور لأتيليه "چيمي جدو" أمانة لديه حتى يعود من سفره، فدخل علينا به وهو ابن أربعين يومًا، ملفوفًا في شال ومصابًا بنزلة برد حادة. كان آخر عهدنا بالكلاب منذ عشرات الأعوام، حين أعلنت تيتة "نازلي" أنها لن تقدر على مراعاة الحيوانات المنزلية بعد وفاة الكلب "ديور" الذي رحل وأنا ما زلت في الثانية من عمري. كُنتُ أقشعر من حجم "چاكيت" الصغير، وهو لا يقوى على الوقوف وتنثني ساقه الصغيرة ويقع كلما خطا خطوتين. أحسسته فأرًا مثيرًا للاشمئزاز، وحين بدأ يكبر وصار في حجم خدادية كبيرة، وجدتني أحضنه وأحمله وأسير به في الشقة وفي الطريق، حتى إنه اعتاد على التدليل والنظر في عيني أثناء سيرنا وهو يكاد ينطق بأن احمليني يا حبيبتي. صار "چاكيت" مثل شال من الفراء الغني، أتلفح به فيمنحني أمانًا ودفئًا. لم أشأ أن أصرح بأنه طيب وساذج ويهاجم أي شخص جديد ويلحس وجهه ويديه من فرط المحبة والود الزائدين، وأن صياحه ليس إلا اللغة

حراس للعقارات، يظنون أنه كلب شرس يهاجم كل مَن يصادفه،

أنني كُنتُ أخفض من صوتها بإيجاد المبررات. فبالإضافة إلى أن فضيلة إبعاد "چاكيت" عن محيط "تُقى"، إيثارًا لسلامته وسلامتها، كُنتُ قد تأكَّدت من أن "مأمون" ابن "وديدة" سيكون بمثابة عم أو خال لـ"چاكيت"، فالبرج الخشبي الصغير الذي يضم أنواعًا شتى من الحمام واليمام ببلكونه المقابل لبلكون تيتة "زكية"، وتطرب الساحة الهادئة هديلًا ورفرفة، يشهد بأن "مأمون" يحمل نصيبًا كريمًا من اسمه.

كان النوم يهرب من عيني ليلًا، فأقطع الحارات الهادئة والفارغة إلا من الحوانيت المغلقة، والأضرحة الصغيرة، لأتسلل إلى ساحة انتظار السيارات بحجة أنني نسيت شيئًا في سيارتي. وما إن يشم "چاكيت" رائحتي على بُعد أمتار، حتى يبدأ وحده في النباح، ثم ينضم إليه باقي الفريق حين أدخل إلى الساحة.

جاءنا "چاكيت" كرضيع لقيط فعلًا، حين أودعه صاحب المحل المجاور لأتيليه "چيمي جدو" أمانة لديه حتى يعود من سفره، فدخل علينا به وهو ابن أربعين يومًا، ملفوفًا في شال ومصابًا بنزلة برد حادة. كان آخر عهدنا بالكلاب منذ عشرات الأعوام، حين أعلنت تيتة "نازلي" أنها لن تقدر على مراعاة الحيوانات المنزلية بعد وفاة الكلب "ديور" الذي رحل وأنا ما زلت في الثانية من عمري. كُنتُ أقشعر من حجم "چاكيت" الصغير، وهو لا يقوى على الوقوف وتنثني ساقه الصغيرة ويقع كلما خطا خطوتين. أحسسته فأرًا مثيرًا للاشمئزاز، وحين بدأ يكبر وصار في حجم خدادية كبيرة، وجدتني أحضنه وأحمله وأسير به في الشقة وفي الطريق، حتى إنه اعتاد على التدليل والنظر في عيني أثناء سيرنا وهو يكاد ينطق بأن احمليني يا حبيبتي. صار "چاكيت" مثل شال من الفراء الغني، أتلفح به فيمنحني أمانًا ودفئًا. لم أشأ أن أصرح بأنه طيب وساذج ويهاجم أي شخص جديد ويلحس وجهه ويديه من فرط المحبة والود الزائدين، وأن صياحه ليس إلا اللغة التي يعرفها ويقول بها أهلًا بك أنا أحبك احضنيني. تركت الدخلاء الذين كانوا يفدون على حي "جاردن سيتي"، كباعة أو حراس للعقارات، يظنون أنه كلب شرس يهاجم كل مَن يصادفه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ووضعت لافتة على باب الشقة مكتوبًا عليها "احترس من الكلب"، فصار رجُلي وملاكي الحارس، حين لم يعد هناك مَن يمنحني إحساسًا بالحماية، بعد أن نال الوهن والشيخوخة من أجساد تيتة "نازلي" و"چيمي جدو".

تطبَّع "چاكيت" بالشغف بالملابس والأقمشة مثلي ومثل أهل البيت. كنا حين لا نسمع له صوتًا نعرف أنه قد دسَّ فكَّه في سلة الغسيل وسرق قطعة ملابس. كان يلتهم جوارب "چيمي جدو"، ويجرجر قمصان نوم تيتة "نازلي"، فتلتف حول جسمه ورأسه وهو يتقلب على الأرض، ليتخلص من اشتباكها بقدميه، فيصير شبيهًا بتيتة وهي ترتدي إسدال الصلاة. أما أكثر المواقف إحراجًا عندما يخرج إلى الضيوف وفي فمه قطعة ملابس داخلية تخصني، أو تخص تيتة "نازلي"، وهو يهز ذيله نشوة وفرحًا.

أبقيت حقائبي مغلقة على ما بها من رصيدي الهائل من الملابس، واكتفيت ببنطلون جينز وبضعة قمصان واسعة تساعدني على الحركة بين شقة "تُقى" بالدور الثاني، والغرفة التي استأجرناها من "وديدة" بالدور الأرضي لتخزين أشيائنا، والمرور ثلاث مرَّات كل يوم على ساحة انتظار السيارات لزيارة "چاكيت"، ولآخذ عربتي في بضعة مشاوير تخصُّ عملي الجديد في مصنع الملابس الجاهزة. لم يكن تمسكي بال"جينز" في تلك الفترة لهذه الأسباب الظاهرية فقط، بل لأنني أردت تكفيرًا عن ذنب تجريد "چاكيت" من الملبوسات الأنيقة، التي كانت تميزه، وكما ساويته بكلاب الجراج، ساويت نفسي بأي امرأة أو رجل أو عامل يرتدي الجينز ليس لأنه اللباس العملي، بل لأنه قد يكون الزي الوحيد الذي يمتلكه، ويستر قلة حيلة عزيز قوم ذل.

لا يفهم "چاكيت" سوى التربيت ونبرات الصوت الحانية وأسماء الملبوسات والأطعمة والكلمات التي كنا نتداولها لنحدثه، أنا وجدو وتيتة "نازلي". ليته يستوعب أنني ما كُنتُ لأتركه بلا سترة، إلا لأستر سيرته التي لطختها "تُقى" منذ تسعة أعوام، وتنتابها الهواجس بأنه سيعود لينتقم بغرس أنيابه في لحمها، فتتملكها حالة هياج كلما مرَّ من أمامها حتى أى كلب يشبهه. ليتك

291 دقيقة متبقية من هذا... 16%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا "چاكيت" تميل رأسك يمينًا ويسارًا لتؤكد لي إنك تفهم ما أقوله، لو حكيت لك عن ماضيك حين كُنتُ طفلًا، وأحضرتك معي ذات زيارة في "الدرب الأحمر". لم تكن كذكور الكلاب، الذين يمشون في أدبار الإناث يتشمَّمونها لينقضُّوا عليهن. حاولنا عرض جميلات كلبات الأصدقاء عليك، اللاتي وقعن في غرام رائحتك، وارتمين على ظهورهن على الفور لإغوائك. لكنك كُنتَ عاشقًا للقطط والأقمشة، تداعبها بأنفك وتتقرب إليها. كانت القطط تخمشك وتموء في وجهك، أما الأقمشة فكانت لينة حانية، تترك لك نفسها، تحملها في فمك لتسلم بها على الزائرين، حتى صارت صولجانًا يميزك، كمنديل أم كلثوم. صنعنا لك مخدة صغيرة من قماشتك المفضلة، التي أتى بها "چيمي جدو" من بواقي الأقمشة بالأتيليه. كنا نأخذ هذه المخدة معنا أينما ذهبنا، فحملناها معنا في تلك الزيارة التي أصررت أن آخذك معي فيها إلى "الدرب"، لكي نسلم على "تُقى" حين جاءت في إجازة قصيرة من ألمانيا. انجذبت قطة السُّلَّم لمخدتك وأخذت تتمسَّح فيها، فصارت الوسادة مزيجًا شهيًّا من روائح "چيمي جدو"، وذكرياتك بشقة "جاردن سيتي"، إضافة إلى رائحة القطة التي أحببتها من طرف واحد بعد خبراتك السيئة مع قطط الجيران. كان لعمارة تيتة "زكية" بوَّاب أسمر، قيل إنه يتحلى هو وأسرته بالأدب الجم وعزة النفس لأنه هارب من ثأر. وكان له ابن صغير يسمى "عبد الرحيم"، وينادونه بـ"ديدو". كُنتُ تميل رأسك كلما قلنا "ديدو"، كدليل على أنك تعرفه لأنه داعبك مرَّة واحدة بلطف، فاحتفظت بجميله في ذاكرتك الطيبة، التي تغربل الأسى وتبقي على الحنو. تركتُكَ أنت ووسادتك تلعب في ساحة البيت مع "ديدو"، حتى غلبه النُّعاس واستلقى على وسادتك في بئر السلم. كُنتُ في الثالثة من عمرك، وهذا معناه أنك كُنتُ في الواحد والعشرين بمعيار البشر. داهمتك فورة عشق لمزيج روائح المحبة التي التقطها قميص "ديدو" من الوسادة التي شاركك النوم عليها. احتويته بقوائمك الأربعة، حتى صرتما كتلة واحدة كعاشقين. في تلك اللحظة، شاهدتكما "تُقى" في بئر السلم، فأخذت تصيح وتكيل لكما اللعنات، حتى اجتمع الجيران حولكما، فاستيقظ "ديدو" مفزوعًا، وجريت أنت نحوي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كطفل يستغيث بأمه. كانت تلك الواقعة حادثة فارقة في تاريخ العمارة. فلم يكن "أبو ديدو" بالبواب التقليدي لعمارة بعينها، بل كان مستأجرًا للغرفة التي نضع فيها كل ما نملك الآن، وكان يسدد إيجارها عينًا ساهرة على أمان العمارات الأربع المطلة على الباحة الصغيرة، وأطباق الويكة والكشك الصعيدي، والبصارة والعدس الذي كانت تطهوه "أم ديدو" للسكان. رحلت الأسرة الصغيرة تجر أذيال خزي لحق بهم بعدما لقب بعض الشباب الأشقياء "ديدو" بـ"ديدو الكلب"، وصاروا يتداولون حكايته كفضيحة مضحكة. يقال إن الثأر المشؤوم الذي يطارد عائلة "ديدو" كان بسبب أن جده قد جرَّس جارًا له لأنه ضبطه في وضع مخل مع امرأة، فقتله الرجل، ودار الثأر على أفراد العائلة. العجيب أن والد "ديدو" وأمه كانا يعطيان عذرًا للقاتل الذي أجهز على جدهما الكبير، وكانا يقولان بلكنتهما الصعيدية: "الفضيحة عار، وربنا اسمه الستَّار".

وبقدر ما كرها "تُقى"، بقدر ما اغتاظ منهما سكان الأدوار الأرضية الذين اضطروا لتركيب حديد على الشبابيك، وافتقدت النسوة "أم ديدو" وحكاياتها وأطباق الكشك الصعيدي والعيش الشمسي ورائحة الويكة التي كانت تفوح في الباحة. كما صارت "تُقى" تركز في دعاء واحد ترددده بعد صلواتها التي تستغرق فيها وقتًا طويلًا، وكأنها تكفِّر به عن فعلتها التي بدا واضحًا أنها كانت ضربًا من حماقة ندمت عليها:

"اللهم استرنا بسترك الجميل الذي سترت به نفسك، فلا عين تراك، ولا تفضحنا بين خلقك، وأتم سترك علينا في الدنيا والآخرة".

هل تعرف قطعة القماش المطوية على شكل مظروف وتسمى "جيب أونفيلوب" يا "چاكيت"؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"تُقى"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد التحيات لله، والصلوات والطيبات، أرفع لرب الفلق دعوة أن يكفيني شر ما خلق. أرددها صباح مساء منذ أن عبث "مأمون" ابن "وديدة" بعقل "تمارا"، وجلب معه شيخًا يقول إنه من الأردن، ليفحص ماكينات الخيَّاطة الـ"سينجر" المهجورة لدينا في الغرفة الخلفية. سمعت الرجل الغريب يهمس لهما حين زارنا منذ أسبوع بأن ماكينات الخياطة ماركة "سينجر" التي صنعت منذ عام 1879، حتى 1900 مصنوعة يدويًّا، وقد بثَّ الصانع بداخل الماكينات التي تحمل أرقام 28 و22 و31 مادة الزئبق الأحمر.

سمع "مأمون" في مرويات قديمة أن تحت بيتنا الأثري الذي تمتلكه أمه "وديدة" كنزًا مدفونًا من أيام المماليك، وقد يكون محميًّا بواسطة الجن، وأنه يلزمه زئبق أحمر لفك الرصد والجان. كما قال له صديقه الأردني إن كثيرًا من الناس في بلده كانوا يقدمون استقالاتهم من أعمالهم المحترمة للتفرغ للبحث عن الماكينة، وكانت النساء تُلفِّقن أعذارًا لزيارة المنازل للبحث عنها. سلام قولًا من رب رحيم. الماكينة ذات القدم الحديدية الثقيلة التي كنا نجلس فوقها أنا و"تمارا" في طفولتنا لنتأرجح عليها تحمل الرقم 22. سينهدم البيت الذي يُؤوينا فوق رؤوسنا جميعًا إن عبث هؤلاء المخابيل بأساس العمارة. لا أريد أن "تنام عَليا حيطة"، مثلما رقد الجدار فوق سِتِّي "أم إدريس"، فتعلَّقَتْ بين عالمي الأرواح والأجساد لعمر بأكمله. ستكون تلك هي الميتة الثالثة بالنسبة لي، والسبب "تمارا" أيضًا، والثالثة ثابتة.

حدَّثتني "أم إدريس" أن الرقم 22 قد لاح لها في رؤية، فتتبَّعت آثاره، وعلمتْ أن ظهور الرقم 22 في المنام يدل على زيادة في القوة، والنصر على الأعداء، كما أنه يبشر الحامل على أن المولودة أنثى، أو أنها ستلد التوائم. شهدَتْ تلك الرؤية يوم أن ولدنا أنا و"تمارا"، في ليلة الإسراء والمعراج. وتقول "أم إدريس" إنه في تلك الليلة عرجت روحها وعلت في السماوات العلا، ففاض الله على قلبها بسبعين ألف علم من العلوم المقدسة الربانية.

كانت تيتة "زكية" والدة أمي قد ذهبت للمبيت عند سِتِّي "أم إدريس"، ابنة خالتها، في بيتها القديم في حي "شبرا". وبينما كانتا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغُطَّان في نوم عميق، مال الحائط واستقر فوقهما تمامًا. قالت لي "أم إدريس":

- عرفت يعني إيه كلمة "نامت عليكي حيطة". يعني تشوف الدنيا سواد، وتشوف تاريخ حياتك كله قدامك. وبعدين تشوف روحك سايباك وطايرة في مكان بعيد مالوش ملامح، زي ما يكون ضباب. وبعدين ترجع تشوف نفسك تاني تحت الأنقاض، وأصوات كتير وصراخ ودم مغطيك. وجدتك "زكية" اللي كانت نايمة جنبي بتقوم تقف تنفض التراب اللي عليها، وفيه خدوش بسيطة على دراعها، وواعية لنفسها. وأنا لسَّة مرمية على الأرض. لكن كان فيه صوت واضح. لأ واضح قوي، بيقوللي قومي.. ياللا قومي، وكأني طفلة صغيرة بيأمرها أبوها تقوم. كان صوت أبويا الشيخ مصطفى - الله يرحمه - في اللحظة دي، الناس كانت بتقول لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وستك "زكية" بتلطم وتقول مكانش يومك يا صابرة. بس أنا قُمت، وكنت شايفة نفسي ساعتها كأني باصَّة في المراية. وأنا باقوم كان شكلي عامل زي المجانين اللي بيخوفوا بيهم العيال. هدومي مِتقطِّعة، وخدوش في كتفي، والدم مغرقني، وشعري هايش في كل ناحية، والأسمنت والعُفار خلى لونه أبيض، فكأني ست عجوزة مجنونة. بس أنا كُنتُ لسَّة في عز شبابي، يعني كان عندي ييجي تسعة وتلاتين سنة. ومن ساعتها بقيت بشوف الخطر. لأ باسمعه. الصوت بيجيلي يقوللي ساعة وقوع البلا. يقول لي ده خير ولا شر. هعيش ولا هموت. الصوت قاللي مكانك مبقاش هنا. مكانك هناك مع الناس اللي فاكرينهم ماتوا، وهما مش ميِّتين. هما بيسمعوا كل دبة رجل بتمشي جنبهم أو فوقهم، وبيستنوا كل كلمة سلام تتقال لهم، وكل فطيرة رحمة تدخل في بؤ أي جعان، فيقول الله يرحمهم أو يقرالهم سورة يس من القرآن. وهبت نفسي ليهم. الناس قالت "أم إدريس" جالها لُطف من ساعة حيطة بيتها ما وقعت وموتت ابنها "إدريس". أيوَه أنا جالي لُطف. بقيت ألطف بعباد الله اللي عايشين تحت التراب، والناس فاكرينهم ميتين. أبويا اللي كلمني، وأمي، و"إدريس"، وراجلي اللي حبيته. الكُل قالوا إن الحيطة ماكنتش تقيلة، وكانت دايبة أصلًا، بدليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنها وقعت على "زكية" اللي كانت نايمة جنبي، وماجرلهاش حاجة. إنما أنا متُ مع "إدريس" ابني وصحيت تاني لغاية وسبب. ستك "زكية" كانت جايالي يومها عشان تعرف أنا فضلت عاشقة جوزها في السر ولا لأ. الصوت قاللي كده. بس ولا أنا قلتلها ولا جدك كان قايلها قبل ما يموت. اللي ينام على سر يصحى مسرور، واللي ينام على شر يصحى مشرور. وأنا نمت على السر، عشان كده أما الحيطة نامت عليا، عليت فوق في السما، وشُفت وسمعت العجب".

من العجائب التي كانت تدهشني في طفولتي، هي أن أذهب مع تيتة "زكية" لزيارة "أم إدريس" في حوش القرافة، ليس كجثمان مدفون تحت الأرض، مع باقي موتى العائلة، بل كساكنة للغرفة المقابلة للحوش. عاشت "أم إدريس" أربعين يومًا في بيتها بعد سقوط الحائط، لكنها كانت دائمة التردد على القرافة، لتزور "إدريس" الذي مات وهو في العاشرة من عمره، ولتبكي كثيرًا عند قبر جَدِّي، الذي لم أره أبدًا. جَدِّي والد أمي وزوج تيتة "زكية". قالت لي سِتِّي "أم إدريس" إنها عكفت على الصلاة والعبادة لأربعين يومًا. كان والدها الشيخ يقول إن العبد إن أخلص الإيمان بالله وداوم على الذكر أربعين يومًا، أزهده الله في الدنيا، وبصَّرَه داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، فآثار الإخلاص لله تتفجر لدى المؤمن إذا استمر عليها أربعين يومًا.

ذهبت "أم إدريس" إلى المدافن يوم أربعين ابنها "إدريس"، فوجدت الشجرة الصغيرة التي تتوسَّط الحوش تنمو وتكبر يومًا بعد يوم. كانت لا تقنع بالزيارة إلا عندما تُملِّس على التربة الرطبة التي تضم ابنها "إدريس" ووالدها الشيخ "مصطفى"، وجدي زوج تيتة "زكية"، وتُحني كفيها بالتراب الذي تحته يرقدون. وفي كل مرَّة تزورهم يتصادف أن تكون الشمس ملتهبة والجو خانق ولزج خارج القرافة. وبمُجرَّد دخولها إلى الحوش، يداعب وجهها نسيم خفيف، ويتجمع اليمام والعصافير فوق السور وغصن الشجرة، وتمتزج زقزقاتها بآيات الذكر والدعوات وأصوات الآذان الصاعدة من المآذن الكثيرة البعيدة. كان يوم الأربعين هذا قاسيًا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلبها، وكان الجو شديد الحرارة. فحدثت نفسها قائلة: "والله الواحد يجيب مخدَّة وينام هنا". وضعت كفَّها تحت رأسها وراحت في نوم عميق فوق التراب الذي يحنو على أحبابها. لم يجرؤ أحد من قبل على البقاء في الحوش بعد حلول الظلام، فقد قيلت حكايات عن سماع أصوات رجال ونساء يتنازعون ليلًا؛ لأن شخصًا ما قد قرأ "قل هو الله أحد" إحدى عشرة مرَّة، فقلَّب الموتى بعضهم على بعض، وكان منهم مَن مات منتحرًا، ومنهم الضرائر، ومنهم مَن مات غريقًا أو رميًا بالرصاص، لكن الشمس غربت، وارتفع أذان العشاء، وعم ظلام دامس، ولم تسمع "أم إدريس" شيئًا، ونامت نومة مشبعة، كما لم تنم من قبل. وقد شقشقت أنوار الفجر في ذلك اليوم أبكر من أي فجر مر عليها.

كانت هذه هي بداية إقامتها في الحوش. جلبت من بيتها مرتبة لتنام عليها، ثم منضدة، ثم كرسيًّا، حتى صارت الغرفة المجاورة للمدفن بيتًا لها. ذهب معارفها لبيتها القديم مرَّات عدة ولم يجدوها. كسر الجيران باب الشقة، بناءً على طلب تيتة "زكية". ولما لم يجدوا لها أثرًا في أي محضر شرطة أو مشرحة مستشفى، سلموا أمرهم بأن مكروهًا قد وقع لها، وأودى بحياتها. ذهبوا إلى مسجد "محمود" المجاور للقرافة ليصلوا عليها صلاة الغائب، ودخلوا الحوش ليقرؤوا الفاتحة على أمواتهم، فوجدوها عُمدة وكبيرة المكان، وجهها صبوح كالرغيف الطازج، ويتجمع الأطفال من أبناء سكان المقابر حولها، بعد أن تقص عليهم الحواديت، ولا تغادر الضحكة شفتيها، وهم يمتطون بخيالهم ظهر بطل خرافي، تكسوه الحُلي والحلل، وله جناحان خضراوان قد سد بهما المشرق والمغرب، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر، مكتوب على جبهته "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

كنت أرى سِتِّي "أم إدريس" أيضًا في مآتم مختلفة، منها ما يخص أقارب تيتة "زكية"، ونمضي فيها وقتًا طويلًا، ومنها ما كنا نذهب إليها في زيارات قصيرة، وننصرف حيثما ينتهي المقرئ من قراءة ما تيسر. كُنتُ أسمع النسوة في مآتم الجيران يفسحون الطريق في مهابة لستي "أم إدريس"، وهن يرددن "أم إدريس بتاعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمعية الشرعية وصلت". كانت بمُجرَّد أن تجلس يسكتن من تلقاء أنفسهن عن النواح؛ لأنهن يعرفن أنها ستقول كلامًا ليس كالكلام، سيهدهد أرواحهن المعذبة ويخمد حرائق قلوبهن التي اشتعلت حزنًا على فقيدهن. لم تكن تردد أقوال التعزية المكررة، ولا حتى الآيات والأحاديث التي تعدد فضائل الصبر. كانت تأخذ المكلومين إلى أحبائهم في رحلة إلى السماء. كانوا ينصتون في نشوة وهي تقول إن السماء من السمو والرفعة، إن رفعة المرء وترقِّيه في مقامات القرب عند الله تنطبق على السماوات السبع، وما فيها من أوصاف الملائكة والأنبياء والصديقين، فيتبدل حزنهم فرحًا. وبعد أن تسحرهم بجميل القول، تختفي لشهر، أو أكثر كل عام، وهي تقوم بمهام عملها الجديد، تأدية مناسك الحج أو العمرة عن المتوفى، من خلال الجمعية الشرعية التي تتولى جامع "محمود" الملاصق للقرافة.

بلغت سِنِّي "أم إدريس" الخامسة والسبعين، وكانت قد طافت خلالها حول الكعبة وهرولت بين الصفا والمروة، ولامست شباك النبي ما يزيد على مقدار عشرين حجة وخمسين عمرة، كانوا بمثابة تكفير عن ذنب أغلقت قلبها عليه ما يقارب أربعين عامًا، أي ما يقارب عدد سنوات عمري.

كنا في شهر رمضان، أفطر لديها كسرات خبز وجبن بالطماطم. كانت معي بالجسد فقط والروح شاردة منها، وكأنها مخمورة بسكرات الموت. عادت لتتحدث بلسان أرضي، وكأن ما تقوله لا ينطق إلا باللهجة التي تليق به. كانت تُحدِّثني على أنني تيتة "زكية" تارة، وتراني كحقيقتي تارة أخرى:

- إوعي يا "زكية" تفتكري إني كُنتُ نايمة في القرافة عشان عشقت جوزك، أنا رحت أجاور "إدريس" ابني وأبويا الشيخ "مصطفى". جوزك أما كان بيجتمع بيَّا، كان بيغمض عينيه عشان ما يشوفنيش، ويقوللي آه لو ترضي يا "زوزو"، وهو شايف وشِّك أنتِ وحاضنك أنتِ. هو كان راجل طيب وكريم، وأنتِ كُنتُ طرية وبيضا، بس عاصية عليه. ما هو مش بإيدك، كله من المرض اللي صابك وقفلك من الرجالة، وهو كان نفسه في واد يشيل اسمه،

20%

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

بعد ما خلفتوا بنتكوا "نادية" أم البنات.

يا ضنايا يا "تُقى". أنا باحسك بنت بطني أكتر من "عادل" اللي بتقولي عليه خالك ده. أصل "عادل" ده ابني أنا مش ابن "زكية". أنا كُنتُ قريبتهم الغلبانة العانس، اللي جابتها "زكية" لجوزها عشان يخلِّف منها، وهي ضامنة إن أنا شكلي على قدي ومش نغشة زيها. كان يخلص منِّي ويجري عليها يملس على شعرها ويدلعها، وهي سايقة العوج. قال إيه بتحبه زي أخوها. بس أقولك الحق، أنا عشقته، وفضلت عاشقاه حتى بعد ما خدوا الواد "عادل"، كإنه ابن زنى وكتبوه على اسم "زكية". وحتى بعد ما اتطلقت منه، واتجوزت أبو "إدريس" وخلَّفت "إدريس" فضلت عاشقاه.

لا يا "زكية" ما تخافيش أنا عمري ما اشتهيت جوزك، بس أنا عارفة إنك بتجيبيني عندك كل خميس وجمعة عشان أنا بقيت من ريحته، حي وميت، وباحس بيكي وأنتِ بتطبطبي عَليا كأنك بتصالحيه من الحرمان، ما أنتِ عارفة إن جسمي متمرمغ في التراب اللي نايم تحته".

وظلت على هذه الحال، تحدثنا أنا وطيف تيتة "زكية" التي كانت قد ماتت منذ سنوات، والفضول سيفتك بها إن كان زوجها قد عشق "أم إدريس" هو الآخر أم لا. أشارت لي "أم إدريس" بأن أتركها لترتاح، ثم أغمضت عينيها في سلام، وسكتت نهائيًّا عن الكلام، مع تغريد الكروان بالدعاء الممتزج بحناجر ذهبية تبتهل من آلاف المساجد قبل آذان العشاء.

قبل وفاة سِتِّي "أم إدريس" بأسبوع واحد، كانت قد سألتني عن عمري، وقلت لها:

- ده أنا قرَّبت أكمل الأربعين.

فقالت إنه على مَن يبلغ الأربعين سنة أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله - عزَّ وجلَّ - ويعزم عليه، مثلما فعلت هي حين بلغتها. في الأربعين سرًّا دفينًا. فالعاقل مَن فهم مقادير الزمان. فهو زمان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجاهدة الهوى والتزود للرحلة الأخيرة.

حملتني سِتِّي "أم إدريس" بسرها الذي أوصدت عليه عمرها، ولقنتني دعاءً أردده لدفع الشر وقضاء الحوائج، شريطة أن أسجد بعد أن أذكر حاجتي، ثم أقول في سجودي:

"فضلك آنسني، وإحسانك دلني، فأسألك بك، أن لا تردني خائبًا".

رددته حرفيًا بعدما كُنتُ قد رأيت الرقم 22 الذي على ماكينة الخياطة ماركة "سينجر"، وقد أوصتني "أم إدريس" أنني كلما رأيت الرقم اثنين وعشرين، أتمنى أمنية، فيستجيب الله.

وكانت أمنيتي هي ألا يكون هذا الرقم ذاته حافزًا لكي تعبث "تمارا" بأساس العمارة المتهالك، فينام فوقي وفوقها الجدار.

"تمارا"

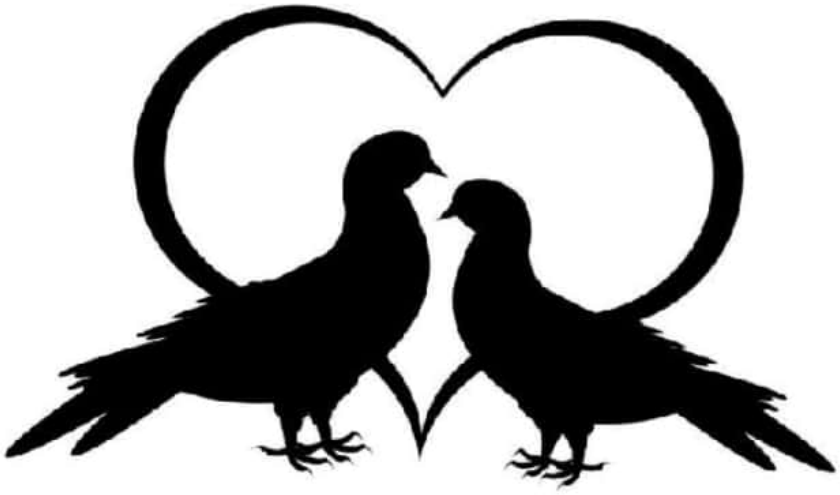

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التنقيب عن الكنز المدفون تحت البيت، بمساعدة الزئبق الأحمر المخزون في ماكينة الخياطة القديمة، التي عشقت شكلها وملمسها في طفولتي، وحلمت أن أقتنيها، لتكون قطعة فنية لها تاريخ، وتزين الأتيليه الذي سأفتتحه يومًا ما.

يبدو أنه من كثرة ترتيل "أم إدريس" لسورة الكهف صباح كل جمعة في شقة "الدرب الأحمر"، وشرحها لنا أنا و"تُقى" للآيات التي تحكي قصة الجدار الذي كان يخص اليتيمين، وكان تحته كنز، وكان أبوهما صالحًا، فأراد الله أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، صارت تلك الحكاية هي التعويذة التي حفظت البيت، وجعلت "مأمون" يكف عن الهزي، ويتفرغ لمُسابقات الحمام الزاجل. فقد أدخلت تلك الفكرة في رأسه "أنستازيا" السويسرية، التي تقطن شقة الدور الثاني في العمارة المقابلة لعمارتنا، وتشترك معنا في الباحة التي تضم البنايات الأثرية الأربع.

ما كُنتُ لأدع مشعوذًا معتوهًا يقنعني بأن أساهم في هدم جدار قد يطوي بين جنباته حكايات من أزمان بعيدة، فالجدار العتيق ذاته هو الكنز. كان "باتريك"، المهندس الأثري الذي يقطن شقة الدور الأرضي، قد حكى لي منذ أعوام أنهم أثناء ترميم سبيل "الست نفيسة البيضا"، الذي يبعد عن الباحة ببضعة أمتار، عثروا على مجموعة من أوانٍ فخارية مملوكية محلية، وأخرى من الصين ووسط آسيا وفناجين قهوة من أوروبا، وغلايين تبغ عثمانية، ومجموعة أحجية على صيغ دينية وسحرية وُجدت ملتصقة بشقوق الحوائط، لحماية المبنى من الانهيار ودفع الأذى عن سكان المكان. فربما تحمل جدراننا أحجية تكشف المستور من أخبار تعيد لنا حياة كنا نعيشها بتململ، طمعًا في أيام أكثر بهجة.

تفتَّت أخشاب غرفة نوم تيتة "نازلي"، حزنًا على غياب صاحبها، وقد كانت تحتل مساحة كبيرة من غرفة الدور الأرضي، التي استأجرناها من "وديدة" لنخزن فيها ما نعتز به من ذكرياتنا. فانتقل "چاكيت" مرَّة أخرى إلى جوار القلب، وسكن الغرفة بدلًا من الألواح الخشبية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد "چاكيت" لوحدته التي تمتعه وتمنحه تميزًا وتدليلًا، مثلما استأثرت وحدي بدفء ومحبة "چيمي جدو". تشمم "چاكيت"سترته الحبيبة في لهفة، ورفع يديه لكي ألبسه إياها. وفي آخر كل ليلة، بعد عودتي من عملي كمصممة للأزياء الجاهزة، وما يتطلبه من مشاوير لمصانع النسيج بحي "العاشر" البعيد، ومحال بيع الأقمشة بشارع "الأزهر"، وورش الطباعة بـ"باب اللوق"، كُنتُ أستند إلى الوسائد الطرية التي فرشتها لـ"چاكيت" في ركن من الغرفة، وألف ذراعي حول فرائه الغني، وأداعب بأصابعي رأسه ووجهه قطيفي الملمس، فأشعر بهبوب ريح آتٍ من عند اللّٰه، ليس مصحوبًا بهواء، بل برهبة تجعلني أشعر أن "چيمي جدو" يطوف حولي في خفَّة تنُّورة صوفيَّة تعلو وتهبط كجناحي حمامة بيضاء. وهو الشعور نفسه الذي يتملَّكني حين أرفع رأسي إلى السماء قبيل الغروب، وأشاهد رفيف أجنحة الحمامات التي يرسلها "مأمون" لتهيم في سرب انسيابي راقص، يعلو جدًّا ويختفي، ثم تلهمه بوصلته الربانية بالعودة إلى أعشاشه الخشبية وحنان راعيه "مأمون".

للباحة وعماراتها الأربع ونسة ساحرة، لا تغذيها روائح طهي زاعقة أو صياح أطفال أو أصوات منبعثة من أجهزة تليفزيون. فالمكان يكاد يخلو من الأطفال، وكأن بابها الحديدي الصدئ في أول الممر المؤدي إليه لا يسمح إلا بمرور مَن لم ينجبوا أبناء، أو تركوا صغارهم يتفرقون في ربوع الأرض، وأتوا إليها لاجئين إلى الصفاء، فاستبدلوا حنان الصغار وألفتهم، بالتربيت على فراء كلابهم وقططهم، أو التحليق مع أجنحة طيورهم، أو مجرد الاكتفاء بذواتهم الغنية بالمشاعر والفنون والأفكار، التي يلدونها كأبناء من صلبهم، وتحمل أسماءهم وتخلدهم في لوحة أو كتاب أو استكشاف.

ومثلما أشبه حالنا الجديد بـ"الجيب أونفيلوب" المتشكلة على هيئة مظروف، تستر وتكشف في آنٍ واحد، تدثرت في غرفة الدور الأرضي التي يسكنها "چاكيت" بالصناديق التي تحمل مظاريف بجميع الأحجام، تضم أوراقًا لا حصر لها. لم أجرؤ على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التخلص منها مثلما واتتني الشجاعة على ترك وتوزيع وبيع كثير من قطع الأثاث. وصارت اللمبة الصغيرة التي تتوسَّط سقف الغرفة ديكورًا يرد على الأضواء الخافتة والأباجورات المضاءة من شقق "باتريك" المهندس الأثري الإنجليزي، و"أنستازيا" الفنانة السويسرية، و"تُقى" العاكفة على الهمهمات في صلواتها، و"وديدة" التي تُلصق مذياعها "الترانزستور" على أذنها ويبث أغاني قديمة، تجعلها تتنهد طربًا وشجنًا، وتثير ذكريات لا تعرف هل تحن إليها، أم تتذكرها فقط لكي تمتن لحالها الجديد. الإحساس نفسه الذي يتملكني كل مساء حين أدخل غرفة "چاكيت"، وأبدأ في فرز الأوراق؛ باترونات لفساتين أبدعها قلم احتضنته أصابع "چيمي جدو"، إسكتشات لتنورات كانت مشروع تخرجي في معهد الموضة بلندن، ورسائل كثيرة تركتها في جيب روب "چيمي جدو" أو تحت وسادته؛ لأنني لم أقوَ على الاعتراف وجهًا لوجه بما احتوته، كالورقة التي كتبت فيها بخط طفولي أنني حصلت على الدرجة النهائية في التاريخ، لكنني رسبت في مادة الحساب، أو الخطاب الذي كتبته له وأنا في الجامعة، وعدته فيه أنني لن أكلم "فادي أباظة" مرَّة أخرى، مهما تألمت أو انفطر قلبي. ربما اكتسبت تلك العادة لا شعوريًا، حين كُنتُ أشاهد "چيمي جدو"، وهو يجلس إلى مكتبه بآخر الليل، بعد أن تنام تيتة "نازلي"، ويكتب حروفًا بخط منمق في مفكرة سميكة، ثم يوصد عليها أدراجه. مرَّة وحيدة هي التي لمحت فيها المكتوب على غلاف المفكرة، قبل أن يدسها سريعًا في الدرج. كان على غلافها الأسود جملة مكتوبة بالذهبي بخطه تقول: "الأمور الشخصية تُكتب ولا تُحكى". وهي نفسها المفكرة التي بين يدي الآن، وكانت ترقد مثله في سلام في صندوق الأوراق الصفراء. لا أدري إن كان يجب عليَّ حرقها احترامًا لخصوصية صاحبها، أم الاطلاع على محتوياتها، فربما وجدنا أي أثر يدلنا على مكان الأموال التي تقاضاها عن بيع الأتيليه أو المحل.

لم يكن غريبًا أن يتخلص "چيمي جدو" من المحل، فهو كفنان يعتز بمهنته كخيَّاط كان يكره ألا يرى زبائنه ويشهد تأثير ما أبدعه على وجوههم، ويعرفهم بشخوصهم ويقدرونه لذاته،

272 دقيقة متبقية من
22%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويأخذ قياساتهم في كل مرَّة يزورونه، وينادونه بـ"جمال باشا" مثل الرجال الذين كانوا يترددون على الأتيليه. أما أن تختفي مكونـات الأتيليـه التـي كـان يعـتز بـها، فـهذا مـا يحـيِّرني. أيـن تـرابيزات القص، وإستاندات تعليق البدل، والمقصات الضخمة المسـتوردة، ومـاكينات الخياطـة وماكينـة "الأوفرلوك"، ورفـوف تخزيـن الأقمشة الصوف و"التويد" والكشمير و"الترجال"؟ ومع ذلك أتفهم لماذا احتفظ بما يزيد على عشر حقائب ضخمة، تقشَّر جلدها من القِدم لطول فترة التخزين، وتضم فساتين وتاييرات وبلوزات وتنورات كانت ترتديها تيتة "نازلي" قبل أن أولد، ولم تعـد بينـها وبين تلك الملبوسات أي صلة، سوى كُرات النفتالين التي تدسها فيها كل عام، وقطعة صغيرة تسحبها، لكي تعدلها "وديدة" لي، وأتباهى بها كقطعة "هوت كوتور"، أو أزياء راقية نادرة.

لا قيمة للأزياء إذا لم يرتدها شخص ما، لكن أزياء تيتة "نازلي" المهجورة كانت كالأثر التاريخي الذي شهد عصورًا زاهية، وكانت الأوعيـة التـي صب فيـها "چيمي جدو" من رحيق روحه، وقلبه وجسده. وكما أوصاني أن أتحمَّل تيتة "نازلي"، استحلفني بحبي له ألا أفرط في حقائبها يومًا ما. كانت تلك الحقائب كصندوق الرسائل الذي بين يديَّ الآن. رسائل تكاد تنطق بأنه عاشت في تلك الملابس امرأة كانت لها قياسات مثالية وجسد باهر، وقد فرحت وتنزهت وسافرت وعطرت تلك الملابس برحيق الزهور ويـود البحـر وزركشـتها بأشـعة الشمس ونسمات الهواء. صورة المرأة التي أراد "چيمي جدو" أن يبقي عليها، حتى لو كانت مجرد "هلاهيل"، تتراص كجثث في توابيت.

تلاشى طيف "كوكو شانيل" الذي كان يعشقه "چيمي جدو" في صورة تيتة "نازلي" بعد وفاة ابنهما "شامل"، ولم يتبقَّ منها سوى زجاجات عطر "شانيل نمرة 5"، التي كان يضع هو قطرة منها على معصمه بآخر الليل، ويسحب نفسًا عميقًا وهو مغمض العينين، لكي ينام على أريج يُبهج القلب. فقد التزمت تيتة "نازلي" في تلك المرحلة بنظريتين جديدتين في الموضة؛ الأولى هي التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقول إن الأناقة عبارة عن ماء وصابون، والثانية هي التي تقول إن أعظم درجات التأنق هي أن تكون حقيقيًّا، فصارت تمضي وقتًا طويلًا في الاغتسال والوضوء، وواجهت العالم بمشاعرها الحقيقة كامرأة مكلومة على وحيدها. ودخلت في علاقة عشق مع الحداد، فصارت ترتدي له كل ما يليق به، فساتين سوداء، شعر معقوص غير مصبوغ، ملفوف بإيشارب من الفوال الأبيض، وصار تورم العينين مكياجها، والقهوة السادة نخبها، وقراءة صفحة الوفيات والقيام بواجبات العزاء نزهتها، بعدما كانت مولعة بكيد النساء برشاقتها وأزيائها الفريدة في الحفلات والأفراح.

شعرت تيتة "نازلي" أن الكون مدين لها بتعويضها عن فقيدها، وكأنها قد ضحت به عن طيب خاطر، وتنتظر مقابل تضحياتها. صارت تفرض وصاية كأم قسرية على كل المحيطين بها، أخواتها الذين يكبرونها وبنات خالاتها وأبنائهم، وبالطبع أنا و"چيمي جدو". كانت تعامله كأم وليس كزوجة، تعتني بمأكله وتعد له ما يشتهي من الوجبات، مهما كانت صعبة وأيًّا كان الوقت، تتصل به لتطمئن عليه في اليوم الواحد عشرات المرَّات كشرطي يلاحق مجرمًا، وهو ما كانت تفعله مع كل مَن يغيب عن ناظريها. وبينما حولت شهوتها للحياة إلى أواني الطعام المسبكة والمشبعة بالدهون، فانتفخت وترهلت، كانت حريصة بشكل مرضي على مظهرنا وأناقتنا أنا و"چيمي جدو"، "جمال باشا" كما يسميه زبائنه، فقد كان اللقب موزعًا على شخصه وهيئته. أما الثمن الذي كان عليه أن يسدده مقابل أنه تقبل واقعه بنفس راضية هو أن يتخلى عن حلمه في أن يصير "كريستوبال بالينسياجا"، المُصمِّم الشهير بالتصاميم المبتكرة والألوان الصاخبة، والذي ألهم معظم ملوك الموضة، وبدلًا من أن يحمل لقب "سيد الخياطة" مثل "بالينسياجا"، تحول إلى مجرد خيَّاط رجالي، يمتلك شقة في الدور الأول بميدان "لاظوغلي"، ويُفصل بذلات مكررة الألوان والأشكال، فيما عدا فتحة هنا، وجيب أو زر مختلف هناك.

كانت تيتة "نازلي" تدرك العطب الذي أصاب روحها، وانتقل إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مظهرها، ولم تقوَ على علاجه مثل مرض عضال، فرأت أن الوقاية خير من العلاج، والوقاية هي أن تمنعه من ملامسة أجساد النساء، وإبهارهن بثقافته وتصالحه مع نفسه ومع الحياة، وبوسامة روحه ومظهره. كان الجميع يرضخون لمطالب تيتة "نازلي" كتعويض عن الفقد الذي دمر حياتها، فصارت كطفلة يتيمة تستغل ظروفها حتى أفسدها التدليل، لكنه أفسد حلم "چيمي جدو" معها. الأمر الذي جعلني أُكنُّ لها حقدًا، لم أستطع تصويبه ناحيتها، بل جعلني أفتش عن أي وسيلة لتحقيق أمنية "چيمي جدو"، وتفادي الجدال اليومي الذي لا آخر له بيني وبينها، وقد كان معهد الموضة في لندن هو الحل. العجيب أنها هي مَن باعت الذهب الذي كان يملأ شكماجيتها، لتحقق لي الحلم، وأن "چيمي جدو" هو مَن كان يرفض فكرة السفر والغياب لستة أشهر كاملة، لكنه كطفل مطيع لتيتة "نازلي" رضخ.

ستة أيام بلياليها قضيتها في غرفة الدور الأرضي، في قراءة المفكرة التي علاها التراب وفض الرسائل التي اصفرت أوراقها، من أجل أن أجد حلًا لمعضلة الأموال التي فُقدت. لكنني كحالي على مدار حياتي، لم أحصل على الإجابات الصحيحة في المسائل الحسابية، أما التاريخ فكنت أحصل فيه على الدرجة النهائية. فقد وجدت حلولًا لكل ما كان يحيرني بخصوص العلاقة الملتبسة بين تيتة "نازلي" و"چيمي جدو". تشكلت أمامي خمسة وثلاثون عامًا في ملخص لما "وقع من الحوادث"، على غرار كتب التاريخ التي لخصها أصحابها، وكانت كـ"المنهل الصافي في شرح الوافي".

"جمال الشوافيلي أبو لاسة"، طفل يتيم الأبوين، نشأ في دار عمته "تمار"، التي حُرمت من نعمة الإنجاب، فتلقفت الصغير مثل جوهرة ثمينة، راعتها وصقلتها، حتى صار شابًّا وسيمًا، يهوى الألوان والموسيقى والجمال، بعد أن وفرت له حياة أرستقراطية ناعمة، على حساب دمها وأعصابها. فقد كان لها زوج سليل حسب ونسب، تربى في القصور، حيث الخدم والحشم، لذلك لم يشتهي من النساء سوى مَن تعّرف على ملذات الحياة معهن من الفلاحات والفقيرات اللاتي خدمن في بيوتات العائلة. وحين صار له بيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضمه وزوجته "تمار"، جلب معه مَن يخدمنها ويسعدنه. تقطعت أواصر المحبة والاحترام بين "تمار" وبين زوجها، إلا إنها أعمت عينيها عما يدور كل ليلة في مطبخ بيتها بين زوجها وخادماتها، حتى تضمن للصغير، ابن أخيها، من يوفر له ما يلزم من الأموال، ليدرس حين يكبر فنون الموضة والجمال. وحيث إن دوام الحال من المحال، ضارب زوج العمَّة في البورصة بنصف أمواله، وخسر النصف الآخر على موائد القمار، فأمسك بقلبه الذي توقَّف قبل وصول المُسعفين، الذين حملوه من فوق المائدة الخضراء التي سقط فوقها مُفلسًا بلا جاه ولا بساتين.

لكن لحسن الحظ، كان "جمال" قد أنهى دراسته في كلية الفنون. ويرى في أحلامه أنه قد سافر إلى مدينة ساحلية تدعى "جيتارا"، حيث رائحة البحر وحميمية البيوت الصغيرة ذات القراميد الحمراء، ورهبة الجبال الخضراء المنحدرة، نحو أرض تقترب جدًّا من باريس عاصمة الموضة، والأهم أنها كانت مسقط رأس "كريستوبال بالينسياجا".

كان "جمال الشوافيلي" رفيع الذوق في الملبس والمأكل والنساء، لكنه وقع أسيرًا لهوى ابنة الجيران الفقيرة، التي جاءت من الإسكندرية لتعمل وتكمل دراستها. كان والد الفتاة يتكسب من عزف البيانولا أمام مقاهي الكورنيش، وكانت الفتاة ترافقه أحيانًا في طفولتها وتغني بصوت عذب على الألحان. وهذا الصوت هو ما أطرب "جمال" وأوقعه في حبائلها. ليس هذا فحسب، بل نزهاتهما معًا كل يوم جمعة على رمال "المنتزه"، و"المندرة"، و"الشاطبي"، و"راس التين"، ورائحة يُود البحر الممتزجة بالبرتقال الذي كانت تقشره له بيديها، وتشكل القشرة على هيئة وردة، تضعها في شعرها وهي ترفع أناملها برشاقة راقصة فلامنكو، فيشعر أنه يرقص رقصة جبلية شعبية مرحة في مدينة "جيتارا" التي تمنى أن يقضي بها أوقاتًا لا تُنسى في إسبانيا، ثم ينزح منها إلى باريس. استشاطت العمَّة "تمار"غضبًا من تلك العلاقة التي ستحطِّم كل ما تكبدته من أجل أن يصير لـ"جمال" شأن يعوضها هوان الذل مع الزوج الذي كان، فذهبت لأهل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحبيبــة فــي عقــر دارهـم، ومـن أول الحـارة نـادت علـى أمهـا، وعيَّرتهم بأصولهم المتواضعة، وهدَّدتهم بأنهم إن لم يختفوا من حياة ابن أخيها، سيشهدون ما لا تُحمد عقباه.

"جمال" الذي تمزَّق بين عرفانه بجميل عمَّته، وحبه الأول البريء، لم يجد مخرجًا من مأزقه سوى أن ينهي حياته، فتجرع عشرة أقراص دفعة واحدة من علبة الدواء، إلا أن عمَّته التي كانت تضع عينًا راصدة عليه اكتشفت أمره في الحال، فنجا من الموت.

نهاية لقصة قديمة تُشبه فيلم "غادة الكاميليا"، إلا أنها كانت بداية لزواج "چيمي جدو" من تيتة "نازلي"، ابنة "عبد العزيز بك سنجر". رجل ميسور، من معارف العمَّة "تمار"، لكنه يصارع المرض في أيامه الأخيرة ويريد أن يطمئن على "نازلي" وأخواتها البنات، في حماية رجل يرعاهن كالأخ والأب. تم الزواج في أسبوع واحد، وجد "جمال"نفسه خلاله يتأبط ذراع فتاة وفَّر له والدها مسكنًا كـريمًا، والشـقة التـي تحـولت إلـى أتيليـه للأزيـاء الراقيـة، وأسـرة توَّجته أميرًا على عرشها، بعد أن رحل كبيرها، فامتلأ امتنانًا عبَّر عنه على طريقته؛ أن جعل من "نازلي" نفسها قطعة فنية تنبض بالحيوية، وبالتفاصيل الغنية التي تزركش التاييرات والمعاطف والسـترات، أزرارًا ذهبيـة وجـالونات علـى هيئـة ورود، وشـرائط صغيرة تزين الأكمام الواسعة والحردات الضيقة. حتى في فترة حملـها، جعلـها عـروسًا لتسـعة أشهر تتزيـن بفسـاتين واسعة من الدانتيل، والمخمل، والكشمير، فقد كان يرى أن الناس يبالغون في التأنق لساعات قليلة في ليلة العرس، ويهملون ثيابهم في الشهور التسعة المترتبة على تلك الليلة.

"جمال الشوافيلي" الذي شبَّ على الامتنان وحفظ الجميل، بداية من عمَّته "تمار" التي ربَّته، ثم عائلة زوجته التي في لحظة ضعفه راعتـه واحتوتـه، لـم يكـف عـن العرفـان للفتـاة التـي عـرف معها حلاوة رعشة القلب الأولى عند اللقاء، وشجن الأغاني لحظات الافتراق، وشذا قشر البرتقال الذي صار أريج النفس، ومتعة النظر كزهرة هاربة من ثمرة فاكهة، لتصير إكليلًا يزين خصلات ملاك تشكل على هيئة أنثى هي روح الروح والقلب والعين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا هو ما كتبه "چيمي جدو" في كراسته، تحت عنوان صادم:

"لم أحب نازلي يومًا".

وكعادته كان يختتم كل صفحة بجملة مأثورة أو سطر من أغنية، فذيَّل هذه الصفحة بـ***"ما الحب إلا للحبيب الأول".***

انتهيت من مفكرة "چيمي جدو"، وسحبت خطابًا بتاريخ عشرين عامًا مضت، مغلقًا وعاد كما ذهب، صُكَّ عليه بقسوة ختم أزرق "لم يستدل على العنوان". اسم الراسل: "نازلي عبد العزيز سنجر". اسم المرسل إليه: السيدة الفاضلة "هدى أباظة". تساقطت قطرات العرق بين رموشي مع تزايد ضربات قلبي، فأصابني عمى لثوانٍ. ما الذي يجمع بين تيتة "نازلي" وطنت "هدى" والدة "فادي أباظة"؟ فضضتُ الظرف بعصبية حتى مزَّقت طرف الخطاب. تيتة "نازلي" التي لا تنطق كلمة حب، ولا يهزها لحن ولا تطربها زقزقة عصفور، ترسل توسلًا إلى والدة "فادي" ألا تحرم قلبين متحابين من أن ينعما بروعة الحب الأول؟ ثم تستطرد في الفقرة التالية في امتداح أصل وفصل عائلة "الشوافيلي"، والتحدث بتواضع العارف بقيمته عن عائلة "سنجر"، لترفع من قدري في نظر طنت "هدى"، ومع ذلك ظلَّت صامتة ولم تناقش معي أمر "فادي"لعشرين عامًا؟

تيتة "نازلي" هي فعلًا المخلوق الخرافي المرسوم بالذهبي فوق ماكينة الخياطة "سينجر". هي "اللاماسو" الكائن المجنح والجنيات الحارسة في "آشور"، هي العنقاء و"السفنكس" والكباش المجنحة في سوريا. هي الجبارة العظيمة المعنية بحراسة الكنوز العرفانية والأسرار والأساطير التي حدثت خلف بوابات الشرق القديم.

لم أبرح مكاني في تلك الليلة، وغلبني النُّعاس فوق شلتة "چاكيت" بغرفة الدور الأرضي، فرأيت فيما ترى النائمة، صفحة من الورق المصقول بمجلة "بوردا"، بها صورة لأم شقراء ترتدي جيب "أونفيلوب" كاروهات باللونين الأحمر والأخضر، وتمسك يد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابنتها الصغيرة التي ترتدي الجيب نفسها بمقاسٍ صغير. العجيب أنني بداخل الحلم كُنتُ أعرف أنها مجرد صورة، لكنني كُنتُ أرى أيضًا شكل تيتة "نازلي" فوق وجه الأم، وأرى ملامحي تذوب في ملامـح الطفلـة الصغيرة. ثـم سـاد المشـهد أحجـار كريمـة، مـن اليـاقوت الأحمـر والزُّمـرُّد الأخضـر، تتشـكل علـى هيئـة مربعات تتنـاثر فـي الفضـاء، ثم تسقط رويدًا رويدًا، وتتجمع في ثوب ملفوف وينغلق من الأمام على هيئة مظروف.

"أنستازيا"

سأرتدي اليوم التنُّورة الفوشيا السَّاتان الواسعة، ومشد الصدر ذا الترتر الذهبي، لأمـارس بهما رياضـة الصباح. "كعب الغزال يا متحني بدم الغزال"، أغنيـة رائقة تليق برقصة تلين مفاصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بطولـه أمـام شـاشة الكمبـيوتر للعمـل علـى مشـروعي الجـديد. سأخفض صوت الموسيقى للحد الذي لا يجرح سكون السابعة صـباحًا، ولا يطغـى علـى أصـوات زقزقـة العصـافير والبلابـل واليمامات التي تزين شجرة التوت، التي يحلو لي التمايل بغُنْج أمامها في البلكون المطل على الباحة.

وكأن للألوان البراقة وملمس الحرير صوتًا سحريًا يوقظ النيام، فبمُجـرَّد أن أظـهر خلـف أُصُص الزرع فـي بلكوني، ألمح وجوهًا ملتصـقة بزجـاج نوافـذ الجـيران المغبـش، وخيـالات تتحـرَّك لتتلصـص مـن بـين فتحـات الشـيش، خاصـة حين يكون لديهم ضـيوف يحكـون لـهم عـن تلـك الجـارة الأجنبيـة المهووسـة، ويستيقظون مبكرًا خصيصًا حتى لا يفوتهم المشهد وهي تمارس الرياضة في بذلة رقص شرقية، وتهز وسطها وأردافها وصدرها على دقات طبلة وشخاليل صاجات. ما يهم هو أنهم بعد أن أنتهي ممـا أفعـل، يفتحـون نوافـذهم، ويلقـون علـيَّ تحيـة الصـباح بابتسامات قوية، وبفرحة نابعة من القلب بالسويسرية المخبولة، التي هجرت بلاد اقتُطعت من الجنة، وجاءت لتستقر بينهم في حـارة متواضـعة بحـي "الـدرب الأحمـر". أمـا مَن تأخـذهم العزة بالنفس وروح المكان، فيقولون إنني اخترت تلك الشقة لأنها تلمح طـرف هضـبة "المقطم" الصغيرة التي يظنونها جبلًا، ويخمنون أنني سكنت بجوارها لأنها تُشبه جبال "الألب" الخضراء. جبال "الألــب" هـذه تعتبـر لا شـيء، مقارنـة بـالارتفاعات الخرافيـة والالتواءات الحلزونية والمنحنيات الخطرة لجبال "القوقاز" التي تقـول الأسـطورة إنـها أحد الأعمدة التـي تسند الكون، وشهدت شبابي وطفولتي، في مسقط رأسي، چورچيا.

تركتهم يعتقدون أنني من سويسرا لأنني سافرت إليها صيفين متتالين، بعد أن استأجرت هذه الشقة، فظنوا أنني أذهب للتمتع بالنسيم الأوروبي العليل مع العائلة صيفًا، والعودة للتدثر بأشعة الشمس التي تكسو المكان هنا شتاءً. لم يُعلِّق أحد من الجيران على لون بشرتي الخمري، أو عينيَّ السوداوين أو شعري الأحمر الداكن، الذي قد يشبه ملامحهم، لأنهم يرونني بأعين قلوبهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كشقراء ذات شعر ذهبي وأعين زرقاء وبشرة بيضاء باهتة، منبهرة بتاريخهم وحضاراتهم التي طمستها الفوضى والضجيج. وقد حرص كل أهل المنطقة على أن يكونوا أهلًا للانبهار والدهشة بتقبلهم لي كغريبة صارت جزءًا من مكونات حياتهم اليومية، أنا وضيوفي الفنانين، الذين ما إن يلمحونهم حتى يتعرفوا عليهم بمُجرَّد أن تطأ أقدامهم منطقة تحت الربع، أو يركنون سياراتهم في الساحة التي يشرف عليها "مأمون" ابن "وديدة" عند جامع "أبو حريبة".

لم يدفع الفضول أحدًا من الجيران أن يدخل شقتي؛ لأنهم يظنون أنهم يمتلكون المشهد كاملًا، من خلال النوافذ العالية المفتوحة على الصالة، وتكشف الأكلمة الملونة والطبلية التي أضع عليها جهاز الكمبيوتر، والكراسي الخشبية المنخفضة، والخُدَّاديات المتناثرة على الأرض، وأعمل وأقرأ وأتناول طعامي، وأستلقي حتى يغلبني النُّعاس عليها، فيظنون أن هذا هو كل عالمي، بالإضافة إلى الشقة التي أستأجرها في الدور الذي يعلوني، وأستخدمها كمرسم وساحة فنية تستقبل الفنانين من كل حدب وصوب.

أما الغرفة المسحورة المطلة على المنور، وسطح العمارة المجاورة المكدس بكراكيب الجيران، فهي مستودع أفكاري التي أعكف طوال الليل على القبض على الإلهام الذي يأتي بها، وأمضي النهار في تحويلها إلى كيانات فنية على هيئة أفلام فيديو آرت أو أشعار تُشجي وتؤثر وتبدل رؤى، أو تكوينات هائلة الحجم تتوسَّط حدائق وساحات مهمة من مشارق الأرض إلى مغاربها. أما الحوائط، فتتزين بملصقات لمقالات تشيد بما حققته، وشهادات مكتوبة بماء الذهب، ودروع وتماثيل على هيئة جوائز تقديرية، أرصصها على الأرفف لا للتفاخر، بل لكي أشد من أزري وأمعن النظر فيها، كلما خانتني همتي.

بالغرفة نموذج لتصميم سمَّيته التلألؤ. كرة بيضاء كبيرة تُشبه الأرض، محفور عليها جبال ووديان والقمر في منازله السبعة، وكأنها تسبح في سحابة، وقد رأيت أنها تليق بأن توضع في فناء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكان يَعِدُ بحياة أكثر بهجة، كصرح للتنوير الروحاني أو مكان للاستشفاء. الكُرة مرصعة بأحجار تمتص أشعَّة الشمس طوال النهار. وحين يحل الظلام، تتوهج الكُرة القمرية، وتنشر نورًا متلألئًا.

لم يدخل أحد هذه الحجرة سوى "مأمون" ابن "وديدة"، الذي يعمل "موديل" لمصوري الشوارع في أيام راحته. جعلْتَه يستلقي على ظهره في نموذج القارب المصنوع من الفايبر الفوسفوري، الذي يحتل نصف الغرفة، وشغلت مؤثرات موسيقية توحي بهدير أمواج على جزيرة، ويتغير لون الأزرق إلى الأعمق، كلما تفاعلت نبضات قلبه مع سطح القارب. صوَّرته بكاميرا الفيديو، وجعلته بطلًا لفيلم مدته دقيقتان تشيران إلى أن الحياة تبدأ في قارب، القارب الذي يحملنا في رحم الأم، ويأخذنا في رحلة الحياة الطويلة.

أما قدس الأقداس في هذه الشقة، فهي الغرفة الوردية، أو ما يفترض أن تكون غرفة النوم. غرفة نهاية الدهليز الخاوية إلا من خمس عشرة لوحة، بعدد سنوات الفقد لابنتي "نينو". لوحة لـ"نينو" في عامها السابع، العُمر نفسه الذي غادرت الدنيا فيه. رسمتها ترتدي فستانها الوردي، لكن بمقاس واحد أكبر. "نينو" التي في خيالي في عامها العاشر، وقد قصَّت ضفيرتيها. ثم "نينو" التي في خاطري في عامها الرابع عشر، وقد طال شعرها، وفار جسدها. "نينو" في عامها العشرين تقرأ خطابًا غراميًّا. "نينو" في الثانية والعشرين في حفل زفافها، ترتدي الفستان الدانتيل الوردي نفسه الذي غادرت الحياة فيه وهي في السابعة من عمرها، وكان يصلح لطفلة وصبية وعروس. ذلك الموديل الرقيق البهيج الذي رغم بساطته يصلح للخلود..

وعلى الرغم من أن "مأمون" قد نام واستراح في الزورق المصنوع من الفايبر الموصول بنبضات القلب، وربما لمح إحدى اللوحات بقدس الأقداس الوردية، تركته يظن أنني من سويسرا مثلما يظن الآخرون، ولم أطلعه على ما يعرفه "باتريك"، جارنا في العمارة المقابلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقيت مرمم الآثار الإنجليزي "باتريك" منذ زمن بعيد في "بينالي" للفنون، وقد جمع بيننا حبنا للمباني القديمة والقطع الأصلية والترحال في قلوب وعقول البشر. أما العام الذي حل فيه ضيفًا على چورچيا، واستأجر الشقة التي نمتلكها أنا وشقيقتي في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" بوسط "تبليسي"، كان هو العام نفسه الذي فقدت فيه "نينو". لم أشارك "باتريك" جولاته على الكنائس والأديرة الأثرية ولا صعدت معه الجبال الشاهقة كما تعودنا، ولا حتى جالسته لتناول القهوة في الفراندة المطلة على الباحة المشتركة بين عمارات عديدة، وكان يعشقها لأنها تتنفس أصالة الشعب الكارتفيلي بأصوات النساء ولكنتهن التي تختلف عن كل لغات الأرض، والممتزجة بزقزقات العصافير ساعة العصاري ونداءات الجدات والأمهات والأطفال - الذين يلهون ويلعبون بالساحة – على بعضهم بعضًا. وهذا بعينه ما جعلني أغلق على نفسي بابًا وأنحبس انفراديًّا في غرفة خلفية، لا تصلها أي أصداء، لأكثر من أسبوعين، المدة نفسها التي قضاها "باتريك" في "تبليسي". استفسر "باتريك" من شقيقتي عن سبب عزلتي المرضية، فعرف أنني كُنتُ أصحو وأنام على نداءات لا تهدأ على فتيات كثيرات في الجيرة يحملن اسم "نينو"، الأمر الذي لم يتحمله قلبي، حتى بعد مرور تسعة أشهر على الحادث الأليم. ومثل ساحر ماهر، أغواني "باتريك" أولًا بما لن أقوى على مقاومته، التاريخ المتدفق منذ آلاف السنين، وما زال يجري مثل نهر "متكفاري" في قلب "تبليسي"، ونهر النيل القريب جدًّا من مكاننا هذا. لم يردد أقوال الأطباء النفسيين عن البدء من جديد بعد الشدائد ومواصلة الحياة كأن شيئًا لم يكن. فقط حجز لي تذكرة سفر على نفقته، على ألا أسدد ثمنها إلا لو راق لي المكان الجديد. قال لي ستتعلمين الصبر وسط الألوان وقصاقيص الأقمشة والفنون الأصلية التي تعشقينها. ستعيشين بين أناس يؤمنون أن مهنتهم هي صنعة الأنبياء، نسبة إلى نبي الله "إدريس" الذي كان يعمل في حياكة الخيام. ستتجولين ببصرك بين العصور من أول زهرة اللوتس الفرعونية وحتى الزخارف الإسلامية ذات الدلال والانحناءات كالحروف الأبجدية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجورجية. والأهم من هذا وذاك، إنكِ ستعيشين في باحة طبق الأصل من باحة "ديفيد آجماشينيبيلي"، مع الفارق أن لا نسوة ولا أطفال سيجعلونكِ تسدين أذنيكِ وتنامين في وضع جنيني، حتى لا تستيقظين فزعة على نداءات عالية تصيح باسم "نينو".

جئت إلى البلد الذي ربما عاش فيه أجدادي كمماليك الجلبان، بيعوا على كبر أو اختطفوا صغارًا، ليصيروا فرسانًا وسلاطين، أو ربما كانت لي جدة بيعت في سوق للرقيق، وعبث بمواضع العفة لديها تاجر نخاسة حقير، ثم صارت خوند أو خانوم من ساكنات السرايا والقصور. جئت وبقيت وصارت "نينو" تكبر كما يرسمها خيالي، في اللوحات الوردية القابعة في غرفة قدس الأقداس. أتركها شهورًا قليلة في مأمن بين مَن يظنوني سويسرية، أفخم الأعراق من وجهة نظرهم؛ لأن هدفي في الحياة هو أن أبتدع أعمالًا فنية تحيي الأمكنة والأزمنة وتلفت نظر الشعوب إلى شاعرية وقدسية إرثهم الثقافي. صرت أنا نفسي القطعة الفنية التي أيقظت أهل الدرب على أن لديهم تراثًا وشوارع وأزقة وأضرحة جديرة بأن يرفعوا رؤوسهم وهم يرون أن بينهم أناسًا تركوا أجمل بقاع الدنيا ليعيشوا معهم.

إلا أنني في كل صباح أحتار قليلًا في اختيار لون وقماش التنُّورة المناسب للون مشدِّ الصدر ذي الشراشيب الذهبية أو الفضية، والذي لا بد أن يتناغم والموسيقى التي سأختارها. "يا بنت السلطان، حنِّي على الغلبان". ليست موسيقى جبلية وقورة تحثُّ الرجال على النضال، أو هادئة عفيفة تنظر فيها المرأة إلى الأرض خجلًا، كما في الرقصات الجورجية. بل دقات طبلة كنبضات قلب أو حركات عشق، تزركشها شخاليل رق ورنين صاجات، ودلال أكورديون ونعومة كمان. أتلوى على نغماتها كأفعى مغوية، تتمايل في غُنُج، ولا تبالي بالأعين المتلصصة من خلف درف الشبابيك، لتستمتع فقط بكونها أنثى تتهادى كزورق يُشكِّل رحمًا، يشع أمانًا ودفئًا، ويكفي أن تقبع فيه كل بنات الدنيا، وتبزغ منه مع بداية كل نهار ألف ألف "نينو".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"تمارا"

"خـرَّاط البنات خرطك". سمعت تلك المقولة للمرَّة الأولى حين كُنتُ في الرابعة عشرة من عمري. قالتها لي "وديدة" الخيَّاطة لما قامت بتضييق التنُّورة الـ"بيي دو بوول" التي اخترتها من بين مُقتنيـات تيتـة "نازلي" من حقيبة قديمة تحت السرير. عدَّلتها وحبكتها حول جسدي فأظهرت أردافي التي بدأت في البروز منذ شـهور. وقـفْتُ مزهـوة أمـام المـرآة المسـتطيلة، أتـأمل التـنُّورة الصوفيَّة السميكة بنقشة المربعات الصغيرة المتداخلة بالأبيض والأسـود، والتـي يطلقـون عليـها الـ"بيي دو بـوول"، وكنـت أردد اسمها كالفتيات دون أن أفهم معناها، إلى أن عرفت في درس اللغة الفرنسية أنها تعني "قدم الفرخة". نقشة كالمنمنمات، وعلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرغم من تصميمها البسيط، تملك جاذبية كبيرة وقدرة على لفت النظر من دون جهد بفضل طابعها الكلاسيكي. أدين لـ"وديدة" بأنها أول من لفت نظري إلى تفجُّر أنوثتي، وأنا في حيرة إذا كان ما جعلني مزهوة أمام المرآة هو "خرَّاط البنات" الذي نحت جسمي، أم النقشة التي تحمل اسمًا مغويًا حين يُنطق بالفرنسية. عرفت السر فيما بعد في درس النسيج والنقشات بمدرسة الموضة، فالـ"بيي دو بوول" يناسب النساء اللاتي يحببن التغيير، لكن لا يملكن الجرأة الكافية للفت النظر، مثل تيتة "نازلي" صاحبة التنُّورة الأصلية التي آلت لي. والنقشات الكبيرة منها تناسب المرأة الجريئة التي ترغب بلفت النظر إلى أناقتها ورقيها. وقد أدركت أنني أصبحت من هذا النوع من النساء، حين اكتشفت أن خزانة ملابسي تحوي صفًّا كاملًا من التنورات والفساتين والمعاطف بنقشة "البيي دو البوول"، التي كبرت مساحات الأسود والأبيض فيها، مثلما اتسعت تلك الغرفة التي استأجرناها في الدرب لتخزين منقولاتنا، لأنني طلبت من "مأمون" أن يحوِّل جزءًا كبيرًا مما تحويه إلى السطوح مع ركام وكراكيب الجيران.

رصصت حقائب الملابس، وصناديق الأوراق في الأركان بطريقة فنية، وكأنها ديكور عصري لصومعة فنان. صارت الغرفة هي وكلبي "چاكيت" بمثابة شال أتدثر به كل مساء. ويرسل مصباحها نورًا ودفئًا، مثل القنديل والأحبال الضوئية المشعة التي تلتف حول مسمار ضخم على حائط صالة "أنستازيا" في العمارة المواجهة لنا.

لا شيء يضاهي هذا السلام سوى نغمات كمانجات تتداخل في موسيقى الفالس التي كنا نسمعها أنا و"شادي عبد الهادي". أكتب "آند ذا فالس جوز أون" في قائمة الأغنيات المفضلة على تليفوني، لتكون الخلفية الموسيقية لأمسيتي التي نويت أن أكمل فيها ما بدأته ها هنا مع أسرار وخبايا المظاريف والخطابات. توسعت مساحة البحث والتنقيب مثل نقشة الـ"بيي دو بوول"، من مجرد أوراق مبعثرة وخطابات لم تُقرأ ولم يستدل على عنوانها، إلى قائمة من مئات الرسائل الإلكترونية الوافدة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخص الغريب نفسه على مدار شهور. قس يدعى "أندراوس" ويتكلم عن أموال وممتلكات وإرث. تلك الرسائل التي قد تحمل فيروسًا يدمر بريدك الإلكتروني، أو تستغل الطماعين والسذج وتستولي على بطاقاتهم وأرصدتهم البنكية. كُنتُ قد أعطيت أمرًا بتحويل هذا النوع من البريد إلى خانة الرسائل غير المرغوب فيها، خاصة أن "أندراوس" هذا لم يكن الوحيد الذي يزعجني، فقد سبقه أشخاص كثيرون، ومنهم مَن كُنتُ أعرفهم شخصيًّا من النادي أو الجيران. العجيب أن رسائل "أندراوس" عادت للظهور على رأس قائمة الرسائل المهمة، والأغرب أنها بدأت باسم "چيمي جدو" كاملًا، وكأنه هو الراسل. "جمال إحسان الشوافيلي أبو لاسة"، كما لفت نظري أن اسمي مكتوب بالطريقة الصحيحة "تمار"، وليس كما يكتبه وينطقه الجميع "تمارا". وفي أسفل الرسالة حروف تُشبه الأهلَّة، وأنصاف القلوب، وأوراق الورد، وتعلوها صورة لنسر فارد جناحيه، وفي صدره رسم لـ"مارجرجس" فوق حصانه، ويغرز سيفه في قلب التنين.

ثلاث خبطات قوية على باب الغرفة تخرجني من استغراقي، وأسمع اسمي في الوقت نفسه الذي كُنتُ أمرُّ بعيني عليه في الرسالة. "وديدة" تناديني وهي تدق الباب، حتى أنتبه من نبرة صوتها أنها تريدني في أمر جلل.

- شوفي يا "تمارا"، أنتِ ليكِ دلال ع الواد "مأمون". كلميه خليه يعقل ويحط راسه في شُغل الجراج اللي فاتح البيت. لِبس محزق وملزق وحلق شعره زي الهدهد، قال عشان بيصور نفسه للموضة، قلنا ماشي. قاعد ليل ونهار يكلم الحمام واليمام وينضف له العشة ويحط له ميَّة وأكل، ويربي كلاب في الجراج، قلنا كله بثوابه. عامل نصبة شيشة ويلم أصحابه آخر الليل ع السطوح، قلنا بيتسلَّى. إنما سايب أكل عيشه وخطيبته زعلانة عشان مش بيكلمها وماشي ورا الخواجاية.. قال إيه هيركِّب للحمام أجهزة في رجليه، ويدخل بيه مُسابقة ودايز وراها بقالهم أكتر من شهر، مرَّة في "طوخ" ومرَّة في إسكندرية ومرَّة معرفش فين!!! والنبي تكلميه. ولا أقولك.. كلميها هي. اطلعيلها وفهميها بالهداوة إن إحنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غيرهم. أنا مش عايزة أطؤش معاها. برضك مشفناش منها حاجة وحشة بقالنا سنين، والرزق اللي بييجي من الإيجار اللي بتدفعه في الشقة بتاعت الرسامين مش وحش.

الخبطات الثلاث نفسها من يد "وديدة" سمعتها حين كُنتُ طفلة صغيرة. لا أتذكر في أي عمر تحديدًا، لكنني أتذكر شكل "وديدة" حين دخلت علينا شقة "جاردن سيتي" وفي يدها قطعة صغيرة من القماش "اللينو" السادة، وتيتة "نازلي" تقول لها سأجربك في قميص نوم لـ"تمارا". كان هذا اليوم هو عيد ميلادي، وكان يوم إثنين. أخذت "وديدة" مقاساتي بعينيها وهي تسلم عليَّ، ومن دون باترون أو مازورة، تحولت قطعة القماش إلى قميص نوم. وبعد أن أضافت شريطًا عريضًا من الركامة البيضاء على الأكمام والصدر والحمالات والذيل، صار قميص نومي المفضل. كُنتُ أستنشق فيه روائح القماش والخيوط وزيت الماكينة، وأكاد كلما ارتديته أسمع صوت المقص الحامي وهو يفوت في سلاسة في النسيج الناعم، والقصاقيص الكثيرة التي كانت تملأ الغرفة وتجمعها "وديدة" على هيئة كرة، لتصنع منها سجادة. قالت لها تيتة "نازلي" أن تأتي الأسبوع التالي والذي بعده، وإلى ما لا نهاية، حتى صار كل يوم إثنين ميلادًا لثوبٍ جديد. ومثلما كانت تيتة "نازلي" تجسيدًا لـ"جريتا جاربو"، و"كوكو شانيل"، تحوَّلت أنا بفضل "وديدة" إلى "سعاد حسني" بفساتينها المرحة ذات الفيونكات، والأزرار، والنقط الكبيرة، والجالونات، والكرانيش. إلا أنني حين كبرت، ورغبت في موديلات أكثر وقارًا، كالفساتين المجسمة والچاكتات التي تكمن أناقتها في نظافة التشطيب، عرفت كم تفصل "وديدة" الملابس بعشوائية لكي "تاكل عيش". وهذا ما كُنتُ أشعر به حين أرفع ذراعي فأشعر بضيق الكُم من عند الأكتاف، أو حين أجلس فأضطر أن أشد الفستان لأسفل من عند الوسط. وعرفت أن الفارق بين خيَّاطة كـ"وديدة"، وخيَّاط مثل "چيمي جدو"، هو كالفارق بين المحارب المُرتزقة، والمحارب الذي يدافع عن وطنه.

ما زالت وديدة "مرتزقة"، على الرغم من أنها ما كانت تحلم يومًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون صاحبة أملاك، فقد عرفتها تيتة "نازلي" فتاة فقيرة، تسعى للعمل ولو حتى في تنظيف البيوت، لكن تيتة أكرمتها بأن منحتها فرصة التفصيل لي، حفيدتها الصغيرة، التي تدربت فيها وتطورت، بينما الطفلة تكبر، حتى حصلت "وديدة" على لقب خيَّاطة، تحيك قمصان النوم والبيجامات، وتقوم بتصليح الأزياء الغالية التي يأتي بها الزبائن العرب من الخارج. عمل أبناؤها الأربعة في مهن يدوية، وجمعوا مبلغًا وضعوه في يد محامٍ ماهر، رفع لها قضية وكسبتها ضد أبناء عمومتها الذين استولوا على نصيبها من العمارة المتهالكة. ومن حسن حظها، دخلت العمارة في خطة الترميم كأثر مرَّ عليه أكثر من مائة عام، واشترى منها "باتريك" مرمم الآثار شقتين، واشترت "أنستازيا" شقة بمبالغ لم تمر حتى بخيالها.

لا تعرف "أنستازيا" سوى أنني مجرد واحدة من المجموعة التي كانت تتردد على أتيليه الدور العلوي الذي يعج بالفنانين، ثم شاهدتني فيما بعد كجارة مقيمة تومئ لها برأسها من البلكون المقابل إن تلاقت عينانا. ولم أعرف عنها سوى أنها مستشرقة، تهوى الآثار والرسم، وتتغيب كثيرًا لتعطي دروسًا في الرقص الشرقي للأجانب المقيمين بمصر. ومع ذلك لن يكون صعبًا أن أفتح حوارًا معها عن تصميم الأزياء، أو أسألها عن صديقي "ضيا" أو أي من الفنانين الذين كُنتُ أراهم في الأتيليه المتوقف نشاطه نظرًا لحرارة الجو، واستحالة الاستعانة بمكيف للهواء حفاظًا على سلامة المبنى وقيمته الأثرية.

كانت "وديدة" تتوسَّط الباحة في مكانها الأثير تحت شجرة التوت، وتعد كوبًا من الشاي الثقيل، صباح اليوم التالي لحوارنا. وكانت "أنستازيا" قد انتهت توًّا من رقصتها الصباحية برعشتين على جانبها الأيمن، ومثلهما على جانبها الأيسر. همست لي "وديدة" أن أفاتحها في موضوع "مأمون" الآن، فأشرت لـ"أنستازيا" بأنني أريد أن أصعد لديها، وبعد ثوانٍ كُنتُ أقف في قلب الصالة بجوار الأريكة الملونة التي أراها عن بُعد من بلكوننا. سألتني عن اسمي، وما إن قلت "تمار" حتى تبدلت ملامحها بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدهشة والانفعال والفرحة. وبأداء مسرحي، رفعت رأسها وكأنها تتـابع طـائرًا يحلـق بجناحيـه فـي سقف الغرفـة، وأخـذت تحكـي بنبرة ناعسة:

- كان يا ما كان، قبل الزمان بزمان، كانت هناك إلهة للسماء تدعى "تمار"، وكانت لها سيطرة قوية على الأحوال الجوية. قامت "تمار" بأسر "أوليس فاركسكافلافي"، سيد الشتاء ونجم النهار، وكلما هرب من الأسر، انهمر الجليد. لكنها كانت تمسك به وتحبسه كل عام، حيث يسود الصيف والسلام. وقد كانت "تمار" عذراء أبدية، تمتطي في الهواء صهوة أفعى ذهبية.

اعتـدلت "أنسـتازيا" فـي وقفتهـا، وعـادت لطريقـة كلامهـا العاديـة، وقالت:

- هذه أسطورة من چورچيا، مسقط رأسي.

وكانت في الوقت نفسه تشير إلى نتيجة حائط، مكتوب عليها بالإنجليزيـة چورچيـا، ثـم بحـروف لغـة أخرى علـى شكل دوائر ومنحنيات من ورود وقلوب، تحيط بنسر في قلبه صورة الفارس "مـارجرجس"، وفـي يـده السيف، وتحت سنابك حصانه يتلوَّى التنين.

قالت "أنستازيا" أشياءَ عن أن النسيم الهادئ الذي يلف الباحة، يحمـل إليـها كـل مـا يـدور مـن الهمسات والحوارات، وأن لكنتها العربيـة تتكسَّر حـين تخـرج مـن فمـها هـي، لكنها تـدخل رأسـها وتستوعبها مثل لغة أم حين يتكلم بها الآخرون، وأنه ترامى إلى سمعها بعض من حوار "وديدة" معي في سكون الليلة الماضية، وأنها تفهم أنني جئت لزيارتها بناء على طلب "وديدة".

توهجت "أنستازيا" كالأسلاك المشعة التي اخترعتها، ويتغير لونها بتبدل نبضات الإنسان الذي تلفه حولها. وقالت:

- لا أحد سيصلح بطلًا لمشروعي الفني الجديد مثل "مأمون". هل رأيتِه وهو ينظر لطيوره مثلما يغازل الحبيب حبيبته؟ هل رأيتِه وهـو يمسـح فضـلات اليمـام وكأنـه يطلـى قطعـة مـن المـاس؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"مأمون" مدين لليمام بقدرته على الكلام. ظل حتى سن الرابعة لا ينطق إلا ما قل ولا يدل، فنصح الناس أمه أن تجعله يأكل اليمام، وحين فعلت نطق كل ما يحبسه من حروف وفيض مشاعر. ولما كبر، شعر بالامتنان الممتزج بتأنيب الضمير وكأن الهديل الحزين الذي يصدره الحمام لوم موجه له شخصيًّا، فصار يتعاطف مع كل الكائنات الأليفة التي لا حيلة لها ولا كلام. هذا الجانب الداكن الذي يخفيه "مأمون" هو ما يضيء روحه، ولا تفهمه أمه أو خطيبته، وهو تحديدًا الأساس الذي يقوم عليه مشروعي الفني، تأثير المكان والمعتقدات الشعبية والبؤر الخفية في تاريخ البشر على نبضات قلوبهم. سنضع غية للحمام الزاجل في بلكون "مأمون"، ونفعل مثل الأقدمين حين كانوا يعلقون الأخبار بقدم الحمامة في قارورة بالغة الخفة من الذهب الخالص، ونكتب وقت سفر الحمامة وموعد وصولها، وسيكون "مأمون" هو المسؤول عن فك الرسائل، ورصد ما يطرأ على الحمام عند العودة إلى موطنه في العش و...".

في الرسالة التي وصلت إليَّ من القس المدعو "أندراوس" دعوة لي كي أقابله في دير ما في چورچيا. وهناك سوف يُسلِّمني فردة قرط ذهبية، يعرف أنني أمتلك فردتها الأخرى، ولا تقدر قيمتها بكنوز الدنيا. وفي المقابل سيكون عليَّ أن أسلمه نسخة من كتاب مقدس، إنجيل قديم يرقد في سلام منذ مئات السنين في صندوق صغير محتضنًا فردة القرط الذهبية، التي تتوارثها عائلة "الشوافيلي". لم تتضمن الدعوة موعدًا ولا مكانًا للقاء. مجرد أمر بالطيران فورًا والهبوط في مطار "تبليسي"، ومنه على حد قوله، سيرشدني قلبي إلى الطريق.

رسالة كالمكاتبات السلطانية التي كان يحملها الحمام الأزرق، في عصور ألف ليلة وليلة، ولن يؤمن بها سوى طفلة تغمض عينيها وتغوص بعدها في نوم جميل، مثلما كنا نفعل أنا و"تُقى" بعد حواديت "أم إدريس".

ثلاثون دقيقة لم أقل فيها شيئًا لـ"أنستازيا" سوى اسمي، "تمار"، كما يكتبه "چيمي جدو"، وكما تقول الأسطورة التي حكتها هي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ قليل. نزلت إلى الغرفة، ثم صعدت ثانية إلى شقة "أنستازيا" وفي يدي اللاب توب الذي تضيء شاشته بالرسالة التي وصلتني من القس "أندراوس"، فربما تكون "أنستازيا" هي الوحيدة في هذا العالم التي تستطيع أن تفك تلك الرموز، وتجد صلة تربط بين صورة النسر الفارد جناحيه بأعلى الرسالة، وتتطابق مع النتيجة المعلقة على الحائط بالصالة لديها.

بعد شهر فقط من تلك الزيارة، بدأت "أنستازيا" في شحن أجهزتها إلى "تبليسي"، وإعداد حقائبها استعدادًا للرحيل، والعودة إلى شقة شارع "ديفيد آجماشينيبيلي"، بعد عشرة أعوام من الغياب. فقد تعافت "أنستازيا" وصارت قادرة على سماع النساء والأطفال وهم ينادون البنات باسم "نينو"، الأكثر شيوعًا في چورچيا، مثله مثل اسم "تمار".

خلال هذا الشهر، صرت أقضي المساءات بين صومعتي الصغيرة، وبين شقة "أنستازيا"، حيث نلت شرف دخول الغرفة الوردية التي تسميها قدس الأقداس. تلك الغرفة التي تمثل جزءًا داكنًا من روحها، لكنه يشع نبضًا شجيًّا ويفرز فنًا ينير أجزاءً أخرى، مثل نقشة الـ"بيي دو بوول"، التي تستمد سحرها من التضاد بين مربعات الأسود والأبيض، المتداخلة في بعضها بعضًا على شكل "قدم فرخة".

تبادلت "أنستازيا" رسائل مع مصممين وفنانين من بلدها، يشبهونها في الرغبة في الحفاظ على الإرث الشعبي الكارتفيللي، وسيرشحون لها عارضي أزياء سيكونون أبطال فيلمها القصير القادم في الحي القديم في "تبليسي". وقد أجَّلت تنفيذ مشروعها مع "مأمون"، فعاد لمزوالة نشاطه المعتاد في العمل كموديل لمصوري الشوارع، وإدارة الجراج، ورعاية الكلاب، والكلام مع اليمام.

ومثلما كُنتُ أزهو بنفسي وأنا صغيرة، حين كانت تعطيني "وديدة" الإبرة وبكرة الخيط لكي ألضمها لها، أو تجعلني أمسك بقطعة المغناطيس لألملم الدبابيس المتناثرة، نجحتُ في المهمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي كلفتني بها، وعدلت "أنستازيا" عن مشروعها مع "مأمون"، وصارت "وديدة" تنظر لي بإجلال كأنني شيخة مباركة من الأولياء الصالحين.

تفحَّصنا أنا و"أنستازيا" رسائل القس "أندراوس" مرارًا، مثل "صاحب الحمام"، الخبير بشئون الحمام الزاجل في العصر الفاطمي. أما النسر المرسوم على الرسالة، ويفرد جناحين ذهبيين، ويحمل في صدره قلبًا أحمر يضم قديسًا يقهر الشر، وقالت لي "أنستازيا" إنه شعار الكنيسة الأرثوذكسية في چورچيا، فقد ضاهيته بالنسر الذي كان يرفع فوق مواكب السلطان، والذي درسناه في العصر المملوكي، لكنني كُنتُ أشعر بأنه البراق الذي لاح لي في سماء "تبليسي" على هيئة سحب تتكاثف وتشكل حصانًا يطير، فتعلق قلبي بالإشارات.

وبعد أسبوعين من سفر "أنستازيا"، كُنتُ أجهز أنا أيضًا الحقائب استعدادًا للسفر. ليست حقائبي أنا، بل حقائب تيتة "نازلي"، التي أوصاني بها "چيمي جدو" خيرًا. أخرجت قطعة قطعة وقمت بتصويرها، ثم طويتها بعناية، ودسست النفتالين بين طياتها، ورصصتها كما كانت بجانب حوائط الغرفة التي صارت فقط لها ولصغيري "چاكيت"، الذي تركته في رعاية "مأمون". أما حقيبتي أنا، فكان أهم محتوياتها هو ذلك الصندوق الصغير الذي توارثته الأجيال، بفردة القرط التي تُرافق نسخة قديمة من الإنجيل.

أسند رأسي إلى زجاج نافذة الطائرة المتجهة إلى "تبليسي"، وأنا أرتدي تنُّورة ضيِّقة تليق بامرأة جريئة، منقوشة بمربَّعات كبيرة بالأبيض والأسود، تتداخل وتشتبك مع بعضها بعضًا على شكل أقدام الطيور، وتحدث وقعًا أليفًا في نفسي حين تنطق بالفرنسية "بيي دو بوول".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"تمارا"

للمجهول سحر غامض، وللمغامرة المأمونة نوعًا ما لذة خاصة. لكن أن تهبط الطائرة في الثالثة بعد منتصف الليل في مطار "تبليسي"، دون أن يكون أحد بانتظارك، ليبحث معك في الظلام عن عنوان شقة كتبته لك "أنستازيا" في ورقة صغيرة ثم اختفت، فهذا يجعلك تشعر أنك الضحية في لعبة المتاهة. ما يعمق إحساسي باللا يقين هو رؤيتي لأحد خيباتي، مجسدًا في شخص "سهر" وهي تسير أمامي إيابًا وذهابًا كمكوك نشط. تمرُّ "سهر" في الممر الضيق بين مقاعد الطائرة، وهي ترتدي يونيفورم "مصر للطيران" الكحلي، وتسأل الركاب بطريقة آلية: "كوفي؟"، ودون أن تسألني تصب لي كوبًا من القهوة المرَّة من الإبريق الذي تحمله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجغرافيا التي تألقتْ في شرحها ميس "عايدة"، والدتها. وربما صبَّت لي دون سؤال، تحاشيًا للإحراج إن تجاهلتها، فهي تعلم أنني لم أسامحها بعد على فعلتها السابقة في خيانة الجغرافيا، والتي قد أخبرتني قبل السفر بأيام أنها تنوي تكرارها مرَّةً ثانية بعد بضعة أشهر.

أكاد أجزم أن لا أحد ينافس "سهر" على سطح الأرض أو فوق السحاب في صنع المفاجآت لي. هي نفسها شريط أحمر ساتان يلف صندوق هدايا، ويعدك بفرحة كبرى أيًّا كان ما بداخل الصندوق. لم أتوقع أن تقطع "سهر" إجازتها وتجازف بشهور حملها المتبقية، وأن تطير في هذه الرحلة الطويلة، لمُجرَّد أن ترى بريق عينيَّ وتسمع صرخة السعادة التي يطلقها قلبي كلما أخرجت لي مفاجأة من جرابها. حتى ولو كانت قد أدمنت على التفرج عليَّ في تلك اللحظات الفريدة، فقد نالت هذه المتعة في رحلات عدة سابقة. فلطالما وجدتها تجلس بجانبي كراكبة أجنبية، ثم تخلع باروكتها الشقراء وننخرط في نوبة ضحك، أو أجدها تسألني في تأدب وهي ترتدي اليونيفورم الذي تكرهه إن كُنتُ أريد لحمًا أم دجاجًا مع الوجبة، بينما أكون قد تركتها قبل الرحلة بساعات طريحة فراش المرض في بيتها. لا أستبعد أن تكون "سهر" قد أعدت مفاجأة أخرى، بالإضافة إلى كونها المُضيفة على تلك الرحلة، كأن تجعل أحد أصدقائها يمثل أنه إرهابي ويجعل الطيار يغير مساره إلى چورچيا أمريكا مثلًا لتضع طفلها. فقد جازفَتْ ذات رحلة سابقة لي بأمرين، أن تركَتْ زوجها في حالة يرثى لها، لتفاجئني بكعكة عيد ميلادي، الذي تصادف تاريخه وأنا معلَّقة بين قارَّتين، والأمر الآخر أنها خالفت قوانين الطيران وأشعلت كبريتًا لتضيء لي شمعة في الكعكة، مما كان يمكن أن يتسبَّب إما في فصلها أو إشعال الطائرة.

الصرخة الأولى التي أطلقتُها في وجه "سهر" وجعلتها تضحك ملء قلبها كطفلة نجحت في خداع الكبار، كانت حين وقعت عيني عليها وهي تنتقي ثوبًا من المَلس الفلاحي في محل "ضيا". لم أصدق عينيَّ في البداية حين رأيت وجهها في وضع جانبي،

ولما استدارت وصارت في مواجهتي، صحت في فرحة:

- ميس "عايدة"!!!!

لم يكن منطقيًا أن تظل ميس "عايدة" على حالها لثلاثين عامًا، لكن استنساخها في صورة ابنتها "سهر" كانت هي الحقيقة التي لم أستوعبها للوهلة الأولى. هي نفسها بشعرها النبيذي القصير، وبشرتها السمراء وملامحها الدقيقة وطولها الفارع.

أول ما أحبت أقلامي الرصاص الملونة الورقة في رسم إسكتشات الملابس، كانت في حصص التاريخ والجغرافيا، وكانت ميس "عايدة" هي الموديل والأيقونة التي أنقل ما ترتديه باللون والمنحنيات والكُلفة والإحساس بملمس الأقمشة بعد كل حصة، حتى صارت لي كرّاسة أشبه بمجلة "البوردا"، تحوي فقط مجموعة الخريف والشتاء والربيع من ملابس ميس "عايدة"؛ الفصول الثلاثة التي تقع في العام الدراسي. إلى أن كان اليوم الذي استطاعت فيه ميس "عايدة" أن تصرفنا عما ترتديه لننتبه إلى ما تقوله في بداية العام التالي، حين لاحظَتْ تشتت انتباه البنات في حصة التاريخ. قالت لنا إننا لا نهتم بالتاريخ لأننا نظن أن أبطاله أناس لا يخصوننا، وإنها لن تكرر الكليشيهات التي تقول إن التاريخ يعيد نفسه، وإن الإنسان حيوان ذو تاريخ، وإننا ندرسه لكي نستقي العبر من أحداث الماضي. فاجأتنا بأنها ستعفينا من الاختبار الشهري، في مقابل أن نعرف تاريخ بلدنا من خلال أسماء الشوارع التي نسكنها. لم يتعرف أي منا إلى الشخص الذي ظل يعيش طوال حياته في شارع يردد اسمه. سألنا أولياء أمورنا مثلما أرشدتنا، ولكنهم لم يعرفوا أيضًا. بدأنا البحث، وجاءت كل واحدة بالسيرة الذاتية أو بالحدث والحكاية التي يحملها اسم شارعها، وقمنا بترتيبها زمنيًا، حتى أتينا بملخص لتاريخ مصر، نتعاطاه يوميًا سيرًا على الأقدام ليشهد أجزاء حبيبة أو حزينة من تاريخنا الشخصي. أعجبتنا اللعبة في الترم الأول، وفي الترم الثاني كان قد اشتدَّ غِلُّ المدرسين بسبب عدم الإقبال على الدروس الخصوصية، وتأفُّف الأهل وحيرتهم من تفكير بناتهم خارج المنهج المُعلَّب، وعدم وجود اختبارات شهرية

32%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

تُستَّف درجات أعمال السنة. تلقَّت ميس "عايدة" شكوى ما، اختفت على أثرها من المدرسة، لكن لم يفارقني الاختيال بلعبة معرفة حكايات الشوارع التي كُنتُ أمارسها على الناس، وأخيف بها "تُقى" من كلمة "الدرب الأحمر" و"باب زويلة"، كما تيَّقنت من قُوَّة تأثير تلك الأسماء على مصائرنا والتي نرددها كالببغاوات دون أن نعرف أصلها. فقد كان "جمال الدين أبو المحاسن" اسمًا طويلًا مُعقَّدًا قبل ميس "عايدة" كُنتُ أتمنى أن يحمل شارعنا بدلًا منه اسم "الزهور"، أو "الحرية"، أو "النزهة"، وكفى، لكنني بعد ميس "عايدة" صرت أقول اسمه كاملًا، كطفلة تفتخر بتسميع اسم جدِّها، وجدِّ جدِّها "جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي". كما تيَّقنت أنه لم يكن اسمًا لشارع فقط، بل تعويذة هيمنت على حياتي. فحين وقفت في الفصل وقلت مثل مرشدة سياحية إن "ابن تغري بردي" أظهر ولعًا بالتاريخ منذ أن سمع كتب المؤرخ "العيني" تُقرأ في حضرة السلطان، وكان تلميذًا للمؤرخ "المقريزي"، لم أكن أعرف أن دفة الأحداث ستوجهني إلى قسم التاريخ بكلية الآداب، وأن كتبًا كـ"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، أو "البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر" ستتراص جنبًا إلى جنب في غرفتي مع مجلدات "البوردا"، و"فوج"، و"إيل ماجازين". والأعجب أن أباه كان مملوكًا رومي الأصل، ومن أم كانت هي الأخرى أمة من إماء السلطان، وها أنا الآن أمتطي سحابة جنبًا إلى جنب مع ابنة ميس "عايدة"، لتحملنا إلى چورچيا، أرض المماليك.

فرحة اللقاء بابنة ميس "عايدة" بعد كل تلك السنين، والانبهار بالتشابه بينها وبين والدتها، سرعان ما تحوَّلا إلى حزن عميق واغتياظ من ميس "عايدة" ذاتها، حين سألتُ "سهر" بلهفة:

- وإزاي ميس "عايدة"؟

فأجابت بتلقائية:

- اتوفِّت من ستة شهور.

تمسكَت ميس "عايدة" بأن تظل تاريخًا وانصرفَتْ قبل أن تشهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه اللحظة، واللحظات الكثيرة التي ستجمعني بـ"سهر"، وأن تسمح لي بأن أقف أمامها في زهو وأنا أحكي لها أنني صرت "باترون" لها، ولـ"جمال الدين أبو المحاسن" حين عشقت التاريخ والتهمت حواديته في الكلية نفسها التي تخرجَتْ هي فيها. ألم تستطع ميس "عايدة" أن تتشبث بالحاضر لستة أشهر إضافية؟ وددت لو جلبت روح "أم إدريس" من سمائها لأسألها هل ترانا ميس "عايدة"؟ هل تعرف أنني سأصبح أمًا وراعية لابنتها؟

لم يكن ما جذبني لـ"سهر" هو التشابه بينها وبين أمها فقط، فقد كُنتُ أنظر في إعجاب للملس الأصفر الذي كانت تُقلب فيه في محل "ضيا"، وكنت أتمنى سرًّا ألا تشتريه حتى يصير لي، فقد أعجبني أولًا. وددت لو كلمت هذه الزبونة وسألتها ما الذي يجذبها في الأزياء الفلاحي والبدوي والصعيدي التي يصنعها "ضيا" بشكل عصري ويبيعها كقطع فريدة في دكانه الصغير بشارع الأزهر. كُنتُ في هذه الفترة أتبنى حملة التمسك بالأزياء التقليدية، وأفرد لها مواضيع في مجلة "منمنمات" التي أشرف على قسم الموضة فيها. شعرت أن "سهر" التي كانت ترتدي سترة واسعة ممسوكة بحزام من الفضة، ويتوافق مع كردانها اليمني، وقرطها البدوي، لم تكن تُقلب في المعروضات كمشترية عادية، بل كعاشقة للكشكشات والألوان الزاهية والحليات الذهبية والفضية. ففي حواراتي مع الفتيات والنساء اللاتي يُدخلن بعض الخطوط الشعبية في أزيائهن، أدهشتني الإجابات الصادمة التي لا تنم عن قناعة أو حب للأزياء الشرقية. فمنهن مَن قلن إنهن يلهثن وراء الاختلاف والتقاليع، ومنهن مَن يقلدن إحدى الممثلات، ومنهن مَن يرتدينها في بعض المناسبات فقط لأنها تبدو غالية.

ليس من السهل الوصول أو حتى معرفة محل "ضيا" إلا لصاحبات المزاج الرائق والشغف. مَن يتجولن في الأزقة التاريخية الضيقة، بحثًا عن ثوب فريد أو قطعة حُلي متميزة. وحين يقعن على هذا الكنز المسمى بدكان "ضيا" ويقتنين فستانًا من قماش الملس الفلاحي أو بلوزة من التلي الصعيدي أو برقعًا مشغولًا بالحليات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النحاسية القديمة، تكون المكافأة الكبرى حين يذهبن إلى بيوتهن ليجربنه، فيتلامس وبشرتهن أو يستنشقن عبقه الذي التقطه من أرجاء الدكان. بخور مُعتَّق به سُكَّر معقود يلعب بالرأس كأنه خمر مُسكر، ممتزجًا ببقايا دخان سيجارة "ضيا"، تضيف بُعدًا ذكوريًّا للرائحة الصوفية، ويجلب ذكرى زيارة هذه المغارة الصغيرة، المكدسة بالأثواب المعلقة فوق بعضها بعضًا على الحوائط، والعملات القديمة المستَّفة في براويز، والأباريق الفخارية، التي تتزاحم وكرادين الفضة البدوية، حتى إن "ضيا" يترك هذا الخندق الضيق البهيج لزبوناته ليجربن كما يحلو لهن، ثم يعود ويشرب معهن شايًا بالقرنفل والنعناع الأخضر، على أنغام موسيقى هادئة أو أغنية لـ"فيروز"، احتفالًا بشراء الزبونة لقطعة وضع فيها من روحه ورائحته وفنه، كعهد لبداية صداقة جديدة تربطه دائمًا بزبوناته. العجيب أن "ضيا" يقبِّل المبلغ القليل الذي يقبضه ويضعه على جبينه، مثله مثل أي بائع متجول بسيط، فهو يعرف أن خاماته ليست غالية، ولا يعمل كمحترف، بل كهاوٍ على باب الله. وهذا هو ما أتى بـ"سهر"، وبزبونات أخريات، يشترين بضاعته بقروش قليلة، ويعرضنها في المتاجر الفاخرة، أو على صفحاتهن الإلكترونية، ويبعنها بخمسة أضعاف سعرها، لزبونات يدفعن في سعادة، لأنهن لا يعبرن أبدًا من أمام محل "ضيا"، ولو فعلن يكُنَّ في سياراتهن مشغولات بتليفوناتهن أو أجهزتهن الذكية، التي توقعهن في شَرَك الصفحات التي تثري صاحباتها على حساب "ضيا".

لم يكن "ضيا" جارًا تقليديًّا في الطفولة، فلقد كان الباب في الباب كما يقال، لكنني أنا وهو كنا في عداد الزوَّار دائمًا. أنا أزور جَدَّتي "زكية" و"تُقى"، و"ضيا" يزور والدته التي تزوجت بعدما مات أبوه، ويعيش عند عمِّه. كان "ضيا" يُبهر الأطفال والكبار ببياضه الشاهق، وعينيه الخضراوين الواسعتين، وشعره الذهبي. أما أنا فكنت أنتظره على أحر من الجمر ليبهرني بحكاياته التي تجعل للمرور في الأزقَّة ومشاهدة الأضرحة الصغيرة وحوانيت الخيامية مذاقًا يفوق روعة التفرج على موديلات "شانيل"، و"كريستيان ديور"، وصور عروض الأزياء على ضفاف "التايمز".

33%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما كان يستقبله الكبار من الرجال والشيوخ من سكان شارع "أبو حريبة" كولي عهد. فجد جد "ضيا" هو نفسه الشيخ "أبو حريبة"، الـذي أطلـق اسمه مجـازًا علـى مسـجد "قجمـاس الإسـحاقي"، المجاور لبيت تيتة "زكية". حكى لنا "ضيا" أن الناس يقولون إن الأمير المملوكي "قجماس الإسحاقي" هو الذي أمر بدفن جده في الجامع، لكن الحقيقة إن جثة جده هي التي أجبرت مَن يحملونها علـى أن تـدفن بالمسـجد. رفـض الجثمـان أن يـتزحزح من أمام المسجد، وكأن أرجل المُشيِّعين لا تسعفهم إلا على الدخول ودفن الرجل الصالح في هذا المكان، فصار له ضريح ومقام. كما قال لي "ضيا" إن الكرامات ظلَّت تتوارثها الأجيال بسبب سيف مكتوب عليه آيات قرآنية، وعلى المتوفى أن يلمسه قبيل وفاته حتى تنتقـل الكرامـة للجيـل الـذي يليـه، لكن أباه لم يلمسه، فاختفى السيف من على حائط بيتهم، وصاروا أناسًا عاديين تنالهم الهزائم ويخافون من الغيب ويخشون الأشباح.

بقدر ما كانت تملؤني تلك الحدوتة بالإثارة، وأطلب من "ضيا" أن يعيدها عليَّ كلما رأيته، بقدر ما كانت ترعب "تُقى"، فكنا نتلذذ بوضع إضافات مخيفة مثل وصف الجثة، وعمل مؤثرات صوتية لصليل السيف، وترتيل الآيات بطريقة تدخل الرهبة إلى نفسها، الأمر الذي جعلها تعود قبل حلول الليل دائمًا إلى البيت، حتى شهد بأدبها والتزامها كل مَن يعرفونها.

وحـين كبرنا قليلًا واعتدت الحدوتة، أخرج لي "ضيا" خمسين جنيهًا من جيبه، وقال لي:

- غمِّضي عينيكي وافتحيها بعد دقيقتين، هتلاقي نفسك جوه الجامع اللي مرسوم ع الخمسين جنيه دي.

وبعد دقائق ثلاثة بالتمام، صعدنا سلالم كثيرة، لأفتح عينيَّ على صحن مسجد يعج بالرخام الملون والحليات الخشبية والنحاس المزخرف، هو نفسه مسجد "أبو حريبة" الملتصق ببيتنا ولم نلحظ أبدًا أنه هو المرسوم على "الخمسين جنيه" الورقية. وحين فتحت ميس "عايـدة" أعيننـا فـي الصـف الثـالث الإعـدادي على سحر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشوارع، كُنتُ من أول المتحمسات؛ لأن "ضيا" كان قد سبقها إلى ذلك بأعوام. وكما اختفت ميس "عايدة"، تلاشى "ضيا". قيل ماتت أمه، وقيل طرده عمه، وقيل ترك التعليم، وقيل سافر لأخيه الأكبر، لكنني كُنتُ قد دخلت في المرحلة التي تدور فيها الفتيات في أفلاك أنفسهن، ولا تعنين بالسؤال عن معلمة تركت المدرسة أو جار اختفى. أما فلكي الخاص الذي فنيت فيه في تلك الفترة، فقد كان "فادي أباظة".

مرَّت "سهر" مرَّة أخرى من الممر الذي يفصل بين صفي المقاعد في الطائرة لتتأكد من ربط الركاب للأحزمة، فسوف نهبط بعد قليل في مطار "أتاتورك" بإسطنبول، لنمكث ساعات سبعًا "ترانزيت" حتى تحملنا طيارة أخرى إلى "تبليسي".

حين أتتني "سهر" حائرة لا تدري إن كانت تمضي في طريقها نحو التقديم للعمل مُضيفة طيران، وفضَّها الشراكة التي نشأت بيني وبينها وبين "ضيا"، ظننتُها مولعة مثلي بالجغرافيا التي أوقعتني في حبها ميس "عايدة" والدتها. فلنافذة الطائرة التي أركن عليها رأسي دائمًا سحر أشد من حواديت البراق، ومن خلاله لخصتُ روح الجغرافيا. فالجغرافيا ليست فقط عدد حقول الفوسفات والمنجنيز في بلاد نجهلها. الجغرافيا هي تلك النافذة المطلة على نتوءات جبلية كنهود النساء، أو كمنحنيات أجساد عارضات الأزياء الممتلئات في ثياب محبوكة من اللون الأخضر والرمادي والبني، وبحيرات تستلقي بينهن، مثل امرأة لعوب ترتدي زيًّا فضيًّا، تتمدد في فراش حبيب، وتنثر على جسدها حبات من الماس، كلما اقتربت منه وجدته كنصل سكين لامع، ثم يتحوَّل إلى سراب في صحارى، ويصير كالإنسان عدمًا. الجغرافيا سُحُب من أبخرة تتراكم في الأعالي، فتصنع تنوارت قطنية محشوة بغزل البنات الأبيض، أو أرواحًا نورانية تهيم سيرًا في ملكوت السماء. وحين تحزن تبكي نقاط المطر، وحين تغضب تزأر رعدًا، نتلو معه الدعوات فتُستجاب. الجغرافيا زمن عميق وعريض جدًّا يتلخص في فصول أربعة، هي نفسها مواسم الموضة.

وكما تعقد دائمًا "سهر" الفيونكة الكبيرة التي تزين هداياها لي،

229 دقيقة متبقية من الفصل 34%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفكُّها بالسهولة نفسها. فقد صدمتني ذات حوار بعد أن تسلمت عملها مُضيفة طيران أنها لا تقرب تلك النافذة، ولا يمثل الارتحال بين السحاب لها سوى عبور هذا الممر الرفيع لتسأل فيه الركاب إن كانوا يرغبون في لحم أو دجاج، وتحرص على أن تتبسم في وجوههم علها تحصل على ثواب صدقة التبسم في وجه أخيك، بالإضافة إلى ما تُستِّفه آخر كل شهر من أموال تضمن لها ملاذًا آمنًا ومهربًا في أي بلد بعيد.

تمنَّيتُ أن تواصل "سهر" معي رحلة بدأناها معًا منذ أعوام طويلة، وأن يكون ما أخبرتني به بأننا سنفترق في مطار "أتاتورك" بتركيا ليس إلا خدعة من لعباتها، تفاجئني بعدها بأنها سترافقني طوال الشهر الذي سأقيمه في "تبليسي"، أو على الأقل تكون قد رتَّبت مع حماتها أن تتولى رعاية ابنها الصغير "آدم" ولو لأسبوعين.

في مطار "أتاتورك" لنا معًا ذكريات بهيجة، فلطالما التهمنا العشرات من قطع الملبن الغارق في السكر، والمعروض بنكهات القرفة والحبهان المحشوة بالفستق واللوز، وكأننا ربَّتا منزل ندعو بعضنا بعضًا إلى حفل عشاء وننصرف ضاحكتين بعد أن نشبع، دون أن نبتاع أيًّا منها. وكم اشترينا نسخًا طبق الأصل من أعين زرقاء من زجاج مسقى بماء الذهب، وجواهر من الفضة المُطعَّمة بالزُّمرُّد والياقوت، ولا نكفُّ عن الشراء إلا لنترك ما يكفي لمزيد من التسوق في السوق القديم بإسطنبول. وما كدت أسحبها من يدها لكي نعيد إنتاج البهجة واستعادة الذكريات حتى وجدته أمامي، يقبلني من الخدين بكل مودة. "راشد" زوجها بطوله وعرضه، والذي أسميه في قرارة نفسي بـ"المريب". قبَّلتني "سهر" هي الأخرى، وودَّعتني وانصرفت مع المريب في رحلة سريعة إلى "أناطوليا" على الشواطئ التركية، قبل أن تنخرط مرَّة أخرى في شقاوة "آدم" ذي السنوات الثلاث، والجنين المجهول الذي تحمله في أحشائها، وتنتظر فصل الشتاء، حتى تداري بطنها بطيات الثياب الثقيلة، وتذهب به خلسة إلى أميركا، كما تتسلَّل النساء الحوامل لوضع مواليدهن ليحصلن لهم على الجنسية. هكذا خانت "سهر" كل من الجغرافيا والتاريخ دفعة واحدة حين فعلت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك مع طفلها الأول "آدم"، كمهاجر غير شرعي بلا وطن، أو كلاجئ يهرع إلى اللص ليحميه من صاحب الحق. حتى الاسم الذي اختارته له لم يكن تمجيدًا للأب الشرعي للبشرية، بل ليناسب لسان وذائقة المعتدي الأشرس على معظم شعوب البشرية، فـ"سهر" تعيش رحلة بحث لا تنتهي عن الأفضل، حتى وإن كان الأفضل في السوء.

المرَّة الأولى التي وقعت عينانا فيها معًا على المُريب كانت ليلة سماع صوفي في المسرح المكشوف بالأوبرا، حيث أسبق "سهر"، و"ضيا"؛ لنحجز مقاعد ثلاثة في الصف الأول، وعادة ما يكون سبب تأخر "سهر" هو البحث عن عنقودين من الفل والياسمين لنرتديهما أثناء الانتشاء بالسماع، فنعلو مع المقامات نغمًا وعطرًا. وما إن أعلن المنشد أنه سيغني قصيدة "قل للمليحة في الخمار الأسود"، وأطال في المقدمة بالليالي، وضع "ضيا" رأسه في رأسينا، وهمس لنا:

- عارفين إن القصيدة دي اتكتبت من 1300 سنة عشان واحد بيَّاع جلاليب زيِّ حالاتي؟

فهمسنا أنا و"سهر" في نفس واحد:

- يا سلاااام؟!

فأكمل هامسًا:

- الشاعر اللي ألَّفها كان راجل زاهد في "المدينة المنورة". وجِهْ تاجر بيبيع خمار من العراق، فباع كل الألوان إلا الأسود كان بضاعة بايرة. قام رايح للشاعر قاله ساعدني، راح خابط له قصيدة قل للمليحة في الخمار الأسود، ماذا فعلت بناسك متعبد، قد كان شمَّر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد. قامت الناس افتكرت بجد إن الراجل المتدين أما شاف الست واقفاله على باب الجامع بالخمار الأسود، وقع في غرامها وسابه من التنسُّك والتَّعبُّد. بس.. راحت كل الستات هات يا شِرَا في الخمار الأسود لحد ما التاجر خلَّص البضاعة، ورجع الناسك قعد في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجامع، بعد ما عمل الـ"جيست" التسويقي ده مع صاحبه، زي ما "تمارا" مظبَّطاني كده في مجلة "منمنمات"!

وضعنا كفوفنا على أفواهنا لنكتم الضحك، لكن المريب كان يجلس في المقعد الذي خلفنا مباشرة، وبمنتهى الحدَّة والصوت المرتفع، صاح في "ضيا":

- إحنا مش جايين الحفلة عشان نسمع قصة حياتك.

فرفع له "ضيا" يده معتذرًا في أدب، لكنني كرهت "راشد"، ولو أن كان معه بعض الحق، وصرت أفتش عنه بعد ذلك في كل حفل سماع، وهي إحدى عاداتي السخيفة في التلذذ بغيظ نفسي. وحين كُنتُ أراه، أتذكر الواقعة القديمة وتفور دمائي كالمرة الأولى تمامًا. كُنتُ أشعر وكأنه مخبر سري، جاء ليتحرى عن مجرم ما، فكان يأتي دائمًا بمفرده، سواء في محكى القلعة أو في قبة الغوري أو في قصر "الأمير طاز"، وعادة ما تحب هذه السهرات اللمَّة حتى إذا انتشى المستمع وكان في صحبة، لا يبدو كالأبله أو المجذوب. أو هكذا كُنتُ أفضل أن أذهب برفقة "ضيا"، و"سهر"، التي بدأت تكوِّن مشاعر إعجاب مُراهقة بـ"ضيا"، الذي لا يناسبها عمريًّا ولا اجتماعيًّا، وتتنحَّى جانبًا كطفل غاضب كلما أطال "ضيا" الحديث معي أو النظر لي. وكما أعجبني الملس الأصفر الذي كانت تمسكه "سهر" وتركتُه لها، تنازلتُ لها في أريحية عن مقعدي المجاور لـ"ضيا" في الأمسيات وليالي السماع، وكنت في ذلك الوقت أجهز للسفر إلى لندن لعمل دبلومة تصميم الأزياء.

ومثلما وجدت المريب ماثلًا أمامي الآن في مطار "أتاتورك"، كُنتُ قد فوجئت بذراعه مشبوكًا في ذراع "سهر" حين جاءت لاستقبالي في مطار القاهرة بباقة ورد كبيرة وأنا عائدة من لندن. كان عريسًا لا بأس به بالمقاييس التقليدية، وقالت إنها ترتاح له ويجمعهما حب الطرب والسماع، كما همست لي إنها عقدَتْ هدنة بينه وبين "ضيا". أظهر المريب ترحابًا يبدو نابعًا من القلب تجاهي، الأمر الذي جعلني أؤمن بأن لا شيء يسمى "القلوب عند

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعضها"، فكم من أناس يكنُّون المودة لآخرين لا يطيقونهم، لكن "سهر" كانت تستحق أن أتحامل على نفسي في الأوقات القليلة التي ينضم إلينا فيها "راشد" زوجها، فقد كان يغادر في مهام عمل كثيرة إلى الخارج، وكانت هي لا تستفيض في الحديث عنه معي لأنها تشعر بما أحمله له من ضغينة، لكن تلك الضغينة لم تتمكن من أن تطمس الهدية الملفوفة بفيونكة بهيجة، والتي قدمها لي التاريخ وبداخلها "سهر" بالملس الأصفر الزاهي، حين وقعت عليها عيناي للمرَّة الأولى في دكان"ضيا"، فلونت لي الحاضر في ذاك الوقت الذي كانت تغيِّم عليه غلالة رمادية بسبب خروجي ذاهلة من فترة زواج قصيرة من "محمد الخيامي".

ارتفع النداء في ميكروفون مطار "أتاتورك"، راجيًا من الركاب أن يتجهوا إلى الطائرة المتجهة إلى "تبليسي"، وقبل أن أهرع إلى بوَّابة الركوب، التقطتُ درويشًا خزفيًّا من البازار كتذكار لـ"سهر"، فالعجيب أننا نتوقف أمامه دائمًا ولا نشتريه في اللحظة الأخيرة، مع أنه حين يدور بتنورته البيضاء ذات الثنيات المتعددة، واضعًا يدًا على قلبه ورافعًا الأخرى إلى السماء، يشبه تمامًا اللقطات الحُلم التي كانت تجمعنا أنا، وهي، و"ضيا".

"تمارا"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"الماضي حصن مَن لا حاضر له ولا مستقبل"، مقولة كانت ترددها ميس "عايدة" ولا تنطبق عليَّ الآن. مالي أتشبَّث بالذكريات ولا أتدبَّر أمر حاضري ومستقبلي القريب جدًّا. أمامي ساعة واحدة من التحليق والهبوط في مطار "تبليسي"، فلا وقت للتغنِّي بمحاسن الجغرافيا، أو للتسلِّي بكراستي لأثبت أنني فنانة ماهرة في رسم الإسكتشات، لمُجرَّد أن أمحو ذكرى كلمات أصحاب دور تصميم الأزياء، وآخرهم ذلك الكريه الذي قال لي بأسلوب فج:

- أنا عايز حتَّة بيَّاعة.

وحين لاحظ علامات اليأس على وجهي، أخذ يشرح لي أن هناك فرقًا بين أن أكون رسامة جيدة ومصممة جيدة. وحين نقول "حتة بياعة" لا نعني إسكتش مرسومًا؛ لأن هذه صناعة تنتج ملابس وليس إسكتشات، وأنه كان يتحتم عليَّ كمصممة أن أدرس السوق، وأن أعرف ماذا يريد المستهلك، وأن أكون مُلمة بمراحل تنفيذ هذه القطعة لتوجيه العمال وإدارتهم، و... و...

ما أعرفه أنا أنه على المرأة أن تمتلك ذوقها الخاص، وأن تنتقي ما يروق لمزاجها وتستجيب للألوان التي يحتاج إليها جسدها في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم، ويحق لها أن تغيرها لأنها لا تناسب مزاج وإحساس اليوم التالي. لذا صرفت النظر تمامًا عن فكرة العمل كمصممة أزياء تحاول إرضاء الجميع وكأنهم شخص واحد، مثلما كان يعشق "چيمي جدو" الأتيليه، ويكره المحل مع أنه يُدرُّ دخلًا أكبر، لكنني مضطرة الآن إلى دراسة ما سيأتي، وليس الاتكاء على رحلة كانت كالحلم، حين جئت إلى هذا البلد لحضور عرض أزياء وأقمت في فندق خمس نجوم، وأنا أصنف نفسي كمصممة أزياء لا تقل عظمة عن "كوكو شانيل"، أو "كارولينا هيريرا". عليَّ أن أواجه الواقع بأنني الآن كائن هش معلق بين زمنين، امرأة بلا عمل وبلا أسرة وبلا إرث حقيقي، ولا أمتلك سوى قطعة من الورق بها عنوان شقة أخت "أنستازيا" في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" الذي يحتفون به لأنه قضى على السلاجقة المسلمين، وإيميل من قس مجهول يعدني بكنز إن أتيت له بنسخة الإنجيل القديم، وفردة القرط المتكسرة التي كانت في حوزة "چيمي جدو". ماذا لو لم يكن قسًّا، وكان أحد رجال المافيا الروس الذين ظلوا يسيطرون على كنوز البلاد وعرفوا بطرقهم الخاصَّة أنني أمتلك تلك القطع الأثرية، وفاجؤوني عند باب المطار بغطاء رأس وغمامة عين من القماش الأسود ورصاصة مخدرة، يحصلون بعدها على القرط والإنجيل وجواز سفري، ثم يلقونني في الطريق كغريبة معتوهة أو كجثة لم يستدل على أصلها، وأنال نصيبًا من اسم الملكة "تمارا" العظيمة التي لا يعرف أحد مكان جثمانها، أو "ثامار" أخت "عمنون" التي ظلَّت تُعاني لأنهم رموها ظلمًا بتهمة الزنى؟ ماذا لو كان هذا القس تابعًا لطائفة من المتشددين الأورثوذوكس كالذين اتصلوا بأصدقاء "شادي" المسيحيين منذ بضعة أعوام، وأقنعوهم بأنهم سيوفرون لهم حق اللجوء إن تولى الإسلاميون الحكم في مصر. سأعتمد على أن لا شيء في مظهري ولا في تاريخي العائلي يوحي بأنني ممن يعادون أي ملة مغايرة. حتى الخوذة الفضية ذات الحليات الحمراء والزرقاء التي اقتنيتها من تاجر أنتيكات من "تركمانستان"، وكان شيوخ المساجد هناك يخبئونها في السراديب السرية التي يحفِّظون الأطفال فيها القرآن، وقت الاحتلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروسي، ويهدونها لمَن يحفظه كاملًا، وكنت أتفاخر باقتنائها وبمعرفتي بتلك الحدوتة، حتى تلك الخوذة أعطيتها لـ"ضيا" لكي يعرضها في دكانه، بعد مأزق رحيل "چيمي جدو"، لكنها لم تُبع وآلت الخوذة والحدوتة إلى "ضيا" وزبوناته.

أخذت أتلفت حولي وكأنني لص هارب من عصابة تطارده، فلمحت ما يطمئنني بعض الشيء، ففي المقاعد الأربعة على الجانب الآخر، يجلس رجلان عجوزان يتسامران، لهما الهيئة نفسها، الجلباب واللحية المبالغ في طولها، ومعهما زوجاتهما، اللتان تستطيع عن طريق أزيائهما فقط أن تميز أن أحد الرجلين مسيحي، والآخر مسلم. تعالى الصخب وبعض الموسيقى وكأننا في ميكروباص بمنطقة شعبية، وليس في طائرة من تركيا إلى چورچيا. الأطفال يجرون بحرية في ممر الطائرة، والشباب يفرجون بعضهم بعضًا صورًا على تليفوناتهم المحمولة ويضحكون مستعيدين ذكريات رحلتهم إلى تركيا. لا ينقصنا هنا سوى أن يقول المضيف "نفر نفر نفر.. عتبة عتبة عتبة".

لا أفهم حرفًا مما يقال، ربما يتحدثون بالتركية أو الجورجية أو الروسية، لكن المهم أنني لا أبدو كغريبة وسط أشكال الوجوه، فبعض الوجوه خمرية وبعضها قمحي، وبعض الأعين سوداء وبعضها بني وبعضها عسلي، وبينما أحاول أن أحصي العدد القليل من الشقراوات، ثقل رأسي واستند إلى زجاج النافذة، ورأيتُ حلمًا.

لم تكن بالرؤية التي زارتني في غفوتي أي صور، بل صوت يقول لي:

- وقد تكونين حفيدة الملكة المقدسة والأم الروحية لچورچيا، الملكة "تمار" ابنة الملك "ديفيد" العظيم، الذي أعدها منذ نعومة أظفارها لخلافته مثل "چيمي جدو"، وعاشت چورچيا في عهدها أزهى عصورها.. المدن، والكنائس، والأسواق.. هزمت السلاجقة والبيزنطيين.. قضت على المتآمرين من النبلاء.. الملاحم، والشعر الرومانسي.. القرن الثاني عشر.. العصر الذهبي.. أسطورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"جيسون"، والصوف الذهبي.. فردة القرط الذهبية التي تقبع في علبة حريرية في حقيبتي.. والإنجيل القديم الذي ينام منذ عشرات السنين بجوارها...

تبدَّل الحلم ليصير صوتًا وصورة عشتهما بالفعل منذ سنوات، هنا في "تبليسي"، بساط أحمر طويل، تمرُّ عليه عارضات فارعات وتُسمع مع خطواتهن فلاشات الكاميرات، وصوت نسائي من افتتاح أسبوع الموضة يتردد صداه في ميكروفون بقاعة كبرى في فندق "هوليداي إن"، تقول في كلمة افتتاحية إن زيارة چورچيا كتنسُّم الهواء الطازج. وإن البلد قد كسرت أغلاله وتحرَّر من الاحتلال السوفيتي، مثلما فعل كثيرًا في الماضي، حين هزم المغول والفرس والأتراك، فنحن في بلد يهوى إعادة إنتاج نفسه. فـ"تبليسي" عامرة بالفنادق والمقاهي والمحال الفاخرة، التي تجاور في سلاسة القلاع الحجرية والكنائس الأثرية وبعض البنايات التي تداعت من جراء الحروب، ويظهر هذا التجدد الدائم في تصاميم الأزياء التي ستجعل من "تبليسي" عاصمة للموضة في أوروبا الشرقية. ثم أرى فيما يرى النائم عرضًا لمصمم شاب يشرح كيف لعب تاريخ بلده دورًا في تصميمات مجموعته، تأثرًا بتبعات الحرب الأهلية في التسعينيات، أكمام مبالغ في طولها وسراويل واسعة، قمصان سوداء عليها مسدسات ومدافع رشاشة، حتى الديكور كان متأثرًا بالصخب السياسي، أضواء حمراء ومؤثرات صوتية كالانفجارات...

ترتطم عجلات الطائرة بالأرض، وأصحو على جملة في حلم "هناك أناس إما أن يعبدوا أو يموتوا" أعقبتها عدة خبطات وتصفيق حاد وصفارات الركاب. كيف غفوت وتمكنت من استعادة ذكريات "تبليسي" وسط هذه الجلبة؟ لو كان الأمر بيدي لاصطفيت الحكاية الأصلية للمدينة مثل طفل يطلب من أمه أن تعيد عليه الحدوتة التي يحفظها عن ظهر قلب، ولتسلَّيتُ بأن أجعل "تُقى" تنصت لي جيدًا وأنا أرى مشاعر الدهشة والخوف الساذج على وجهها وأنا أحكي لها حكاية الملك "فاختانج چورچاسالي" الذي كان يرتدي خوذة على شكل رأس ذئب، وذات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يـوم فـي منتصف القرن الخـامس، ذهـب إلـى الصيد فـي منطقة الغـابات وأوقـع بطـير جميـل المنظر، فأرسل صقره لكي يحضر الطير الذي اصطاده، لكن الصقر لم يعد. فذهب الملك ليبحث عن الطائرين، فوجدهما يغليان في مياه الينابيع الدافئة. ومنذ ذلك الحين أمر الملك الذي كانوا يسمونه "فاختانج رأس الذئب" بأن تُقطع الغابات والأشجار، ليبنى محلها تلك المدينة. ما كُنتُ لأقول لـ"ثُقى" إن "تبليسـي" تعنـي المدينة الدافئة وإن أهلها يعتبـرون الضيوف هبة من الله، حتى تظل تستعيد شكل الصقر الذي يغلي في مياه الينبوع، وخوذة الملك التي تعطي رأسه شكل الذئب، وأضـحك، لكننـي أنـا التـي تحتـاج الآن إلـى طمأنـة نفسها بـأن لا شيء يدعو إلى القلق، حتى لو اضطررت أن أظل جالسة بمفردي على مقعد في مطار "تبليسي"من الآن وحتى طلوع النهار.

وسط تدافع الركاب وصخبهم لأخذ الحقائب، لمحت لافتة كبيرة يمسك بها رجل أجنبي، ومكتوب عليها اسمي بحروف إنجليزية، لكـن علـى الطريقـة الجورجيـة، وليس كما ظللت طوال حيـاتي أقـرؤه مكتـوبًا. لـم يكـن "تمـارا أبـو لاسـة الشـوافيلي"، بـل "تمار أبـولادزة إيلشـوفيللي"، فشـعرت بقشعريرة وخـدر غـامض لـذيذ، سـرعان مـا أفقـت منـه، حـين وجـدت الرجـل نفسـه يلـوح باليد الأخرى وفيها الدرويش الخزفي الذي اشتريته لـ"سهر" من مطار "أتاتورك"، وكنت قد تأكَّدت بأنني دسستُه في مكان عميق وآمن وسط طيات سترتي الثقيلة بداخل حقيبة اليد "الهاند باج".

"ثُقى"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أكره شيئًا كالانتظار في صالات الإقلاع والوصول بالمطارات، سواء كان مطار القاهرة أو "ميونيخ"، أو "فرانكفورت"، أو برلين. فما نفع أن يسير إنسان في طابور حاملًا حقائب ضخمة، لكي ينتقل من مكان لا يمثل له أي شيء، إلى مكان غيره، ولا يمثل له شيئًا أيضًا. الفارق الوحيد بالنسبة لي بين بلد وآخر هو مواقيت الصلاة واتجاه القبلة، أما ساعات الانتظار فلم أنجح في أن أقطعها بالاستغفار كما يفعل البعض؛ لأن كل طابور كان يحيلني إلى ذكرى طابور آخر والرحلة ترسلني للرحلة التي سبقتها، حتى يأتي مَن يدفعني دفعًا أو يصيح فيَّ بأن أسرع لأنني أعطل الطابور.

ومثل طابور لا يتزحزح، صارت الشقة التي تُؤوينا أنا وتيتة "زكية" بعدما صُنِّفت كبيت وقف، أثر لا يمكن التصرف فيه بهدمه، وبناء عمارة سكنية محله، بها شقق كثيرة تجلب أموالًا طائلة لـ"وديدة" صاحبة العقار. وكان الحل هي أن تبيع الشقق أو تؤجرها للغرباء الذين يعرفون قيمتها، مثل "باتريك" الإنجليزي، وابنته "كاترين"، و"أنستازيا" المخبولة التي تسكن في الشقة المقابلة لنا. أما خالي "عادل" فقد أقنع "وديدة" بأن تغير عقد الإيجار باسمه، بدلًا من اسم تيتة "زكية"، في مقابل مبلغ بالعُملة الصعبة، حتى يضمن محل إقامة حين يأتي في إجازات طويلة من عمله بألمانيا. ولكي يضمن عدم عرقلتي لتلك الصفقة المشبوهة، أرسل لي دعوة لنُزهة في مكان كالحلم على حد قوله، يطل على جبال زرقاء وخضراء، وتحيط به البحيرات والغابات، سأقيم فيه شهرًا وأسبوعًا، سينقصون فيه وزني الذي تجاوز مائة كيلوجرام، وسيعالجونني تمامًا من مرض السكري، حتى أعود وأتحرك بسلاسة في الطوابير الطويلة التي أخوض فيها لأنهي إجراءات القضايا، التابعة للمكتب الذي عملت فيه كمحامية تحت التدريب.

سمعت ثرثرة كثيرة من خالي "عادل" ومن نزلاء المنتجع عن كيف ستَّفوا أسماءهم وشهاداتهم الصحية في قوائم انتظار طويلة، لكي يحصلوا على موافقة التأمين الصحي على التكفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمصاريفنا في المنتجع الفاخر، كما التقطت تلميحات غير مفهومة قالتها زوجته الألمانية وصديقاتها عن هذا المنتجع الذي يطلقون عليه اسم الـ"كوور"، بأنني سأمضي هناك ليالي حمراء، أو أوقاتًا وردية مع عشاق ومحبين ولهانين، يذهبون إلى المنتجع سعيًا وراء تجديد حيوية الجسد والقلب والروح.

لم أتشجع على أن يؤويني بيت واحد مع خالي "عادل" مرَّة أخرى سوى لأنه أخبرني أنني لن أحتاج إلى أن أفض حقائبي، فسوف تأتي شركة لنقلها إلى المنتجع الصحي ووضعها في غرفتي، حتى لا يثقلني حملها وأنا أنتقل من "ميونيخ"، حيث يقيم، إلى المنطقة الجبلية التي تبعد عنها مسافة ثلاثمائة كيلومتر بالقطار.

لم ترَ عيني اليسرى سوى درجات الأخضر الداكنة، بينما يفوت القطار مثل سهم منفلت بين الأشجار الباسقة كسكاكين مسنونة والسهول المنبسطة يتخللها ورد أحمر مثل بقع الدماء بين الجبال. أما عيني اليمنى فلم تشاهد سوى ما رأته قبل أن تفقد البصر منذ سنوات بعيدة. فقد رأت شلالًا صغيرًا في رحلة المدرسة للفيوم و"وادي الريان"، وكفوف بنات تصفق على إيقاع أغنيات صاخبة مكررة، يرددونها في الرحلات التي تفرضها ميس "عايدة" مدرسة التاريخ والجغرافيا، وتمنحنا في مقابلها درجات أعمال السنة. وفي طريق صحراوي موحش تحفهُ هضاب صفراء، تشاهد عيني الباص يميل على جانبه الأيسر، وتنقلب أجساد البنات فوق بعضها بعضًا، وتُكوِّن هضبة أخرى من اللحم على الأسفلت، كان آخر ما شهدته عيني اليمنى، قبل أن تفقد القدرة على رؤية أي شيء سوى لقطات أليمة من الماضي. وفوق كل البنات، كانت "تمارا" تُسوِّي شعرها وتشد قميصها إلى أسفل، وكأنها فتاة استيقظت للتَّوِّ من فراشها الوثير، وتستعد لتناول إفطارها وقهوتها، وتحتها مباشرة يتمدد جسد "ميراي" بلا حراك.

فوجئت بأن الـ"كوور" عبارة عن فندق سبع نجوم، لا تستطيع ولو عين الصقر الحادة أن ترى آخره. مساحات شاسعة من البساتين، وملاعب الجولف، وحمَّامات السباحة، وعيون الماء الدافئة، ومبان فاخرة بأرضيات رخامية، ونوافير وموسيقى هادئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتسرَّب إلى الأركان، وقاعات طعام متجاورة لمحتها من خلف الزجاج وأنا أسير بجوار المُرافق، وسال لعابي على صنوف ملونة مما لذ من اللحوم والدواجن والفاكهة والحلوى. كانت هذه من المرَّات القلائل التي شاهدتْ فيها عيني اليمنى المستقبل، فقد رأيتني وأنا أجوب البوفيه المفتوح ذهابًا وإيابًا، أملأ صحنًا كبيرًا بالأرز والمكرونة وقطع الستيك والدواجن المحمرة والأسماك، وأعود لأملأ صحنًا آخر بسلطات البطاطس بالمايونيز وسلطة التونة بالخضروات، والزيتون الأسود والأخضر، والجبن الحلوم والشيدر والفلامنك، واللانشون، ثم أعود إلى جولة ثالثة لكي أنتقي من الحلوى تورتة "التشيز كيك" والشوكولاتة والكاسترد والآيس كريم.

أيقظني المرافق من واحدة من أروع المشاهدات والعطايا الربانية التي منحنتني طمأنينة، بأن صاح فيَّ بأننا وصلنا إلى الغرفة. أشار إلى صندوق بريد خارج غرفتي، يفترض أن أجد به ورقة كل ليلة بها برنامج اليوم التالي، الذي سأمضيه برفقة مجموعة من مرضى السِّمنة والمتعافين من جراحات العمود الفقري. من السادسة إلى السابعة إفطار في المطعم الكبير. من السابعة إلى الثامنة تحليلات الدم ورسم القلب. من الثامنة إلى العاشرة راحة ألتقط فيها أنفاسي من المشي في الطرقات الطويلة واستنشاق روائح المطهرات. من الثالثة إلى الرابعة لقاء المجموعة في جلسة ثرثرة مع الطبيبة النفسية التي تناقض نفسها في كل مرَّة. فتارة تلقي علينا محاضرة طويلة في كيف نحب أنفسنا وأجسادنا حتى يقبلنا الآخرون كما نحن. وتارة أخرى تجعلنا نسير ونحن نتخيل أن على أكتافنا أحمالًا تزن عشرة أو عشرين أو خمسين كيلوجرامًا، وكيف سيتعرقل السير حتى نكف تمامًا عن الحركة إن استمررنا في كسب مزيد من الكيلوجرامات الإضافية. أما ما كُنتُ أظنه الجائزة الكبرى فقد تحول إلى ذل عظيم. منضدتي محددة بآخر صالة الطعام، عليها كارت باسمي وبه السُّعرات الحرارية المسموح بها، التي أبذل جهدًا حسابيًّا ضخمًا في أن ألتقط عشرين جرامًا من هذا الجبن وعشرة جرامات من تلك الفاكهة، حتى لا أتجاوز المقرر الذي يمر المشرف ليتأكد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التزامي به. أما الخلاص من جرعة التجويع هذه فكان في الجولات التي يأخذوننا فيها إلى أقرب مدينة، للتسوق أو التمشي بين المحال، حيث كُنتُ أشتري كميات من الشوكولاتة وأدسُّها في حقيبتي، وأتسلَّى ليلًا بالتهامها، الأمر الذي حيَّر جميع الأطباء لعدم فقداني الوزن المأمول، وجعلهم يعيدون التحاليل مرارًا، فربما كُنتُ مصابة بمرض نادر يمنع حرق الدهون.

أثار صمتي فضول رفاق المجموعة أكثر من مرح وهرج الأخريات، فتقرَّبت إليَّ "هيلجا"، شبيهة "إليزابيث تيلور"، وأخذت تحكي كمَن يسجل ذكرياته على أشرطة كاسيت ولا يتوقع ردًّا من طرف آخر. قالت إنها وقعت في الحب كثيرًا وتزوجت مرَّات ثلاثًا، وفي النهاية تأكَّدت من حقارة الرجال، لهذا وجهت كل مشاعرها تجاه النساء، فلا تفهم المرأة ولا تحنو عليها سوى امرأة مثلها. ملَّست على شعري وضمَّتني بقوة إلى حضنها، لكنني لم أعتد هذا النوع من التعبير عن المحبة، فصدمها برودي، ووعدتني بأنني سأكون حبيبتها الوحيدة، وأنها لن تواعد أحدًا إن بادلتها الغرام. أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه.

هربت من أماكن وجود "هيلجا" بالسير وحيدة في الغابة الملاصقة لـ"كوور"، فلمحني "جونتر"، وهو عجوز في الخامسة والسبعين، جاء ليتعافى من جراحة في القلب. استسمحني في أن أنتظره حتى يتمشى معي، فصارحته أنه سيعيق سكوني النفسي وتدبُّري لأحوالي بإيقاع خطواته ومشيته البطيئة، لكنه وعدني بأن يسايرني بإسراع الخطى في صمت، فوافقت، حتى أنني لم أشعر بوجوده كظل يلازمني. وحين أَعْيانا المشي الحثيث بين الطرق الملتوية التي تحفُّها الأشجار، توقفنا لنجفف عرقنا ونلتقط أنفاسنا. ضغط "جونتر" على ذراعي بأصابعه ومال قليلًا، فظننته سيسقط من الإعياء، لكنه كان يرغب بأن يلقي بجسده النحيل فوق جسدي المستند إلى الشجرة، وأخذ يقول أشياء عن الحرمان والاحتياج والقلب الذي لا يشيخ. لم أحبس صوتي وأنفاسي كاليوم الذي كاد يفعل بي خالي "عادل" ما فعله "عمنون" بـ"ثامار"، بل فعلت كل ما كان يجب أن أفعله في ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم البعيد.

لم ألاقي "جونتر" في اليوم التالي بابتسامة خشبية ثابتة كالتي أبثُّها في وجه خالي "عادل" ويظنها فرط محبة، فلم يطِق "جونتر" النظر في وجهي، بعدما وبَّخته بأقذع الشتائم المصرية التي لم يفهم منها شيئًا، لكنه حتمًا تأثر حينما لكزته بقوة في كتفه الشمال فوق موضع القلب، الذي جاء للمنتجع طمعًا في لمسات حانية تداويه، عوضًا عن المنشار والمشارط الطبية التي شقت صدره بفتحة طولية وغرزات عرضية، تذكره بالآلام التي تكبدها.

فهمت متأخرًا التلميحات الخبيثة لزوجة خالي "عادل" وصديقاتها عن "الكوور"، حين أصابني الأرق ذات ليلة، وخرجت إلى الدهليز لآخذ زجاجة ماء الصودا، فوجدت رجالًا يخرجون من غرف النساء، ونساء يغادرن غرف الرجال وهم يتبادلون قُبلات ساخنة في الهواء، وعلى وجوههم علامات ارتياح ونضارة.

حاولت الاتصال والاستغاثة بخالي "عادل" ليأخذني بعيدًا عن هذا الجحيم، ويعود بي إلى مصر، لكنه رماني في المنتجع الصحي، ليسافر بمفرده ويُتم مؤامرته مع "وديدة" بتغيير العقد، وتكون له حرية التصرف في الشقة، فيؤجرها من الباطن للأجانب المهووسين بالأحياء الشعبية القديمة.

وقد كان الخلاص هو أن أصفِّي فؤادي بالصمت التام حتى تلوح لي الأنوار وتتكشف الأسرار، فأجدني وقد علوت إلى مقام المدارسة، فتارة أدرس مع الملائكة وأتعلم من علومهم، وتارة أجلس مع الأنبياء ليطالعوني، وتارة أجلس مع الكائنات كلهم، حتى يكشف لي الله خواصها.

ما عمق إحساسي بالفراغ في المنتجع هو مشهد الذين يستمتعون بأنشطة الرسم والتلوين والخزف والطرق على الحديد وأشغال الحلي، ورياضات البولينج والبلياردو والتنس، أو الذين يخلعون ملابسهم ويكشفون لحمهم المترهل بسلاسة ثم يغمرونه بالمياه الدافئة في حمَّام السباحة، أو في الجاكوزي والينابيع، لكنني

تدبرت الآية الكريمة التي تقول: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، فقررت أن أتطهر بماء الينابيع الكبريتية الدافئة، مثلما يغسل المسلمون أدران البدن والروح بالوضوء، ويزيل المسيحيون الخطايا بماء التعميد، إلا أنني رفضت لبس المايوه مثلهم، وصممت على السباحة بالبنطلون والتيشيرت. وقد كان هذا يومًا مشهودًا ونقطة تحول غيرت مجرى أحداث حياتي. فبمُجرَّد أن غمرتني المياه والسكينة المتدفقة مع الدوامات والفقاقيع الصغيرة، سمعت جملًا صاخبة وكلمات بالألمانية ورأيت أصابع تشار نحوي يعقبها صياح وضحكات، إلى أن أخرس رئيس المجموعة الجلبة المثارة حولي بأن قفز بدوره في الينبوع بكامل ملابسه.. "علاء المصري" الذي أخرجني عن عزلتي حين تكلم معي وفضفض بمكنونات روحه وملامح من تاريخه الشخصي أسفل الشجرة الكبيرة، فرسمتها في النشاط الفني كامرأة تُسقط دموعًا وتُكون ينبوعًا دافئًا تحتها. لوحة صفق لها الجميع، وأحبها "علاء المصري" بشكل خاص، فهو الوحيد الذي كان يعلم أن هذه الشجرة ترمز إليه. وكنت أنا الوحيدة التي تعرف أن بركة المياه التي كونتها الدموع، لم ترمز للينبوع الذي جمعنا بملابسنا كاملة، بل للمياه المتسربة منّي أسفل الكرسي في حصة التاريخ، وجعلت البنات يُشرن عليّ ويتهامسن كل يوم في طابور المدرسة. وحين بدأن في التغافل عن تلك الواقعة، داهمتني أول بقعة دماء للأنوثة في طابور آخر، فسمعت الهمهمات نفسها، وسحبتني المشرفة بعيدًا وقالت لي أشياء عن الدورة الشهرية لم تكن تيتة "زكية" قد حكت لي شيئًا عنها. لم يعفني من حرج تلك الطوابير سوى نقلي إلى مدرسة حكومية أقرب إلى البيت في "الدرب الأحمر" وأقل تكلفة، والأهم من هذا وذاك، أنه لم يكن لي في المدرسة الجديدة أي تاريخ.

وحين حاولت "إيما" المدربة النفسية في المنتجع الصحي أن تخرجني عن صمتي، نصحتني بألا أجبر نفسي على الكلام في البداية، بل أن أتصوَّر أن كل شخص آخر في المجموعة يتحدث، هو صورة لي في المرآة، وسُمِّيت الجلسات التي كانت تجمعنا مرتين بالأسبوع "حواديت فى المرآة". فى تلك الأمسية، تكلم

296 دقيقة متبقية من «رتمار» 40%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"علاء المصري" كثيرًا، وأكملنا حواراتنا التي كُنتُ أقوم فيها بدور "المرآة" على دكة أسفل الشجرة. الشجرة الكبيرة نفسها التي رسمتها وتخيلتها تبكي ينبوعًا في الصورة التي علَّقوها ببرواز أنيق في الدهليز المؤدي إلى المطعم، وتحتها اسمي كاملًا "تُقى شامل أبو لاسة". الاسم نفسه الذي وقعت تحته في وثيقة الزواج الذي تم في السفارة المصرية ببرلين، يجاوره توقيع "علاء إبراهيم المصري".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثاني : "تبليسي"

چورچيا

"تمارا"

(1)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو كان الأمر بيدي لتخطَّيتُ كل الحواجز ومكاتب ختم الجوازات بمطار "تبليسي"، وطرت نحو الرجل الذي يحمل اسمي على لافتة كبـيرة، ويلـوح بيـده الأخـرى بتمثـال الـدرويش الخزفـي الـذي اشـتريته لـ"سهر"، لكنني مضطرة إلى الوقوف أمام السير الذي يـدور هـو الآخـر مثـل تـنُّورة الصـوفي، ويلتـف حولـه المُريـدون المُتحـرقون شـوقًا لوصـول حقائبـهم، وينظـرون فـي حسـرة إلـى حقائب تظهر وتختفي، ثم تظهر مرَّات مُتتالية ولا يلتقطها أحد. تُشبه دقائق انتظار الحقائب في المطارات لحظة خروج الروح من الجسد، التي يقولون إن الإنسان يرى فيها شريط حياته كاملًا يمرُّ من أمامه في ثوانٍ. فمع الدوران المُتكرِّر للحقائب التي بلا أصحاب، وبداية وصول حقائب معظم الركاب، إلا حقائبي أنا، تمرُّ من أمامي لقطات بعينها من حياتي، تجعلني أرتعب من أن تضيع الحقيبة بمقتنياتي التي عشت معها بحب، ووضعت فيها أجزاء من روحي، واخترتها دون غيرها لترافقني في رحلتي.

تفوت على السير المتحرك كل الحقائب السوداء والبُنيَّة التقليدية كـألوان ملابـس "تُقـى" التـي لا شـكل لها، ولا ألمح أبدًا حقيبتيَّ الفوشـيا والبنفسـجية المميـزتين. تـراني الآن أقلـل مـن شـأن

204 دقيقة متبقية من «ثمار ..» 41%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكلام زوجها الفلَّاح الفصيح، "علاء المصري"، قبل عامين، ما كُنتُ لأقيم وزنًا للخطاب الذي جاءني من القس المجهول، وجعلني أفتش عن فردة القرط والإنجيل.

فاجأتني "تُقى" بإصرار وسذاجة بالمطالبة بحقها في الأراضي والأملاك التي عثَرْت عليها في چورچيا، حين سافرت إلى "تبليسي" لحضور أسبوع الموضة منذ عامين. أخذت تردد مثل تلميذة تحفظ ولا تفهم ما لقنه لها زوجها، بأن اسم "تمار" الممتد إلى جدات الجدات في تاريخ أسرتنا لا بد أن يدل على أننا من أصول جورجية، وأنني لا بد أنني مسافرة سرًّا للاستحواذ بمفردي على ثروة من الأراضي والبنايات. ضحكتُ وسخرتُ من "تُقى" كالعادة، فارتفع صوتها فجأةً واختنقت بالدموع، وقالت:

- علاء بيقول مش معقول أختك "تمارا" خريجة قسم التاريخ، مش عارفة إن المماليك اللي كانوا جايين من چورچيا بالذات فضلوا محافظين على لغتهم الأصلية، وكانوا متابعين أخبار بلادهم في "القوقاز" وكمان قرايبهم كانوا بييجوا يزوروهم في مصر، وياخدوا منهم فلوس يشتروا لهم بيها أراضي ويبنوا كنايس في القرى اللي كانوا جايين منها.

ثم توقَّفَتْ قليلًا عن الكلام لتبلع ريقها وكأنها تلميذة تتذكر باقي الدرس، أو تحاول أن تثبت أنها كانت لتكون محامية مُفوَّهة لو كانت قد استمرَّت في عملها وترافعت في المحاكم.

- أيوة، وأكيد أنتِ كمان عارفة من كتب التاريخ إن المماليك دول كانوا عايزين يتحرَّروا من الإنجليز والأتراك، ويرجعوا بلادهم بعد ما بتوع الحملة الفرنسية طلعوا من مصر. "علاء" قاللي إن له واحد صاحبه حكاله إنه كان له جد أصله من چورچيا، وكان سايب لهم نسخ من أوراق وجوابات كانوا بيبعتوها الجورجيين للسفير الروسي في القسطنطينية عشان يتوسط لهم يرجعوا بلادهم سنة ألف وتمنمية وحاجة كده، بس السفير ده طلع لئيم وطنشهم عشان الروس خافوا يرجعوهم چورچيا أحسن يعملوا ثورات واستقلال هناك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنفست "تُقى" الصعداء بعدما قذفت في وجهي كل النفايات التي لقَّنها لها زوجها، ثم أضافت وكأنها عالمة ببواطن الأمور:

- ما هو مش معقول تكون صدفة إنك تتطلقي وتسيبي شغلك، وتروحي مسافرة على چورچيا دي بالذات بالصُّدفة كده عشان تحضري عرض أزياء! إلا عمرنا ما سمعنا عن چورچيا دي غير في أمريكا.

وقد كان آخر ما قلته لها قبل أن أنساها لعامين آخرين:

- وهتعرفي أنتِ چورچيا منين؟ إيه الجنان ده؟! الفلاح الفصيح جوزك طيَّر البرج اللي فاضل من دماغك. قال كنايس ومماليك وقنسطنطينية قال. ده أنتِ عمرك ما فشلتِ في حاجة قد دروس التاريخ وحصص ميس "عايدة".

لمحْتُ طرف حقيبتي الفوشيا وهو يظهر من بين فتحات الستارة بأوَّل السير. هدأت قليلًا بعد أن التقطتها بخفَّة، ووضعتها على الأرض، وجلست فوقها انتظارًا للحقيبة الأخرى. أهم ما في هذه الحقيبة هي التنُّورة الفلاحي التي صمَّمها لي "ضيا" وقال إنها تشبهني. تنُّورة واسعة بكورنيش بها بواقي الأقمشة الغالية والرخيصة التي يجلبها من كل محافظات مصر، ويستوردها من شرق بلاد الأرض ومغربها يتجاورون ويتداخلون في انسجام لا يخطر على قلب مصمم أزياء عادي، قد يظنها متنافرة، ولن يفكر في وضعها في رداء واحد. المدهش في تلك التنُّورة السحرية أنها تناسب جميع ألوان التيشيرتات السادة التي أنتقيها وفقًا للمزاج، ونوع الإكسسوار الذي أرغب في أن أتحلَّى به. تذكِّرني هذه التنُّورة بأوَّل جونلَّة أحضرها لي خالي "عادل" من ألمانيا. كانت عبارة عن قطع طولية متجاورة من الشمواه بألوان الأرض، البني، والبيج، والهافان، والزيتوني، والطوبي، بدرجاتها، وكأنه اقتطع أجزاء من المدن التي زارها وأهداها لي، كما أحضر لـ"تُقى" واحدة مثلها بألوان مبهجة، لم تحبها، ولم أرها ترتديها يومًا، لكنني وقعت في غرام تلك التنُّورة؛ لأنها أيضًا كانت من رائحة خالي "عادل"، الذي أحببته لخفة ظله، وطيبة روحه، وسخائه في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملابس التي كان يرسلها في حقائب لي ولـ"تقي"، لكن تلك الجونلَّة هي ما علقت بذهني، وظللت أتذكرها بحسرة بعدما كبرتُ عليها، أو صغرت هي عليَّ مثلما كانوا يقولون، وصرت شغوفة بعدها بكل أشكال الجونلات، الواسعة المرحة أو الكلاسيكية الأنيقة، حتى إنني اخترت خط التنورات كمشروع للتخرج في أكاديمية الموضة بإنجلترا. لكنني أبدًا لم أصل لعبقرية "ضيا" في أن أصمم جونلَّة تُشبه روح امرأة، مثلما اهتدى هو لفكرة أنني أحمل بداخلي كل شعوب الأرض في انسيابية وهارمونية.

رفض "ضيا" طلب "سهر" في أن يقلد لها نسخة طبق الأصل من تنورتي، متعللًا بأن بواقي الأقمشة التي صنعها منها قد نفدت. فظننت أنه لا يرغب في بذل جهد في قطعة يعرف شكلها مسبقًا، واعتقدت "سهر" أنه صار يتخذ منها موقفًا عدائيًا بعدما حلت الشراكة التي بينهما وارتطبت بـ"راشد" المريب. كُنتُ لأنفر من "راشد" لو كُنتُ مكان "ضيا"، ليس فقط بسبب العلاقة التي بدأت متوترة بينهما، بل لأن "راشد" يقوم بأنشطة مريبة بالفعل.

ربما كانت "سهر" هي الوحيدة التي التقطها "راشد" من حفل غنائي ليتزوَّجها، لكنها كانت من بين كثيرين يصادقهم من الحفلات ويضمهم لجمعيته التي تروج لأفكار ظاهرها التسامح والتراحم وفي باطنها نار مستعرة. وُضع "راشد" على قوائم النشطاء الهاربين والممنوعين من دخول البلاد بعدما صدر ضده حكم غيابي، لم يكدره كثيرًا لأنه وجد ملاذًا أكثر سخاء في بلاد أخرى. أما ما كدَّرني أنا فهو أن "سهر" استجابت له في أن تسللت متخفية في زي خليجي فضفاض لتضع مولودها الأول في حي "بروكلين" الذي يعجُّ بالمصريين والعرب، ولا يختلف كثيرًا عن حي "شبرا"، وهربت قبل أن تسدد أجرة المستشفى الباهظة، مثلما نصحها كثيرون من مُريدي الجنسية الأمريكية لأبنائهم. فصارت هي أيضًا على قائمة الممنوعين من الدخول والولادة مرَّة أخرى في المكان نفسه بعدما تم القبض على صاحب شركة تسهيلات الولادة التي أغراها اسمها "يو إس إيز هابي بيبي"، أي طفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمريكـا السـعيد، فقـرَرَتْ أن تلـد طفلها الثـاني فـي كنـدا، الـذي ستسميه "نوح"، أو "نوا" كما سيناديه الكنديون، حتى يتيسر له حين يكبر دخول مائة وستة وسبعين بلدًا، بفارق بلد واحد أقل من أخيه الأكبر.

ذهولي من الهستيرية التي تسيطر على تحركات "سهر" ينبع من كونها ابنة ميس "عايدة" التي افترضتُ أنها فعلت معها نفس ما فعلتـه معنا، وغرست في روحها شجرة راسخة تقدس مسقط الرأس والمنبت، أما البلاد الأخرى ففروع وأزهار وأنهار، يشكلون مشهدًا جميلًا مثل تابلوه من الجوبلان يتحوَّل إلى ثوب مبهج به أشـجار وجـداول مائيـة وأزهـار. لكن"سـهر" كـانت مثـل فصـول الموضـة المتقلبـة، وعـروض أزيائـها التـي تضـعك فـي حـيرة، فمجموعـة الـربيع تعـرض فـي الشـتاء الـذي يسـبقه، ومجموعـة الخريف تعرض في الربيع، ومجموعة الصيف تعرض في الخريف، فيدور رأسك كما تدوخ حين تتابع تثُّورة الدرويش، بينما يستمر هو في دورانه دون كلل، مثله مثل السير الذي يحمل الحقائب في المطارات، وتوقف فجأةً الآن لسبب غير معلوم، دون أن تظهر حقيبتي البنفسجية.

لاحت لي لقطة كُنتُ قد نسيتها، تذكَّرت فيها يد "سهر" تدسُّ لي كـارت بوسـتال فـي حقيبـة يـدي فـي مطـار "أتـاتورك"، قبـل أن تعطيني ظهرها وتغادر مع زوجها قبل ساعتين من الآن. التقطت المظروف بسلاسة وفضضته لأتسلَّى بما فيه حتى يعود السير للـدوران، لكنني وجدت بـه أربع أوراق مطوية بعناية، ومكتوبة بخط يد "سهر" الطفولي، وليس كارت بوستال كما ظننت. تضمن الخطاب كل المسكوت عنه منذ سنوات، التاريخ الشخصي لـ"سهر" الذي قمت بتأليفه بخيال ذي قماشة عريضة، بناءً على خبرتي السابقة مع ميس "عايدة" وملابسها اللافتة ونظرياتها البرَّاقة. ها هـو يعـود الـ"أونفيلوب"، الـذي أحببتـه موديـلًا فـي التنـورات، ومظروفًا تقليديًّا يكشف المستور. جريت على الحروف سريعًا، التي استهلَّتها "سهر" بأنها كتبت لي هذا الخطاب لأقرأه بتمهُّل وتمعُّن، فلعلي أمنحها بعض العذر، ثم استطردت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"لم أنشا في بيت واحد مع أمي مثل كل البنات، بل تربيت في منزل عمَّتي التي زرعت في رأسي فكرة أن والدتي هي مَن أصرَّت على الطلاق، وظلت تُعايرني بأنها تخلَّت عنِّي ورمتني لتتزوَّج رجلًا آخر، يوفر لها منزلًا فاخرًا وملابس أنيقة، لم يستطع والدي مدرس التربية الرياضية أن يوفرها لها. لم تفلح محاولات أمي في المرَّات التي كُنتُ أزورها فيها في طفولتي أن تقنعني بأن هذا الكلام افتراءً من أخت زوجها، وأن التفاهم بينها وبين والدي كان يصل إلى حوائط صد بعيدًا عن الماديات. ولما سيطرت على رأسي في سن المراهقة وساوس بأن الله حتمًا غير راضٍ عنِّي، وأنني لا محالة في النار، غطَّيت جسدي بجلباب واسع، وغلَّفت رأسي، وأسدلت على صدري خمارًا. أرادت أمي أن تكسب رضاي، فتنازلت راضية عن كل الأزياء الجميلة، وتحجَّبت هي الأخرى، وأخذت تصاحبني إلى مجالس العلم الدينية، وتغوص وتتوغَّل في الفقه وأحكام الشريعة حتى وصلت إلى أمهات الكتب، ورجعتْ إلى الوراء وحدها إلى قرون بعيدة في التاريخ الذي تعشقه، فتاهت في غياهبه ونقَّبت نفسها بالكامل بالسواد.

ماتت عمَّتي في الشهر نفسه الذي نجحَتُ فيه في الثانوية العامة، فشعرَتُ بشبح امرأة محبة للحياة يسحبني من يدي إلى كلية الفنون الجميلة. وبين اللوحات وباليتات الألوان، بدأتُ أزحزح غطاء رأسي إلى الوراء قليلًا، وأسدل خصلة ناعمة من شعري الذي صبغته باللون النبيذي تشبُّهًا بأمي، وشمَّرت أكمامي وقصَّرت ثوبي شيئًا فشيئًا، حتى عُدت إلى سيرتي الأولى قبل أن أتحجَّب، لكن الندَّاهة التي جذبتني من يدي جعلتني لا أهدأ على حال، فتارة أرتدي الكلاسيكي القصير الذي شاهدته في فيلم "الشيطانة ترتدي برادا"، وتارة ألف الساري الذي أحببته على بطلات قناة "بوليوود"، وتارة أتبختر في جلباب فلاحي عصري من تصميم "ضيا"، سرعان ما أزهده وأعرضه للبيع. وعلى الرغم من أنني مكثت ستة أشهر كاملة بجوار أمي، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، حاولَتْ فيها رغم صراعها مع المرض، أن تقنعني بأنها لم تهجرني من أجل مسكن أكبر وملابس أجمل، ظلَّت تلك الفكرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطفولية راسخة في وجداني، فأردت أن أوفر لأبنائي ملاذات كثيرة آمنة في شتَّى بلاد الأرض، حتى لا يظنُّوا يومًا أنني تخلَّيت عنهم وتركتهم في العراء.

فهمت لماذا لم يمنح "ضيا" تنُّورة تتجاور فيها قطع من بلاد الدنيا في انسجام لـ"سهر"، فقد كان يعرف منها ما لم أعرفه، وحجبته هي عنِّي حتى تحافظ لي على الصورة القديمة التي صمَّمها خيالي لميس "عايدة". فقد قال لي "ضيا" ذات مرَّة إنه قرأ أن الأناقة المقلدة مقارنة بالأناقة الأصلية تُشبه شكل الباروكة مقارنة بالشعر الأصلي. فـ"سهر" منذورة للقلق والشتات، وليس لتلاصق وتداخل البلدان في قطعة يدوية أصلية، حتى إنها في رحلة بحثها عن الملاذ المستقبلي الآمن، نذرت ابنها "آدم" لقارة لن تستطيع أن تطأها ويلتم شملها معه فيها إن اختارها وطنًا، وستهدي الوليد الذي تحمله في أحشائها لقارة أكثر برودة وبُعدًا، حتى تضمن لهما حرية التبعثر والشتات في مائة وستة وسبعين بلدًا.

عاود السير دورانه وظهرت حقيبتي البنفسجية، التي أنتظرها منذ عشرين دقيقة. فتحت الـ"هاند باج" للاطمئنان على الصندوق الصغير الذي يحوي القرط والإنجيل، فلامسته وربتُّ عليه كأم حنون، لكنني اندهشت لما لمحت طرف الدرويش الخزفي الذي اشتريته لـ"سهر"، سليمًا مُعافى وملفوفًا في مأمنه بداخل السترة الصوفية، على الرغم من وجوده في يد الرجل الغريب، الذي يلوح لي به على بعد أمتار خلف الحواجز الحديدية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقتربت منه ذاهلة، فتبينت عيناه الزرقاوان، وشعره الفضي الذي أخذ يزيحه بأصابعه إلى الخلف لكيلا ينسدل من فرط نعومته على جبينه. ولولا السُّمرة التي تلون بشرته، لظننت أنه لم تلفحه شمس يومًا. قدم لي نفسه على أنه "موتي"، ثم استدرك:

- أقصد "مطيع".

اتسعت ابتسامته الطفولية فتكاثرت التجاعيد على وجنتيه وعلى جانبي عينيه وهو يمد لي يده ليصافحني، قائلًا:

- كيفك؟

بلكنة شامية. سلمني اللافتة التي يحملها وعليها اسمي قائلًا:

- هاي منِّي إلِك.

ثم أعطاني الدرويش الخزفي، وقال:

- وهاي من رفيقتك.

أصر على أن يجر لي الحقيبتين الثقيلتين على الرغم من أنه يحمل على ذراعه حقيبة يده.

"مطيع الشيخ"، أحد مفاجآت "سهر" وهداياها غير المتوقعة. رجل لم تكن تعرفه قبل ساعات. راكب عادي على الطائرة التي حملتنا من مصر إلى تركيا، قدَّمتْ له القهوة بعد الوجبة، وقطعة كيك إضافية، ثم ألقت عليه بعبء العناية بي حين نصل إلى "تبليسي". هذا الرجل الوقور الذي تجاوز الستين، أشركته "سهر" في إحدى لعبها الصغيرة، وأوصته ألا يكلمني أو يجعلني ألاحظه على الطائرة، حتى يكون فرحة كبرى وخلاصًا من القلق الذي يفتك بي، خشية التوهان بعد الثالثة صباحًا في شوارع مدينة غريبة. والعجيب أن "سهر" لم تكن تعرف أنني اشتريت لها الدرويش الخزفي الذي أحببناه معًا، وابتاعت لي هي الأخرى نسخة منه، واستسمحت "مطيع" أن يفاجئني به كرفيق خزفي أحمله أينما ذهبت وأديره بأصابعي فيؤنسني ويذكرني بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليل القد، ذو بنية رقيقة، لكنه حمل حقيبة تلو الأخرى وستَّفهما في مؤخرة سيارته الصغيرة بسلاسة وخبرة مَن يرتحل كثيرًا، وهو يضحك من ضخامة حجم أمتعة النساء. أزاح خصلة شعره الناعمة التي انفلتت على جبينه، وقال:

- شُبّيك لُبّيك.

سلمته عنوان شقة أخت "أنستازيا" في شارع "ديفيد آجماشينيبيلي" بوسط المدينة، فوضعه في جيبه دون أن ينظر إليه، وصرف الرجل الذي كان ينتظره بالسيارة. لم أكن أقل حماقة من "سهر" التي عهدت إليه بالهدية التي اشترتها لي، وركبتُ بجانبه في تلقائية وكأنني أعرفه منذ سنوات، لكنني كُنتُ كالغريق الذي يقنع نفسه أن القشَّة ستنقذه، فتناسيت كل القصص التي صورها لي خيالي عن عصابات المافيا التي ستختطفني لتحصل على الكنز المكون من فردة قرط متغضنة، وكتاب مقدس لا بد أن له آلاف من النسخ المثيلة.

قال:

- هل شاهدتِ"تبليسي" ليلًا؟

قلت:

- نعم، منذ عامين، كل ليلة وأنا مستلقية على فراشي في الدور السابع عشر بغرفة الفندق.

قال:

- "تبليسي" تستحق أن تشاهديها من نقطة أكثر ارتفاعًا، واسألي شيخًا مثلي عاش هنا لأكثر من ثلاثين عامًا.

قلت:

- ربما مرَّة أخرى. فصاحبة الشقة تتوقع قدومي، وتنتظرني.

"عوِّدت عيني على رؤياك" بصوت "رياض السنباطي" وسلطنة أوتار عوده كان آخر ما أتوقع سماعه من كاسيت السيارة، وسط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا العبث الذي جعلني أركب عربة يقودها مجهول، ويجري بسرعة تليق بإغراء الشوارع الخالية، في الثالثة صباحًا بتوقيت "تبليسي".

فوق ربوة عالية، تتلألأ تحتها أضواء المدينة وترى قلعة "ناريكيلا" الأثرية، التي تعلو تلَّة شديدة الانحدار بين حمَّامات الكبريت والحدائق النباتية، نقف أنا و"مطيع" في صمت حفاظًا على روعة المشهد. لكن كلانا يبذل جهدًا هائلًا لكي لا يجرح الصمت؛ هو لأنه حتمًا يمتلك روايات وفيرة، وأنا لأنني أجهل كثيرًا وأريد معرفة كل شيء. شق "مطيع" رتابة السكوت المفتعل وبدأ الكلام بصوته المتحشرج. قال كلامًا غريبًا يشبه ما كانت ترويه "أم إدريس" ليلًا، ويسكتنا أنا و"تُقى" حتى صباح اليوم التالي. صوَّب بصره نحو حصن "ناريكيلا" والكنيسة الأثرية التي تجاوره وكأنه يحدث نفسه:

- كانوا يقولون في الأساطير الجورجية إن للكون شكلًا كرويًّا، ويتكون من ثلاثة عوالم كالطوابق، يسمونها "سكينيلي". العالم الأعلى اسمه "زيسكينيلي"، وتسكنه الآلهة. أما العالم السفلي فاسمه "كيفسكينيلي"، ويقع تحت الأرض، وهو مسكون بالشياطين والأرواح الشريرة والديناصورات. بين هذين العالمين، توجد الأرض التي نعيش عليها نحن والأشجار والجبال والبحار والأنهار. لكل من العوالم الثلاثة لونه الخاص؛ الأبيض للأعلى، والأحمر للأوسط، والأسود للأسفل. آه يا مصر. ألوان العلم المصري نفسه. على فكرة كان بدِّي أعيش بمصر. وأنتِ إيش لونك يا حلوة، أحمر ولا أبيض؟

عاد لـ"مطيع" وجهه الطفولي، وزالت عنه الحشرجة بعدما استطرد في الحكي، وأنا صامتة تمامًا.

سألته فجأة:

- هو حضرتك بتشتغل إيه؟

فأجاب:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حكاواتي.

لم أفهم ولم يتبقَّ لي مزيد من الطاقة لكي أستفسر. تجاوزت الساعة الرابعة صباحًا، فعدنا إلى السيارة. كان "رياض السنباطي" ما زال يصدح في الكاسيت بـ"عوِّدت عيني"، وفي ذيلها بدأت أغنيــة روسية لها لحن شهير مبهج، كان لدى "چيمي جدو" أسطوانة لها، وكانت تيتة "نازلي" تدب فيها الحيوية حين تسمعها عن بُعد. كُنتُ أظنها أغنية للرقص الجماعي الذي يشبه الدَّبكة، لكن "مطيع" قال لي إنها كانت تُغنِّي أيام الحرب العالمية الثانية في روسيا، وتحكي عن فتاة تنتظر حبيبها الذي يخدم بلاده في الجيش. كانت الفتاة تسمى "كاتيوشا".

- بتعرفي شو يعني "كاتيوشا"؟ "كاترينا" بيدللولها يقولولها "كاتيا"، و"كاتيوشا" تدليل "كاتيا". بحب كتير هالغنية مشان على اسم زوجتي "كاتيا".

وصلنا إلى شارع "ديفيد آجماشينيبيلي"، وأخذنا نبحث عن رقم العمارة 111 في الظلام. كان الباب الخشبي الضخم مغلقًا ولا أثر لحياة أو لامرأة تنتظرني مثلما وعدتني "أنستازيا". فقد قالت إن أختها لا تنام حتى تستقبل السكان الجدد، وتعطيهم المفاتيح وتفرِّجهم على المكان. أتذكر أيضًا أن "أنستازيا" قالت لي إن أختها تُبقي نور البلكون مُضاءً، وللبلكون ستارة خفيفة بيضاء، حتى أتعرف إلى الشقة في الدور الثالث. وجدنا ممرًا يفضي إلى باحة مظلمة بها عمارات كثيرة بلا بلكون مُضاء سوى لامرأة عجوز تعسعس في الدور الأرضي. سألتها عن شقة تستأجر للسكن في الدور الثالث في هذه البناية لمرأة تُدعى "تارا"، أو بأي من البنايات الملاصقة، فبدا عليها أنها لم تفهم. كرر عليها "مطيع" السؤال باللغة الجورجية والروسية، لكن شيئًا لم يتغير.

كان "مطيع" في تلك اللحظات هو العالم كله، هو المنقذ والمخلِّص، الذي ظللت صامتة أمام عروضه التي لم أعرف أيها أختار حتى ينقشع هذا الظلام. قال إنه مستحيل أن يتركني مثلما طلبت منه، وكنت بيني وبين نفسي أتمنى ألا يهاودني ويفعل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصر على أن يأخذني إلى فندق في المدينة القديمة صاحبه مصري، ويمكن أن يجد لي مأوى أو يعثر معي على صاحبة الشقة التي دفعت لها أجرة شهر مقدمًا. لم أذرف أمام "مطيع" دمعة واحدة لأعطه انطباعًا بأنني فتاة غريبة قليلة الحيلة، لكنني كُنتُ أشعر بأن جسدي مُغلَّف بثوب مهلهل تملؤه الثقوب، وبأن قلبي إسفنجة منقوعة في طست مياه قذرة.

دقائق قليلة ووجدتني في شوارع ضيقة صاعدة وهابطة، ثم توقفت السيارة أمام فندق صغير لم أتبيَّن اسمه. تبادل "مطيع" وصاحب الفندق حوارات كثيرة، وسمعت جمل ترحيب بالعربية والإنجليزية، كما سمعت صوتًا يصدر منِّي يقول إنني سأبقى على الأريكة الجلدية في المدخل ساعتين فقط حتى الصباح. لكنني شاهدت حقيبتي الفوشيا والبنفسجية محمولتين على ظهر الشاب المصري صاحب الفندق، وهو يصعد بهما السُّلَّم المؤدي إلى الغرف، وذراعي تستند إلى ذراع فتاة جورجية، لم أفهم ما كانت تقوله لي بحماسة وود، قبل أن تدخلني إلى غرفة تعم فيها الفوضى، وكأن نزلاء ما قد غادروها للتَّوِّ.

يسقط جسدي على فراش غير مُرتَّب، ويصدر من الوسادة سؤال لم أكن قد أجبته قبل ساعات بصوت "مطيع":

- وأنتِ إيش لونك يا حلوة؟

فأرد عليه بتلقائية بالكلمة الجورجية الوحيدة التي علمني إياها وعلقت بذهني:

- لوني مثل "الكيفسينكيلي"، العالم الذي يقع تحت الأرض، وتسكنه الشياطين والأرواح الشريرة والوحوش.

وقد كان هذا بداية حلم يليق بنوم ثقيل كعُمق عالم الأساطير السفلي، وليلة عبثية يغمرها السواد.

ضرب أول شعاع شمس المرآة المُواجهة للفراش، ففتَّحت عينيَّ على شبح ضوء يتراقص على الحائط، ويعكس صورة اللافتة التي تحمل اسم الفندق "ميجوتيل". هرعت إلى البلكون لأشهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بداية دبيب الروح في الشارع الضيق الذي يتراص فيه الأوتيل جنبًا إلى جنب مع بنايات مكونة من دورين أو ثلاثة، كلها ذات أسطح مائلة من القرميد الأحمر، بعضها مُرمَّم حديثًا، وبعضها حال لونه ويكاد يتفتَّت وينهار؛ لكنني ظننت أنني ما زلت بداخل الحلم حين سادت برودة نسمات شقشقة النهار، تتخللها زقزقة عصافير وصياح ديوك ونعيق غراب، ثم تفاجأت بها أمامي بحجمها الخرافي، وكأنني انتقلت في غمضة عين من العالم السفلي الأسود، إلى عالم الـ"زينسكينيلي" الأسطوري الأعلى الذي تسكنه الملائكة والآلهة.

"ساميبا"، أو كنيسة "الثالوث المقدس"، التي قرأت عنها في رحلتي السابقة لـ"تبليسي"، ولم يسمح لي الوقت بزيارتها، تكاد تحتضن بلكوني الصغير بفندق "ميجوتيل"، الذي وضعني فيه "مطيع" وتركني مثل طفلة لقيطة. ثالث أكبر كنيسة بالعالم كله تدق أجراسًا عالية بجوار أذني، مثل جارة حميمة تُقلِّب الشاي لأسرتها وتلقي عليَّ بتحية صباح عابرة من شباكها. وعلى هضبة زرقاء بعيدة يلوح لي تمثال "الأم چورچيا" الذي يحرس المدينة. على الأقل أعرف الآن موقعي بالتحديد إن حاول أحدهم تضليلي. أنا فوق تلَّة "إيليا" في حي "آفلاباري" التاريخي في "تبليسي" القديمة. لا بد أن ميس "عايدة" كانت لتفتخر بي لأنني ما زلت أتذكر المعلومة التي اختزنتها منذ عامين. ولا بد أن "تُقى"ستتشفَّى فيَّ لانتقام القدر منِّي حين كُنتُ أخيفها بأن حي "الدرب الأحمر" الذي تعيش فيه سُمِّي هكذا بسبب آثار الدماء التي التصقت بشوارعه بعد مذبحة القلعة. وها أنا أطل من بلكون بناية مجهولة على أرض ممهدة كانت يومًا مقبرة وكنيسة، هدمها السوفيت وأقاموا بدلًا منها حديقة، لكن الأمر الذي تقشعر له الأبدان هو أنه أثناء بناء كنيسة "ساميبا" لاحقًا، لم تُحترم المقبرة، وانتشرت العظام بجوار الجرافات في الساحة الفسيحة جدًّا التي أملأ بها عينيَّ الآن.

لا مجال الآن لتسميع دروس الجغرافيا أو لإثبات المهارات في حفظ التاريخ، أو حتى لتخيل القس الذي جلبني إلى چورچيا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو يخرج من بوَّابة الكنيسة ويلوِّح لي مثل شيخ طيب، يربت على رضيعة باكية على باب مسجد.

أمام مكتب الاستقبال بالفندق، شاهدت وجوهًا كثيرة مألوفة للفتيات الچورچيات اللاتي استقبلنني ليلة أمس. تعرفت إلى "ريموندا" التي استندت إلى ذراعها، وصاحب الفندق المصري الذي عرفت الآن أن اسمه "أمجد"، أو "ميجو"، ويشبه "شادي عبد الهادي" بشكل مخيف. تقاسيم وجهه، وشعره الفاحم وقميصه الكتان الأبيض. لو كُنتُ رأيته عن بعد في الطريق لظننته "شادي"، إلا أن "ميجو" يفوح منه عطر ذكوري فاخر، ما كان ليستعمله "شادي"، حتى لا يمحو على حد قوله "نكهة المادة الخام لجسد الإنسان".

سلَّمتني "ريموندا" كارت شحن چورچيا تركه لي "مطيع" معها لأعاود الاتصال بصاحبة الشقة، وبضعة "لاريهات" فكَّة للتاكسي، وأوصاها بألا تتركني أغادر حتى تطمئن أنني عثرت على المرأة. سألت "ريموندا" إن كانت تعرف رقم تليفون "مطيع"، فأجابت بسلاسة أن "موتي" موجود دائمًا في مكانه الثابت بجوار مقهى مسرح "ريزو جابريادزة"، ولا يحمل التليفونات ألبتة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(3)

النُّسَخُ الأربعون التي خلقها الله من كل شخص تقع دائمًا من نصيبي أنا لأتعذَّب بها، وكأن ولعي بالتَّفرُّد ذنب أو خطيئة تستوجب العقاب. "تارا" صاحبة الشقة وشقيقة "أنستازيا" جارتنا في "الدرب الأحمر"، تشبهها بشدَّة، إلا أنها تكبرها بسنوات، الأمر الذي يُربكني دومًا إذا ما رأيت أشقاء، ويجعلني أعقد المقارنات عن أي الشبيهين الأصلي وأيهما المُكرَّر. وقفت "تارا" بظهرٍ منحنٍ أمام البناية رقم 111 شارع "آجماشينيبيلي" بملابس البيت، يعتريها إحساس عارم بالذنب لأنها غلبها النُّعاس لما تأخرْتُ عن الموعد المحدد لوصولي ليلة أمس، فأغلقتْ الأنوار ونامت. كل الأمور تحيلني إلى أشياء مكررة أردت نسيانها، "أمجد" صاحب فندق "ميجوتيل" يشبه "شادي عبد الهادي"، و"تارا" التي تماثل "أنستازيا" في الشكل ونبرة الصوت. حتى اسمي الذي كان يميزني مثل فستان "هوت كوتور" لم يصنع منه المُصمِّم سوى قطعة واحدة، أظنه هنا بالآلاف وأبسط مثال "تارا" نفسها، التي تدعى بالأصل "تمارا". صرت هنا في چورچيا مثل زوجي "محمد الخيَّامي"، الذي من فرط تداول اسمه الأول كانوا ينادونه بـ"خيَّامي"، وكأن لا اسم له سوى صفة جدٍّ جدِّه. الأمر الوحيد الذي يسعدني حين أراه يتكرر هي الأرقام التي أصادفها، مثلما كان يحدث مع ساعة الحائط الخشبية القديمة في بيتنا بـ"جاردن سيتي"، التي كلما وقعت عيناي عليها وجدت الساعة 10:10 أو 8:08 وأرقام أخرى كثيرة كتاريخ مولدي في اليوم السابع من شهر سبعة، وغيرها من المشاهدات التي كانت تحيرني لأنني لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرف لها تفسيرًا. وحين تعمَّقت في البحث في أسرار الأرقام، تبيَّنت أنها رسائل وإشارات من عالم علوي، تطمئنني بأن لي ملاكًا حارسًا يرعاني عن بُعد، ويفرد أجنحة لا مرئية ليظللني بها. ولا بد أنه يطوف بهذه البناية التي تفاءلت برقمها 111، وتمسَّكتُ بحقِّي في الإقامة بها، حتى وإن صادفتني العثرات في البداية. سأمكث شهرًا كاملًا بهذه الشقة، سواء قابلت القس في اليوم الأول أم في اليوم الثلاثين. فالروح تحتاج إلى هدنة والجسد يتوق إلى بعض الدلال، بعد أن غادر "چيمي جدو" وطار بعيدًا.

سلَّمتني "تارا" حلقة بها أربعة مفاتيح بأحجام مختلفة، أكبرها يفتــح البوَّابـة الخشـبية الأنيقـة بواجـهة العمـارة فـي شـارع "آجماشـينيبيلي". حـاولت أن أخفـض صـوت لـهاثي، وأنـا أحمـل حقـائبي الثقيلـة إلـى الدور الثاني، ثم الثالث، حتـى أنصت إلـى تعليمات "تارا". لا حفلات، لا تدخين، الإبقاء على نظافة الشقة كما تسلَّمتها، والتشديد على غلق الأبواب بالمفاتيح الأربعة. تفتح "تـارا" بـابًا آخـر يفضـي إلـى دهليـز بالـدور الثالث يضم شقتين، إحداهما شقة "تارا". لفت في قفلها المفتاح الثالث وهي تشير إليه لكـي أحفظـه، وأنـا أثـق أننـي فـي كل مشوار سأجرب المفاتيح الأربعة دون جدوى مثل لص مُرتبك. واجهني سلم حلزوني يؤدي إلى الجزء العلوي الذي من المفترض أن يكون مسكني، ويُفتح بالمفتاح الرابع.

تـركتني "تـارا" وأنـا أشـعر أننـي كـالعروس الخشـبية الروسـية "ماتريوشكا" التي تخرج من بطن عرائس عدة، أو كأنني أغوص في صمت مقبرة عميقة تتجه إلى أعلى. أحكمتُ إغلاق الباب بالمفتاح الأصغر وبدأت أتجول في الشقة الصغيرة الفاخرة وأنا أمـرُّ سـريعًا علـى كـل ركـن وأدقِّق فيـه، مثل جاسوسة تتلصَّص وتجمع بيانات في عجلة.

لم يكن اختيار "أنستازيا" لتسكن في باحة "الدرب الأحمر" عبثيًّا، كما لم يكن ترشيحها لشقة أختها لي من قبيل الصدفة، فبلكون شقة "تبليسي" يطل على باحة نسخة طبقة الأصل من نظيرتها في "الدرب الأحمر". الفارق الوحيد هو أن واجهة عمارة "تبليسي"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقع في شارع تجاري فخم، واجهات مبانٍ مُرمَّمة حديثًا، ومطلية بـألوان الباسـتيل الفاتحـة، ومزينـة بـالورود الجصية البيضاء والأعمدة الرومانية.

تبدَّدت في البلكون الخشبي الواسع كل المخاوف التي انتباتني أثناء صعود سلالم العمارة مع "تارا"، فالرقم 111 كان فقط رقم باب يفضي إلى عشرات العمارات المتلاصقة كمُصلِّين يأمرهم الإمام بأن يُساووا الصفوف حتى لا يخترقهم الشيطان. لكل بناية أدوار ثلاثة، لكن من فرط التلاحم بالعرض، يتلاشى الإحساس بالارتفاع، وتبدو الباحة كقطعة من القماش العريض المفروش كبساط مريح. تمتلئ البلكونات بنساء يرتدين ملابس النوم القطنية، ويكلمن بعضهن عن بُعد، ويناديـن أطفالهن وأحفادهن الذين يلعبون في الباحة، لعبات جماعية لها أغنيات يرددون لها اللحن نفسه للعبة "كُلوا بامية"، لتذكرني برائحة "الويكة" التي كانت تطهوها "أم ديدو" وتشيع نكهتها في بئر السلم.

تمتد أحبال الغسيل بين البلكونات بعرض الشارع كالشرايين، إلا أنها مزينة بالسراويل الجينز والتيشيرتات الصغيرة، وملابس حداد ونوم وبشاكير زاهية وملاءات وجوارب أطفال. وكعادة الأمهات التقليديات، ينشرن الأصغر فالأكبر في ترتيب مدروس، على الرغم من أن كل شيء مكشوف ها هُنا بعرض الباحة. تتقاطع الأحبال وكأنها شبكة اتصالات وجسور رفيعة للتواصل بين أهالي البيوت. يصلح هذا المشهد كتصميم مطبوع على تنُّورة واسعة أو لوحة سياحية مكتوب عليها "أحب تبليسي". شبكة الخطوط المتداخلة نفسها والمعقدة لمترو الأنفاق في لندن استلهمتها زوجة "ألبرت"ورسمتها في لوحات زيتية، وأقامت بها معرضًا كدليل على الغربة والقُبح.

حين تفرَّجت على "تبليسي" من التلفريك منذ عامين، حسدتهم على أسطح رائقة بلا كراكيب. أدركت الآن أن قراميد الأسطح المائلة هي التي منعتهم من تستيف أشيائهم فوقها خوفًا من انزلاقها، فسلم العمارة المقابلة يماثل سلم الخدم الحلزوني، ويفضي إلى بلكونات مكتظة بدواليب التخزين التى تقشَّر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلاؤها وحقائب من عهود مضت، ونمليات قديمة وألواح خشبية مستعملة، وأُصُص زرع تشقَّقت. إنها تراكمات الحروب التي تجعل البشر يتلمَّسون الأمان ولو في أطلال خزفية متكسِّرة، على الرغم من أن أبوابهم مفتوحة وأطفالهم يلهون في الباحة من فرط الأمان.

هذه البناية تماثلني أنا و"تُقى"؛ واجهة غربية أنيقة، تفضي إلى باحة خلفية شعبية. أما تلك الجدران الخشبية التي أكلت الرطوبة طلاءها، تُشبه رداء من الدانتيلا اصفرَّ لونه فصار تراثًا، أو كعجوز تطل من ملامحها آثار جمال الصبا، فيسرح الآخرون في كيف كان شكلها في الماضي، تمامًا مثل تيتة "نازلي سنجر".

تنشط العصافير وهي عائدة إلى أعشاشها قبيل الغروب. أجرِّب المقاعد الوثيرة والهزَّازة المنتشرة بأرجاء البلكون مثل طفلة تلهو، ثم استقر فوق الأريكة الأرجوحة المواجهة لمروج وجبال ملونة تلوح عن بُعد، وتنبثق منها أشجار كأشجار الكريسماس تجاورها قباب وأبراج كنائس وقلاع من العصور الوسطى، على خلفية من لوحة سماوية مرسومة بإبداع إلهي بدرجات الأزرق، ومشربة بحمرة الشفق. ألتقط صورًا عديدة للمشهد النادر من خلف شجرة التوت التي ترمي بأغصانها بداخل البلكون، وقد نسيت الهدف الأصلي من الإمساك بالتليفون قبل دقائق.

يتصدر اسمه قائمة الأسماء ببريدي الإلكتروني، من كثرة ما مررت على رسائله بعيني ليل نهار.

القس "أندراوس"..

بعد التحية،

وصلتْ مساء أمس إلى "تبليسي"، وأقيم في 111 شارع "آجماشينيبيلي". أحضرتُ فردة القرط القديمة والإنجيل، بحسب الاتفاق. رقم تليفوني الجورجي 995558654153+.

برجاء سرعة الاتصال وإرسال رقم تليفونك وعنوانك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكم جزيل الشكر،

"تمار الشوافيلي".

لم أعنِ الجملة الأخيرة تمامًا، فليت القس "أندراوس" يفتح بريده الإلكتروني غدًا أو بعد غد، لألتقط أنفاسي بعد عناء الرحلة التي استغرقت يومين يصطخبان بأحداث غير مترابطة. أم تراني لا أرغب في إنهاء المهمة سريعًا التي جئت من أجلها، لأنني أستمرئ فكرة البقاء وحيدة وبلا قيود في مكان أليف؟ عجيب أنني أتحدَّث الآن عن التشابه بين الأمكنة على كونه أُلفة وليس تكرارًا رخيصًا مثلما كُنتُ أشعر مع "محمد الخيامي". تهتز الأريكة الأرجوحة فأشعر بالنعاس وأغلق عينيَّ فكأن وجه "محمد الخيامي" وأخيه "أحمد" يُحملقان في وجهي ويقتربان منِّي بشدَّة، فتتداخل ملامحهما وتسيح في الغفوة القصيرة التي أفيق منها على صوت انفجار.

مع أول خيوط كل ليلة، تضيء سماء "تبليسي" بنجوم صاخبة، تنطلق كمُفرقعات متتالية من مسدسات الألعاب النارية، تعقبها شهقات الانبهار برؤية التشكيلات المُشعَّة في السماء، احتفالًا بزفاف العرسان في الكنائس المتناثرة فوق الرَّبوات. الطلقات التي أفزعتني في حفل زفافي على "محمد الخيامي" لم تعقبها نجوم براقة ملونة تتشكل على هيئة ورود ونوافير ضوئية في الهواء. فقط طلقات من مسدسات صوت وأسلحة حقيقيَّة في أيدي أقاربهم الريفيين الذين دُعوا إلى الزفاف وأرادوا أن يجاملوا على طريقتهم. لم يشعرني بالطمأنينة في تلك اللحظات سوى أن ذراعي كانت لا تزال مشتبكةً في ذراع "چيمي جدو"، الذي كان يتلمَّس الأمان هو الآخر من تلاحمنا، قبل أن يُسلِّمني بدقائق لـ"محمد الخيامي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

(4)

صحوت مفزوعة في الخامسة صباحًا على صوت رنَّتين من جرس باب شقة "تبليسي"، وكأنما مطرقة معدنية تدق بجوار أذني. ولما أفقت قليلًا، تذكَّرت أنها رنَّة رسائل البريد الإلكتروني على تليفوني المحمول. رأى القس "أندراوس" رسالتي ليلة أمس، وأرسل الرد على الفور، لكنني كذَّبت عينيَّ حين قرأت محتويات الرسالة. لو لم يكن قسًّا أرثوذكسيًّا ومُلتزمًا كما عرَّفني بنفسه، لظننته مخمورًا أو معتوهًا. تجاهل الرجل كل توتُّري وترقُّبي للمقابلة التي ستجمعني به وتبدل مسار حياتي، وأرسل لي قائمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأسماء أفضل الطهاة الذين يجيدون تقديم الأطباق الجورجية في مطاعم ومقاهٍ بالمدينة القديمة. والأغرب أن هذا الجزء كان على رأس قائمة تتضمن أماكن مقترحة لقضاء الأمسيات مع تناول النبيذ المعتق من مزارع الكروم العريقة. كان بالرسالة أربعة عشر بندًا، كلها مناطق للتنزه والتسوق، حتى إنني شككت في أنني قد وقعت فريسة لإحدى المواقع الإلكترونية السياحية التي تترصَّد هواة السفر.

بقدرما كُنتُ أرغب في أن يتأجَّل لقائي بالقس لبعض الوقت، بقدر ما استفزَّتني رسالته، فقد منحتني إحساس امرأة كانت ترغب بالطلاق، لكنها شعرت بالمهانة حين بادرها زوجها وتركها، مثلما فاجأني "خيامي" وغادر دون سابق إنذار.

لم يدرِ أحد بخبر طلاقي ولا حتى تيتة "نازلي"، فقد كان هذا هو سري الكبير مع "چيمي جدو"، بعد أن هددني أنه سيكون فراقًا بيني وبينه هو أيضًا إن أخبرتها أنه هو الذي ذهب بنفسه إلى "خيامي"، وأقنعه بأن يكون بيننا سراح بمعروف، وشهد بنفسه على وثيقة إبراء ذمة من كل حقوقي الزوجية. أما الجميع فقد تعاملوا معي كأرملة مكلومة حين كُنتُ أبكي بحُرقة بعد تلك الواقعة بساعات قليلة، وأنا أتلفَّح بالوشاح الكشمير الأسود وأتلقَّى العزاء في "محمد الخيامي".

باغتتني نغزة فرح في القلب لما تذكَّرت أنني أنام الآن في سرير آخر في بلد غريب، وأن هذه هي الليلة الأولى في حياتي التي أقضيها في شقة بمفردي، على الرغم من صولاتي في الأسفار البعيدة والتجوال. كُنتُ دائمًا إما بصحبة "چيمي جدو" وتيتة "نازلي" في شقة "جاردن سيتي"، أو نزيلة في فندق، أو بيت شباب، أو شبه زوجة في شقة "محمد الخيامي"، التي شاركتنا فيها والدته، وكانت لها مفاتيح أربعة بعدد إخوته.

أطمئن على المفاتيح الأربعة التي سلَّمتها لي "تارا"، والتي ستفتح لي المغاليق لكي أتنفس هواءً جديدًا في مدينة "تبليسي". لم أهرع كعادتي لأعرف التفاصيل التاريخية الدقيقة لشارع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"آجماشينيبيلي" الذي أقطنه، واستبشرت خيرًا بما كُنتُ قد قرأته مُسبقًا عن آخر ما آل إليه وهو أنه قد رُمِّم وتجدَّد وصار زاهيًا باهيًا، بعد أن تبدَّلت عليه أسماء قواد المستعمرين وخربته الحروب. ثم حمل أخيرًا اسمًا تاريخيًّا للملك "ديفيد آجماشينيبيلي" الذي حرَّر شعبه فأحبُّوه. إلا أنني لم أستطع مقاومة النَّهَم في التلصُّص على الأحداث التي مرَّت على مَن عاشوا في الشقة التي تُؤويني من خلال آثارهم، أقصد ما يتناثر حولي ويحمل نفحات من أنفاسهم وعبقهم. تركت روحي تسيح في المكان لتتعارف وتأتلف مع الأرواح الهائمة.

أرتِّب الفراش على الطريقة نفسها التي وجدته عليها مثلما أمرتني "تارا". اليد التي أعدت تلك الغرفة يد مدربة على التنسيق المحترف كعاملات خدمة الغرف بالفنادق، فقد لفَّت مفرش السرير على هيئة إوزة، ورصَّصت البشاكير بحسب المقاس وأولوية الاستخدام في الحمَّام، لكن بالغرفة طاقة لامرأة أخرى غير التي رتَّبتها، وكأنها قضت ليلتها معي فيها لتحرس مقتنياتها، ومنحتني شعورًا بأنه ليس من حقي أن أفتح الدولاب أو أدراج التسريحة الكلاسيكية القديمة. ما أحس به ليس هوسًا يلبسني بسبب مشاركة والدة "محمد الخيامي" وإخوته معظم تفاصيل حياتنا، وجعلني أصاب بعقدة أنني لست الحاكمة الآمرة في بيتي. الروح التي تهيمن على الغرفة تشبهني أنا؛ فقد لامستها حين نظرت في صورة المرأة المطبوعة على اللوحة القماش المواجهة للفراش، وكأنني أنظر في مرآة. قطعة القماش المعلقة على الحائط مطبوع عليها كولاج لشابة ترتدي زيًّا تاريخيًّا كأزياء نساء المماليك. تجلس بارتياح وترفع ذراعًا وتبسط يدًا وكأنما تهم باحتضان رجل، إلا أنها تضع ساقًا فوق الساق كحركة لا شعورية تعبيرًا عن الانغلاق العاطفي. أكاد أسمعها تهمس: "أنا أحب الحياة وأتوق لاحتضانها؛ لكنني لن أمنحها جسدي كاملًا"، وهو نفسه ما كُنتُ أفعله مع "محمد الخيامي"، كالعاهرات الشريفات اللاتي يمنحن كل الجسد إلا الفم، الذي يستبقينه للحبيب الذي يسكن القلب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدرَّبت على عدَّة سيناريوهات أواجه بها أسئلة الفضوليين الذين لن يهدأ لهم بال إلا إذا عرفوا سبب الطلاق، وأولهم تيتة "نازلي". جهزت قائمة بالحجج التقليدية التي يتداولها الناس بأنه عصبي، أو غيور، أو ضعيف، أو بخيل، ثم قرَّرت أن أرد بكلمة واحدة: "نصيب". كلمة سحرية تُسكت الأفواه أمام الإرادة الإلهية، وتجيب على لا منطق كثير من الأشياء، وأبرزها سبب موافقتي على الزيجة بالأساس.

لا يدفع الفضول أحدًا لمعرفة أسباب القبول بالزيجات، خاصة التي تبدو متكافئة. ولو عرف أحد بالحوارات الذي دارت بيني وبين "چيمي جدو" ليقنعني بالزواج من "خيامي"، لرمانا فورًا بالجنون، أو لردَّدوا جملة تيتة "نازلي" كلما رفضت عريسًا:

- لأ، ده أنتِ عايزة عريس تفصيل!

والمشكلة أن "خيامي" كان "جاهزًا"، أو بمعنى أدق يمتلك مصنعًا للملابس الجاهزة لزي عمال المصانع والسكك الحديدية وأفراد الأمن والبدل العسكرية. ملابس متكررة لا تتغير أو تتطور بمرور الزمن، بل تبلى وتشيخ مع مرتديها وتذهب إلى زوال. كان هذا أحد تحفظاتي على مهنة "خيامي"، الذي ورث المصنع عن أبيه، ويورد بعضًا من القمصان والسراويل السادة لمحل "چيمي جدو". الغريب حقًّا هو وسيلة إقناع "چيمي جدو" لي حين عرف كيف يلعب على وتر امرأة مهووسة بالتاريخ والموضة معًا. كان "چيمي جدو" يُكن تقديرًا لـ"محمد الخيامي"، ويمتدحه بصفتيّ "رجل، وطيب". وهما من الصفات التي كُنتُ آنذاك أعتبرها تسميات مائعة، نبرر بها محاولات تقبلنا لأشخاص بعينهم، حين لا نجد فيهم ما يستحق الانبهار. استغل "چيمي جدو" ولعي بالوشاحات الكشمير الدافئة الناعمة، وعشقي للدانتيل الأنثوي الرقيق، وحكى لي أن "كوكو شانيل" اشترت مصنعًا تم تأسيسه من مائة وأربعين عامًا للملابس المصنوعة من الصوف للجيش البريطاني في الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين. وفي خمسينيات القرن الماضي، باتت من أهم منتجي الكشمير المعتمدين في دور الخياطة الكبرى. لمح "چيمى جدو" تبدل حالى ونظرتى التى

50%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هامت بعيدًا مع جنود الحروب العالمية، وقصص حبهم الخالدة التي نشاهدها في الأفلام الأجنبية، فضرب ضربته الكبرى بأن ذكر الدانتيل، فرق قلبي وهفا إلى زهرات وردية وبيضاء مفرغة ومنسوجة بعاطفة أنثوية.

- عارفة إن مصطلح الدانتيل ده قبل القرن الستَّاشر كانوا بيقولوه على إيه؟ ع الشريط المضفر اللي بيزين الزي العسكري.

وقبل أن يستفيض جدو أو يعيد إلى الرَّف كتاب "تاريخ الدانتيل" النادر الذي اقتناه من مزاد، كُنتُ قد وافقت على الخطوبة وكتب الكتاب.

(5)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أندم لأنني جئت إلى "تبليسي" وأنا أكدِّس حقيبتين بعشرات الأطقــم الأنيقـة وملابـس الرياضـة والتـنزه والسـهرة، وشـال "الباشمينا" المحبب، على الرغم من أنني أتيت من أجل هدف آخر. فلقد أثبتت لي الحياة مقولة أن الأماكن تفقد سحرها، إن لم تكن ترتدي ما يليق بها، ويخذلك الأشخاص أيضًا إن لم يضعوا ملابس على قدر الحدث. في الليلة الأولى لزواجنا، والتي كانت شتوية قارسة، ارتدى "خيامي" بيجامة كستور مقلمة قديمة. ظننته في البـداية يقـدم لـي فقـرة ضـاحكة، واستعددت لأن أراه يخلـع الچاكيت ويفاجئني بثوب مغوي من الحرير الطبيعي أو بيجامة ماركة "بيير كاردان"؛ لكنه سحبني من يدي ودلفنا إلى الفراش، وفكك أزرار السترة الخشنة على جسد عارٍ غير مُتناسق، وظل خشب المدفأة يطقطق حتى الصباح. وفي فيلا المصيف التي تمتلكها أسرته، كُنتُ أشعر أنني حبيسة البراح لأنني لم أكن أشاهد سـوى ذقنـه التـي لا يحلقها احتفـاء بـالإجازة، والجلاليب التي ترتــديها إخوتـه وزوجـات إخوتـه مـن بـاب الراحـة الصـيفية والحشـمة، ولـم يكـن لائـقًا ألا أجاري أصول الملبس في المكان وأخرج من غرفة نومي بأزياء أقل التزامًا.

الملاءات المنشورة على الأحبال الواصلة بين عمارات الباحة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغويك بأن تجذبها وتلفها حول وسطك وتشبكها بدبوس ذهبي وتخرج فخورًا بما ترتديه، وكذلك ستائر البيت ذات الورود البهيجة، ومنسوجات الـ"ماندالا" المعلقة بأشكال دوائر متداخلة لزوم التأمل والاسترخاء، تدعوني كلها بأن أجذبها وأفصّل منها تنورات واسعة أو قصيرة على موضة الستينيات، أو أربطها حول رقبتي كالـ"كاش مايوه".

تدب في الباحة روح الصباح بأصوات أواني الطهي المعدنية، وأعمال النجارة وضجيج الشنيور، والأسماء الجورجية للأطفال الذين تناديهم أمهاتهم أو جداتهم. أسماء كلها دلال وليونة تتراقص في وسطها وآخرها حروف المد.. "تاتا"، و"نيكو"، و"زازا"، و"نينو"، وتليق بأبجديتهم المرسومة على شكل ورد وقلوب، بعكس باقي المفردات والكلمات الجورجية القليلة التي عرفتها، وتتخللها الخاء كثيرًا، فتجعلها خشنة وصلبة، كصلابة الأخشاب التي قرر أن يستوردها "خيامي"، ليعوِّض الكساد الذي بدأ يحل على مصنع الأزياء العسكرية. تحول "خيامي" في تلك الفترة إلى لوح خشبي عريض، كتلة صلبة لا تلين إلا حين تتفتَّت أو تحترق. كانت الألواح التي في المصنع الجديد تقذف على الأرض، مُحدثة جلبة مخيفة يصحبها زعيق "خيامي" في العمال، الذي لم يعد يفرق بيني وبينهم ويجلب صياحه معه إلى البيت، على الرغم من وجود أمه وإخوته. صحوت فجرًا ذات يوم على صوت خبط الأدراج التي نرصص فيها جوارب "خيامي"، لأجده قد بعثر بأنحاء الغرفة فردات الجوارب التي ابتلعت الغسالة الكهربائية فردتها الأخرى، وتركني ألملمها، ونصحني بأن أحتفظ بها لنفسي، ساخرًا من رأيي بأن قيمة الأشياء تأتي من تفرُّدها. لم يكن "خيامي" يشعُّ دفئًا إلا حين يشتعل رغبة ويحترق تمامًا ويذوب في نصف الساعة الذي تعقب جذبه لي من معصمي إلى الفراش، ويعود بعدها كما ولدته أمه طفلًا بريئًا نقيًّا. تلك الدقائق من الاشتعال التي كان يعقبها هدوء نسبي لم تكن تنسيني صخب وصلادة الألواح التي كُنتُ أراها تُقذف بقسوة في المصنع وتئنُّ تحت جسدي وتجعلني مُحمَّلة بالذنب؛ ففي عالم الأزياء الذي أنتمي إليه، لا يمكن أن تكون القماشة ناعمة وخشنة في الوقت

51%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسه، أو لونها فاتح وداكن، أو شفافة ومعتمة معًا مثل "خيامي".

أذوب في شارع "آجماشينيبيلي" بمحلاته العصرية وأرضيته الحجرية النظيفة التي تشعرك برغبة في السير في وسط الطريق، وعلى الرغم من مرور السيارات، فإن أكثر ما يلفتني هو كم اللوحات الزجاجية خارج محلات الصرافة التي تتبدَّل عليها الأرقام الحمراء بأسعار تحويل العُملات، وكأنك في ساحة مضاربة للبورصة، وتنتشر حولها أسر الشَّحَّاذين بطبقات من الملابس الرَّثَّة، وهم يستجدون قرشًا أو لقمة. يحيرني أمر البلاد التي تبيع طعامًا شعبيًّا شهيًّا ورخيصًا، ويشير شحَّاذوها إلى أفواههم باستعطاف كدليل على عوز الطعام. يداهمني الجوع فأستقر على منضدة لفرد واحد في مقهى فرنسي بأول الشارع، وأطلب قهوة أمريكية وفطيرة "خاتشابوري" من الحجم الصغير، فهي تكفي لأن تُشبع ثلاثة أفراد وتجعلهم يندمون على ما التهموه من أنواع الجبن السميكة السائحة بداخل العجين الساخن.

لم أتوقع حدوث الحمل بالسنة الأولى من الزواج، واعتبرت أن امتلاء بطني ما هو إلا زيادة مؤقتة في الوزن، وفرصة لتصميم ملابس واسعة وأنيقة مثل تصميمات "بالينسياجا"، التي كانت تداعب "چيمي جدو" في أحلام يقظته، وكان يقول إن الناس تصبُّ كل اهتمامها على ثوب الزفاف الأبيض الذي يحتفلون فيه لساعات قليلة، ولا يُبالون بالأشهر التسعة التي تليه. كُنتُ في تلك الفترة قد بدأت عملي مصممة في مصنع صغير للملابس المتميزة، إلا أنني كلما أمسكت بالقلم وواجهت كرَّاسة الإسكتش، يتلوَّث خيالي بالنشاز اللوني الذي يدخل ويخرج من البيت في سلاسة على أجساد أقارب وقريبات "خيامي"، فيكون بياض الصفحات الخاوية بحجة أن الإلهام لم يأتِ، أهون من رسم القُبح المحض الذي يتجول في خيالي.

شيء محرج أن تذهب إلى مناسبة ما وتجد أحدًا يرتدي مثل ثوبك، فما بالك أن تأتي إلى الدنيا وتجد شخصًا يرتدي شكلك؟ هكذا أفجعني الظهور المفاجئ لـ"أحمد" شقيق "محمد"، الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

ينادونه بـ"خيامي" هو أيضًا. لم يشهد "أحمد" خطبتنا ولا حضر زفافنا؛ لأنه بحسب قولهم كان على خلاف مع الكفيل صاحب المؤسسة التي يعمل بها في السعودية. كان "أحمد" و"محمد" كوجهي شال "الدورانجا - دوروكا"، الذي لا يمكن تمييز الوجه الصحيح له بسهولة، حيث يحمل أحد الوجهين تصميمًا موجودًا أيضًا على الوجه الآخر، ولكن بلون مختلف. كان لون "أحمد خيامي" باهتًا وكابيًا مثل خنوعه وعدم تناسق هندامه ومسحة العجز ومرمطة الغربة التي رسمت هالات سوداء وخطوط زمن شوهت وجهه، أو بالأحرى شوهت لي الملامح الشابة لـ"محمد خيامي". فبما له من ملامح تكاد تطابق أخيه الأكبر، لم أكن لأتجاهل نظرات البلاهة واللكنة الريفية وبهدلة الثياب وفساد الذوق وسنوات عمر "أحمد" التي صارت مقبحة لوجه زوجي. نصحني "چيمي جدو" في بداية زواجي أن أقف أمام المرآة وأنظر إلى نفسي من كل الزوايا، وأنتقي الفستان الذي يداري العيوب لكي أكون زوجة تُشرِّف زوجها؛ لكنني كُنتُ أرغب بشدَّة بعد ظهور "أحمد" أن أعمل بنصيحة "كوكو شانيل" وهي أنه على المرأة أن تنظر في مرآتها مليًّا قبل الخروج من البيت، وتخلع قطعة من الإكسسوار الذي ترتديه، وكان ما يحيرني أيهما أجدر بالخلع، "أحمد" أم "محمد"؟

صرخت بعصبية أثناء محاولات الولادة، ليس من فرط الألم مثلما تفعل النساء في الأفلام، بل من كثرة عدد أفراد أقارب "محمد" المُلتفِّين حولي والأعين المتشابهة المُحملقة فيَّ، والممرضات والأطباء الذين يطبقون على نفسي بزيهم الأبيض المتكرر. سمعت كلمات مثل مفيش نبض، وجهاز التنفس، وهنعمل صدمات للقلب، ثم لم أعد أسمع سوى صوت كحفيف سيارة مسرعة تحملني في نفق كأنه مظلم؛ لكنني كُنتُ أرى وجوهًا مليحة لأناس لا أعرفهم وأفسر ملامحهم بوضوح شديد. كانوا ينظرون لي في حياد وأنا أنزلق بسرعة بداخل النفق، وحين شعرت بأنني أكاد أسقط، لمع برق خفي وهمس أحدهم في أذني وكأنما ينصحني قائلًا "تسعتاشر"، ثم سمعت شهيقي وعدت للأصوات المألوفة التي تملأ الغرفة وهم يرددون:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حمدًا لله على السلامة.. البيبي يتعوَّض.. المهم سلامتك.

كان أول ما لمحته لحظة الإفاقة هو 19 في الساعة الرقمية المواجهة لفراشي، وتصادف اليوم الذي تحدد لرحلة النقاهة التي كان سيرافقني فيها "خيامي" إلى "وادي الريان" مع يوم 19/ 9. كانت ليلة قمراء بها لسعة برودة فتلفحت بشال "الباشمينا" الكشمير الذي يبثُّ دفئًا ناعمًا دون أن يخدش جلدي. كُنتُ قد غسلته برفق بالشامبو قبل هذه الرحلة بيومين فقط، ونلت نصيبًا من التريقة من "آل خيامي"، لا تدل سوى على جهل بصوف الكشمير الأصلي الذي يتطلب صناعة شال واحد منه أربع سنوات لكي يطول شعر الماعز الهيمالايا، الذي يفوق جودة شعر الإنسان بستة أضعاف. لم يكونوا ليفهموا سوى لغة الأرقام؛ لكنني حين أخبرتهم أنني قد دفعت فيه ستمائة دولار، صرخوا دفعة واحدة وتحسروا على حظ أخيهم العسر، الذي أوقعه في سفيهة مثلي. أناس كلما أتت سيرة كلبي "چاكيت" أمامهم يسألونني متى سنقوم بتسريبه، ليس لهم أن يفهموا أن هذا الشال لا يعوضني اشتياقي لنعومة فراء كلبي "چاكيت" فحسب؛ بل يحل محل حضن كان يجب أن يمنحه لي أخوهم الذي لا اسم له، لأن ملوك الموضة يقولون إن أفضل شال تتدثر به المرأة هو ذراع رجل تحبه.

صعدنا تلَّة صخرية أنا و"خيامي" على ضوء القمر وأنوار التليفونات المحمولة مع فوج رحلة "وادي الريان". كنا نشبه أهالي القرى الريفية الذين يحملون المشاعل ليلًا، وهم يعتزمون على أمر جلل؛ لكننا كنا فقط نتوق إلى قليل من الفرح الذي تمنحه روح المغامرة. استقررنا بجوار كهف، ورمى الشباب أخشابًا كثيرة وأشعلوا بها النار للتدفئة، وأخذوا يدندنون بأغنيات بدائية، أعادتني لزمن رحلات المدرسة وحفلات السمر بالنادي مع "فادي أباظة". اقترح أحدهم لعبة أن تغمي ثلاث نساء أعينهن، ويضعن أمامهن ثلاثة رجال، وعلى كل واحدة أن تتعرف بإحساسها على زوجها. وضعوا ضمادة على عينيَّ، وأخذت أتحسَّس شعر وأذني وذراعي الرجال الثلاثة. لم أتعرَّف على "خيامي"، فأعدت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحاولة. تآلفت أناملي ووبرة ناعمة من كوفية من الكشمير المخلوط بالحرير وتمسكت بها. الكشمير الذي لعب "چيمي جدو" على ولعي به، لأنه قديم قدم حضارات بابل، وآشور، والتبت، وأقنعني بأنه يمتُّ بصلة ما لعائلة "خيامي". تشبَّثت بالكوفية الناعمة حين رنَّت في أذني المقولة بأن الرجل لا يمكن أن يكون غاية في الأناقة من دون لمسة أنثوية، وقلت بثقة وسط تهليل شباب الرحلة وتصفيقهم:

- هو ده جوزي.

لم يكن "محمد خيامي" هو صاحب الكوفية، وخسرت في اللعبة، لكنني سمعت صدى آتيًا من خلف صخرة يهمس في أذني للمرَّة الثانية بكلمة "تسعتاشر"، وقد كانت هذه هي بداية شغفي بفك أسرار الأرقام. فتَّشت عن سر الرقم تسعة عشر. يقترن هذا الرقم بأشخاص ممتصِّين بداخل أنفسهم ويقومون بأمور غير عادية. يدل الرقم تسعة عشر على أن العلاقة التي أنت بداخلها قد استنفدت أغراضها، وأن هناك بابًا لا بد أن يغلق، ليُفتح باب جديد.

ما كان يمكن لأحد سوى "چيمي جدو" أن يتفهم قراري بطلب الطلاق من "خيامي" لأنني فشلت في تمييزه وأنا مغمضة العينين في لعبة ما، أو لأنني أخطأت في التعرف على ملمس ثيابه. ف"جمال الشوافيلي" فقط هو مَن يعرف أن الحياة كدنيا الأزياء، بها تصميمات جيدة تقبل التطوير وتستمر طويلًا كموضة وأسلوب مُتبع، وهناك أفكار سطحية تأخذ فترة قصيرة ثم تختفي مثل التقليعة. العجيب أنه بعد ساعات من الزيارة التي قام بها "چيمي جدو" لمخزن الأخشاب للاتفاق على الطلاق من "خيامي"، ذهب إلى المكان نفسه أحد معارف أخيه، لتحصيل بعض الأموال التي اقترضها منه "أحمد" ولم يردها.

دخل الرجل ثائرًا على "محمد الخيامي"، وقد أعماه الغضب عن ملاحظة الفروق الطفيفة بين وجهيهما، ولما أقسم له أنه ليس "أحمد" أخيه، ظنه يتهرب من سداد الدين، ودفعه بقوة نحو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمات غدرًا في حادث تشابه.

طلبت من الجرسون أن يلفَّ لي ما تبقَّى من قطعة "الخاتشابوري"، بعد أن عرفت أن سعرها في المقهى الفرنسي يساوي تسعة لاري، بينما تباع ساخنة وشهية بلاري ونصف اللاري في الفرن المقابل للبيت. أحكمت شال "الباشمينا" الأكاسي ذي الستمائة دولار حول ذراعي، وشعرت بالزهو لأنه من النوع الأرقي الذي ينسج له وجه واحد فقط. قطعت شارع "آجماشينيبيلي" سيرًا على الأقدام متجهة إلى آخره من الناحية الأخرى، حتى أوفر أربعة لاري ثمن التاكسي.

(6)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أندم للحظة لأنني تنازلت عن حقوقي كافة، ولم أرث "محمد الخيامي"، فالناس يحق لهم أن يرثوا أشكال وطباع مَن يحبونهم فقط، وكذلك أموالهم بعد وفاتهم. لكن هذا لم يمنع أن طريقة موت "خيامي" المأساوية قد أرشدتني إلى ثروة أخرى حصلت عليها بفضل "ألبرت".

المرَّة الأولى التي رأيت فيها "ألبرت" في "الدرب الأحمر" كانت منذ حوالي أربعة أعوام. سمعت صوته في بئر السلم، شعرت أنني انتقلت إلى حصة اللغة الإنجليزية بالصف الأول الثانوي، فقد ظننته بالفعل مستر "جونز" مدرس اللغة الإنجليزية. كُنتُ أغمض عينيَّ في الفصل لكي أسمح لخيالي بتصوير كل المشاهد التي يشرحها مستر "جونز" بأدائه الدرامي في رواية "زهور للسيدة هاريس". لم أكن مُولعة بالأدب الإنجليزي؛ بل بحكاية الفستان الفاخر ماركة "كريستيان ديور" التي تسعى الخادمة الفقيرة العجوز بطلة القصة أن تقتنيه، وقد وقعت عيناها على فستان "ديور" ذي الورود الزاهية في دولاب سيدتها في لندن. لم تنم الليل منذ ذلك اليوم، وقررت أن تستغني عن التدخين والسينما،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأن تشتغل بأعمال إضافية وتدخل في مراهنات وتقامر لتحصل على الثمن الباهظ للفستان، وتذهب لشرائه من بيت أزياء "ديور" في باريس بعد عامين كاملين من المعاناة. وهناك تصادفها العثرات أيضًا... وتتوالى الأحداث.

كان قد مرَّ على وفاة "خيامي" حوالي ثلاثة أشهر، وكنت قد قرَّرت في ذلك اليوم أن أجرِّب تطبيق قوانين الموضة على حياتي، علَّها تفيد في التغلب على آثار حدثين عظيمين أحدثا وجعًا مثل خبطتين في الرأس؛ الطلاق والتَّرمُّل. والنظريات تقول: "اضغطي دولابك".. "الموضة هي فن الآن".. "لا تحتفظي بفستان كان يجلب لك صفارات الإعجاب في الماضي، فقد يتحوَّل الإعجاب إلى تريقة، بعد أن زاد وزنك، أو كبر عمرك". اعتَبَرتُ حكايتي الأليمة القصيرة مع "خيامي" مجرد فساتين ذهبت موضتها وتزحم الدولاب وتكرمش الملابس الأخرى التي تليق بي وتناسبني في اللحظة الآنية.

كان يومًا خريفيًا يحثُّ على التأنُّق والخروج، فارتديت فستانًا أسودَ "شانيل" محبوكًا على تفاصيل جسدي، الذي صار متناسقًا جدًا بعد أن قام الحزن بفضيلته الأجمل للنساء؛ تخفيض الوزن. ما كان يناسب هذا الرداء سوى حذائي الأسود "الكريستيان لوبوتان" ذي الكعب العالي الرفيع، والنعل الأحمر الذي يجعل لكل خطوة سحرًا بلون الغواية. تخدع نفسها مَن تقول إنها ترتدي الملابس الجميلة لإرضاء جسدها هي فحسب. قد يكون هذا صحيحًا في الدقيقة الأولى التي تتأمَّل فيها أناقتها في مرآتها، لكنها في الدقيقة التالية تفكر في وقع هذا المشهد على وجوه الآخرين، رجالًا كانوا أم نساءً. لطالما هرعت إلى حفلات في النادي كان سيحضرها "فادي أباظة"، لمُجرَّد أن أفرِّجه على بلوزة جديدة. وكثيرًا ما تنازلت عن غضبات صغيرة منه، ورضخت لطلبه بمقابلتي لأنني أكون قد اشتريت فستانًا للتَّوِّ مصادفة، وكنت أتلهَّف على أن يراني به.

كان بيني وبين "ضيا" وعد مؤجل منذ شهور، بأن نتقابل لتناول العشاء أو القهوة في مكان هادئ، حيث يمكننا أن نتحدث مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

ذي قبل، دون أن تقاطعنا الزبونات اللاتي يدخلن دكَّانه، أو يضطر لتركي بالداخل ويخرج لمحاسبة المُورِّدين، أو للشجار مع الصنايعية. قرَّرت عمل مفاجأة لـ"ضيا"، فركبت التاكسي، ومررت عليه في الدكَّان، فقيل لي إنه في شقة الفنانين عند "أنستازيا" في "الدرب الأحمر"، فلم تضعف همتي، وانطلقت إلى الدرب. رفض سائق التاكسي أن يدخل شارع "أبو حريبة" الضيق، فاضطررت للسير بالكعب المدبب ذي الاثني عشر سنتيمترًا فوق المدق الترابي، وكأنني عارضة أزياء مبتدئة تحاول ضبط توازنها على الـ"ران واي". واتتني فكرة أن أمرَّ على "تُقى"، فربما وجدتها وسلَّمت عليها، وحتمًا سأجد عندها حذاء مُفلطحًا يُهدِّئ قدميَّ اللتين اعتصرتهما الأناقة المُفرطة. كانت شقة "باتريك" مرمم الآثار الإنجليزي مفتوحة بالدور الأرضي، فناداني وأخبرني أن لا أحد بشقة "تُقى" منذ شهور، ودعاني للاحتفال معهم بعيد ميلاد صديقه "ألبرت"، مراسل قسم الترحال والسفر في الـ"بي بي سي".

توقَّف "ألبرت" فجأةً عن الحكاية التي كان يسردها بطريقة مسرحية على المُلتفِّين حوله وتتعلَّق أنظارهم به بشغف، وأخذ يتأمَّل وجهي ثم جسدي ثم ساقيَّ فتوتَّرتُ قليلًا. ولما نزل ببصره إلى قدمي وتوقَّف كثيرًا عند حذائي "الكريستيان لوبوتان"، ظننته كالرجال الذين لديهم عُقد نفسية ويعشقون أقدام النساء، لكنني تفاجأت بأنه يكتم الضحك من احمرار وجهه، ونفرة عروق جبهته، ثم انفجر في نوبة قهقهة، وهو يشير إلى المدق الترابي، ثم إلى حذائي مثل بندول ساعة، ولولا أن اقترب منِّي وطلب أمام كل الحاضرين أن أصير مُلهمته في مشروع تصوير المعالم الأثرية، لشعرت بالإهانة البالغة من سُخريته من طريقة ملبسي. إلا أنني ما كُنتُ لأستردَّ كرامتي كاملة إلا أن بعد أن أظهرَه كجاهل أمام أصدقائه، فقلت بصوت مرتفع كطفل يثبت براءته:

- على فكرة موضة الكعب العالي اخترعوها الفرنساويين، عشان كانت بتلمّ تراب وقاذورات أقل من الشارع، ومش بتوسَّخ طرف الجيبة زي الجزم الواطية.

أقطع شارع "آجماشيبيلى" حتى منتصفه، وأتوقَّف عند محل

54%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسمى "صُنع في تبليسي" بجوار العمارة التي أسكنها، كلما لمحته وجدته مغلقًا، أو على ما يبدو أنها إجازتهم السنوية. تبدو الواجهة بطلائها التقليدي كمحلات حقبة الستينيات، وتشبه الفساتين الكتان و"الترجال" الواسعة المعروضة فيه الموديلات الأنيقة الفضفاضة التي كان يرسمها "چيمي جدو"، أو تصاميم موديل "الشوال" لـ"بالينسياجا". تصلح هذه التصاميم المريحة لامرأة في ظروفي، تقدر الملابس الأنثوية ذات الحليات والقصات، لكنها قد التهمت توًّا نصف فطيرة "خاتشابوري" تصلح لثلاثة أفراد وهي تتسكَّع على الفاترينات، ولا تشعر بالندم. حمدت الله لأن المحل مغلق؛ لأنه لو كان مفتوحًا لضحَّيت بسبعين لاري "بعد الخصم"، واشتريت الفستان النبيذي اللون الذي أشتهيه، وأخشى أن أندم إن أصابتني حمى الشراء، وقد قسَّمت المبلغ المحدود الذي أتيت به، على عدد الأيام التي سأقضيها في "تبليسي".

ظننت أن "ألبرت" كان يُراضيني حين عرض عليَّ أن أصبح "موديل" لصوره، كنوع من الاعتذار عن وقاحته، لكنه طلب من "باتريك" أن يحضر لي حذاءً رياضيًّا مُريحًا من أحذية زوجته لأننا سنبدأ العمل فورًا. أمران كانا يشعرانني بالدُّوار حين أتخيَّل أنني سأضطر للعمل بهما؛ الأول أن أصير "موديل" في عروض الأزياء، بمقاييس جسدي، التي على الرغم من تناسقها، لا تمتُّ بصلة لنحافة وطول قامة العارضات. والثاني هو أن أظهر في آخر العرض كمصممة مجموعة الأزياء التي سترتديها العارضات الرشيقات، فأبدو أقل جودة من الكائنات التي صنعتها وصفَّق لها المُتفرِّجون على الـ"ران واي". راقت لي فكرة أن أصبح "موديل" افتراضية على الورق؛ لكن "ألبرت" الذي ظننته مُعجبًا بهيئتي كاملة قال لي إنني سأكون شريكته في مشروعه الفني بالوجه فقط، ثم أضاف هامسًا:

- على الرغم من أن الكعب الرفيع الذي اخترعه الفرنسيون لتحاشي قاذورات الطريق في شارع "أبو حريبة"، يجعل ساق مَن ترتديه انسيابية وجميلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان "ألبرت" يهدف إلى أن يُثبت إحدى فضائل الترحال، وهي كيف يجعلك السفر متواضعًا حين تكتشف كم تحتل مكانًا ضئيلًا جدًّا على خريطة الكون، وكان يريد وجهًا للتصوير يتآلف مع كل المعالم الكبرى. قال لي إن وجهي يصلح شمال أفريقي، وعربي، وآسيوى، به مسحة بحر متوسطية. وقد كان هذا هو ما كتبه في خطاب التزكية لبيت أزياء في لندن يعرض ملابس الشعوب. مَسَّ "ألبرت" رغبة فيّ أن أرى كم تصبح مشكلاتي الشخصية تافهة، لو ظهرت بوجهي في صورة، وفي الخلفية معالم أثرية تصطخب بأحداث دامية وبطولات وهزائم غيَّرت مجرى التاريخ.

استفزَّتني مهارة "ألبرت" الذي كلما اقترحت عليه موقعًا للتصوير، أجده قد ذهب إليه ويحفظ تاريخه أفضل من "المقريزي"، و"الجبرتي"، فقرَّرت أن أبهره بأماكن من تاريخي الشخصي. ذهبت به إلى دكَّان "ضيا" الذي لا تزيد مساحته على غرفة صغيرة، لكنه انطلق منه إلى آفاق جمالية وتاريخية وقبلية لم يكن ليحلم بها. لم يكن بالمحل ما يسمى الحوائط، فقد كانت مُغطَّاة بجلاليب بنقوشات فاقعة، أو مطرزة بخرز ملون وملاليم ذهبية وغرز من "سيناء"، و"سيوة"، و"فلسطين"، وطارد للأشباح وزينة للجمال وبراقع مشغولة بفضَّة يمنية، وأفغانية، وتركية. كان "ضيا" نفسه حكاية، بملامحه الغربية وملابس "البمبوطي" التي كان يرتديها في هذا اليوم. ثم حدثت جلبة خارج الدكَّان لنجد "ضيا" يقول لمُساعده "سامبو" إنه لا يثق بقسمه، لأنه "بتاع عفاريت". ولما هدأت المعركة الصغيرة، عرفنا حكاية "عم سامبو" الأسمر ذي الطاقية الأفريقية متعددة الألوان، والذي يجلس واضعًا ساقًا فوق الساق يطرز الأحزمة العريضة بمزاج رائق على قارعة الطريق.

كان "سامبو" يعمل في شبابه في محل جد "ضيا" ترزي قفاطين. وكان يحمل "ضيا" على كتفه وهو صغير. وبعد مرور زمن طويل، كان "سامبو" يسير أمام الدكَّان يائسًا من الحياة وتتملَّكه رغبة في الانتحار، فقابل "ضيا"، وتغيَّرت حياته بالكامل وعاد للعمل بالحياكة، بعد أن كان يعمل في قراءة الطالع وفك الأعمال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والسحر الأسود. لم تكن هذه هي الحكاية الأغرب، بل العالم الذي أخذنا إليه "سامبو" في حوش الغجر في سور مجرى العيون. ألبسنا "ألبرت" جلبابًا من عند "ضيا"، وارتديت أنا ملسًا صعيديًّا، ودخل بنا "سامبو" دنيا الغجر المحظورة على الأغراب، بصفتنا ضيوفه وشركاءً جدًا في العمل. سمح لنا بأن نصور اثنتين من زوجاته الثلاث؛ الراقصة، وضاربة الودع، أما الثالثة فهي التي تخدم في البيت، فقد مرَّت سريعًا من أمامنا قبل أن يحبسها عقابًا لها على أمر ما. استرقنا بضع صور خلسة في الحارة لأطفاله الذين يصبغ شعرهم باللون الأصفر، على الرغم من سمارهم حتى يتميزوا عن الصغار الآخرين من غير الغجر. عدنا إلى دكَّان "ضيا"، حتى يكمل عم "سامبو" قطعة فنية كان قد بدأ بها قبل أن يأخذنا إلى بيته. ولما وجد رأسه قد تعطَّل عن الإبداع، أشعل سيجارة حشيش وتقاسمها مع "ضيا" بداخل الدكَّان، بينما انتشينا أنا و"ألبرت" ونحن نشرب كوبين من الشاي بالنعناع والقرفة، وقد امتلأ المكان بعبق غامض بعدما دخل شحاذ صديق لهما، وفي يده مبخرة تفوح بأريج المسك والعنبر.

ذهبنا في اليوم التالي إلى أتيليه "چيمي جدو" بوسط البلد، والذي كان قد هجره من سنوات. كان كل شيء في موضعه، الماكينات، والأرفف المُكدَّسة بالأقمشة، ورائحة زيت الماكينة اللزج، والمقصات الضخمة، وغرفة القياس، المُطلَّة على ميدان "لاظوغلي"، وقد تراكمت الأتربة على حديد بلكونها المشغول بطرز أوروبية. صوَّر "ألبرت" وجهي، وفي الخلفية عمارات القاهرة الخديوية، وكل ركن سمعت فيه حكاية من حكايات "چيمي جدو" عن تاريخ بيوت الأزياء الفرنسية، وبدايات الموضة منذ القرن السابع عشر وحتى الآن. الحكايات نفسها التي كانت تأتي من أجل سماعها زوجات الزبائن مع أزواجهن، وينظرن لـ"چيمي جدو" بشغف وانبهار، على الرغم من أن تيتة "نازلي" قد حرمته من العمل كمصمم أزياء راقية للسيدات، حتى لا تقتلها الغيرة من ولع النساء به، ووأدت حلمه في أن يصبح مثل "تشارلز فردريك وورث". رفع "ألبرت" حاجبيه، وهزَّ رأسه كدليل على عدم معرفته بمن ذكرت اسمه توًّا. شعرت بالزهو لأننى تفوَّقت عليه فى معرفة

155 دقيقة متبقية 55%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسم رجل إنجليزي عاش في القرن التاسع عشر، ويعتبر أول مصمم حقيقي للأزياء، وبادئ صناعة الموضة كما نعرفها اليوم. قال "ألبرت" وكأنه قد حصل على جائزة:

- ها أنتِ قلت لي معلومة عن رجل إنجليزي لم أكن أعرفها ونحن في بلدك. تعالي إلى لندن لأخبرك بمعلومة لا تعرفينها عن مصر.

وقد كان هذا تحديدًا ما كُنتُ أصبو إليه في تلك المرحلة، أن أسافر لتحريك الرَّاكد والانتقال لمُجرَّد الانتقال.

بدأت قدماي تُؤلمانني بعد أن وصلت لآخر شارع "آجماشينيبيلي"، ففكَّرت بالعودة إلى البيت في تاكسي، لكنني لمحت فرع محل "ريفر آيلاند"، الذي كُنتُ أعمل به "ستايلست" في فرع لندن. برقت في رأسي فكرة أن أتسلَّى بالعمل لبعض الوقت في "تبليسي"، فاتجهت إلى مدير المحل مباشرة، دون أن أنظر إلى الملابس التي أحفظها عن ظهر قلب، لكن سرعان ما انطفأت الفكرة بعد أن اعتذر لي المدير لأنهم لا يعرفون ما يسمى "الستايلست" الذي يساعد الزبائن في اختيار أفضل ما يناسبهم، وإحداث تحوُّل جذري في هيئتهم في فروع چورچيا.

ما زال محل "صُنع في تبليسي" الملاصق للبيت مغلقًا، وما زال الفستان النبيذي المتَّسع ذو الكورنيش المُلتف بميل على ذيله معروضًا في واجهته ويداعب خيالي. أشعر أنني صرت مثل السيدة "هاريس" الخادمة الفقيرة بطلة الرواية الإنجليزية، التي سيطر عليها الهوس باقتناء فستان "كريستيان ديور". أصعد إلى الشقة في الدور الثالث، وأكتب على "جوجل" "فروع محل صُنع في تبليسي"، فيأخذني محرك البحث إلى اسم مصممة الفستان التي يحدث اسمها وقعًا مألوفًا في نفسي، ومع ذلك يُربكني قليلًا، فقد كانت تُدعى "تيري إيلشوفيللي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

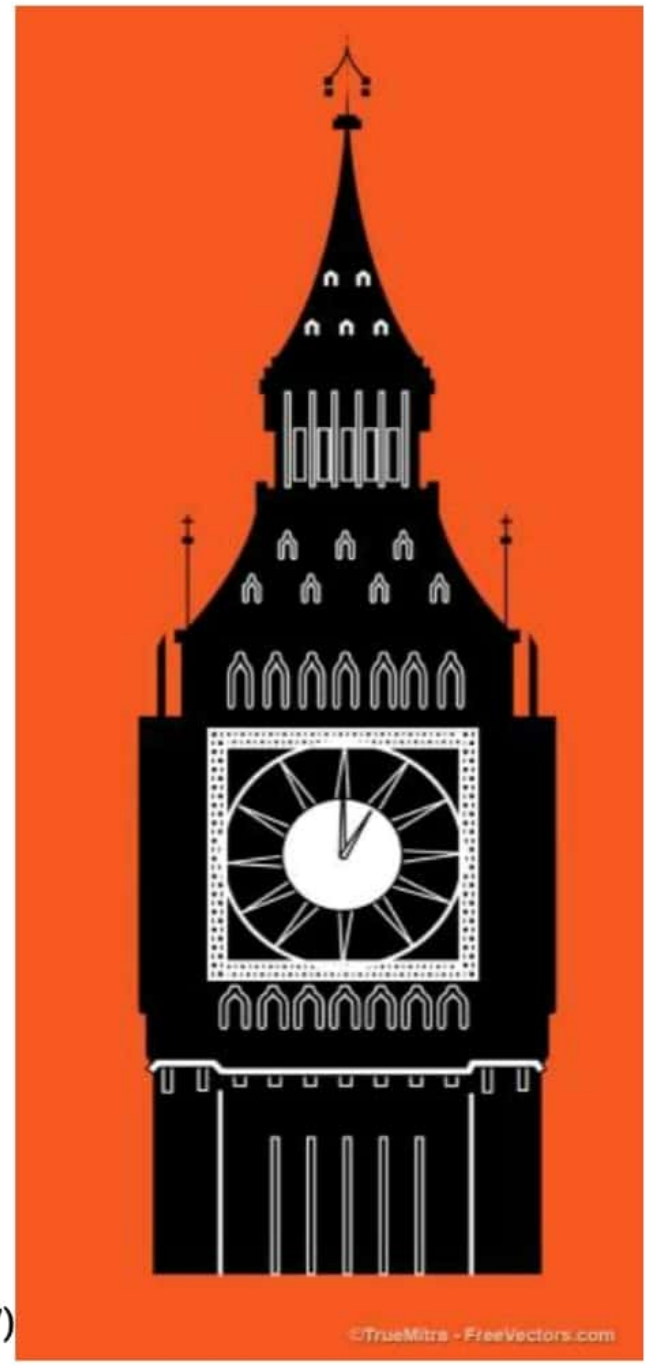

(7)

وصلت إلى لندن في يوم مُمطر، لكن شتَّان بين المطر الذي كُنتُ أجري تحته في مرح وسط حفنة من زملاء الدراسة، حين جئت لعمل دبلومة الباترون قبل زواجي، والأمطار التي يسير المرء تحتها ببطء، وهو يحبس دموعه، فتقوم السماء بالمهمة نيابة عنه. كان لقائي بـ"ألبرت" في "الدرب الأحمر" منحة أخرى من السماء، فهو مَن شجعني على إرسال بياناتي لإدارة أسبوع الموضة في لندن للعمل معهم لبعض الوقت، بالإضافة إلى خطاب التزكية الذي رشحني فيه للعمل كموديل بالوجه في مشروعه الفني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

اتصلت بـ"ألبرت" فور أن وضعت حقائبي في الفندق الصغير بحي "إيرلز كورت"، فقال لي:

- تسع دقائق هي المدة الفاصلة بيني وبينك. سأنتظرك أمام محطة "فيكتوريا" في الدقيقة العاشرة.

قاومت متعة التدقيق في وجوه المسافرين وتخيُّل حواديتهم، ومشاهدة أحضان اللقاء بعد طول غياب، والأيادي الملوحة بالوداع، وفن العمارة الفيكتوري وروح الاغتراب الجميلة التي أشعر بها حين أتوه بين الكتل البشرية وموسيقى عازفي مترو الأنفاق وروائح القهوة والمخبوزات والمحال الصغيرة الملونة في المحطات الرئيسية. كانت الناس في الشارع تجري في اتجاهات عكسية، حين أخذ المطر ينهمر بشدَّة، فتعرفت على "ألبرت" من ظهره ومن شكل رأسه وسترته الكحلية الأنيقة. استدار وجذبني من يدي ودخل معي تحت شمسيتي، وعبرنا الطريق جريًا دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم أفهم ماذا كان يقصد حين وضعني على الناحية الأخرى عند موقف الباصات الحمراء الضخمة ذات الدورين، فصرت كنقطة بين قطرات المطر الثقيلة، ثم أمرني أن أنتظر وركض ثانية إلى الجهة المقابلة، مخالفًا كل قواعد المرور. قام "ألبرت" بتلك المغامرة العبثية الصغيرة حتى يأتي بتاكسي ويلتقطني باتجاه الشارع المؤدي إلى المطعم الأنيق الدافئ الذي اختاره لتناول العشاء على ضوء الشموع.

كانت تلك الرحلة مهربًا آخر من لزوجة تأنيب تيتة "نازلي" لي بعد الطلاق، ومعايرتها بأنني لا أستمر في عمل أو علاقة، فعزمت على أن آخذ هدنة من العواطف، وأن ألقي بنفسي في تفاصيل وظائف وأعمال أعود بعدها لـ"چيمي جدو" مرفوعة الرأس. شعرت أن "ألبرت" قد سمع ما يكفي ويزيد من حكاياتي في مصر، وإنه قد آن الأوان أن أرد له الجميل وأن أصمت لكي أنصت له. كان عادة ما يشرع في أي حوار جديد بجملة استفزازية أو بنبرة تعالٍ، ولولا أنني قد تعرفت إليه بصفته الصديق الحميم لجارنا "باتريك"، ما كُنتُ لأمنحه الفرصة الثانية ليظهر جانبه الطيب. لم يكن "ألبرت" بحاجة لأن أمهله الوقت ليصير رقيقًا حنونًا في

56%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطعم الفاخر الذي دعاني إليه، فهذا ما قامت به الرشفة الثانية والثالثة من كأس النبيذ الأحمر، مثلما كان يذيبه شذا نصف السيجارة التي يدخنها "ضيا" في دكَّانه، ممزوجًا بعبق بخور المسك.

بتشجيع من "ألبرت"، أرسلت طلبات للعمل نصف الوقت إلى أكثر من جهات عشر، وعملت على التوازي في بعضها؛ بيوت أزياء تخفض عدد موظفيها في قسم التسويق، وتستبدلهم جميعًا بشخص واحد من الخارج، محررة للموضة في مجلة شهرية، بحيث أحضر عروض الأزياء وأكتب ملخصات عنها، كما استجاب على الفور موقع إلكتروني أتلقى فيه آخر أخبار الأزياء من كل بقاع الدنيا، وأحولها في الحال إلى تقارير يومية قصيرة. وقد كانت هذه الوظيفة تتطلب يقظة معظم ساعات الليل، فاستثمرت تلك الفرصة وعملت في الفترة الليلية في قسم الاستقبال في الفندق الصغير الذي أقيم فيه، في مقابل توفير أجرة الغرفة. وعلى الرغم من كل هذا الجهد، اعتبرت نفسي أوفر حظًّا من الفتيات البولنديات اللاتي يجئن في الصباح، ليجهزن الإفطار للنزلاء وينظفن لي غرفتي؛ لأنهن يُقِمن من دون فيزا ولا يتحدثن الإنجليزية. كما كانت خروجة كل يوم سبت مع "ألبرت"هي الجائزة التي أفوز بها بعد شقاء الأيام الخمسة، وإن كانت خروجة الأحد معه أيضًا تفسدها قليلًا مثلما يفسد هطول مطر لندن المفاجئ حلاوة يوم ربيعي مشمس.

كانت لندن "ألبرت" في تلك الشهور غير لندن التي جئتها مرارًا وأحببتها ودرست الموضة في أفضل مدارسها. وقد كان معه كل الحق حين قال لي إن اسم التدليل الذي يطلقونه على حي "كينزنجتون" المجاور إنما يعود عليه هو، فقد كانوا يسمون الحي "ألبرتوبوليس". زرنا معًا معظم المواقع التي يتضمنها شارع المتاحف به، وشهدنا أكثر من خمسة آلاف عام من تاريخ الفن والقطع النادرة من الخزف والزجاج والنسيج والأزياء الوطنية والفضة ومنحوتات ولوحات من كل بقاع الدنيا. وبنهاية كل زيارة، يفاجئني "ألبرت" بأن يشير إلى قطعة حبيبة من تاريخي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخصي، فقد أخذني ذات سبت إلى مقبرة الكلب الوفي لمدير متحف "فيكتوريا أند ألبرت"، التي لا يلمحها أحد في الحديقة، وسط الانبهار بالعمارة المذهلة والمعروضات التي تخطف الأنفاس، وقضينا ذلك النهار في الحديث عن كلبي "چاكيت"، حين أخبرته أنني أفتقد شقاوته ونباحه ودفء فرائه. وفي محل "ليبرتي" للأقمشة التراثية، عشت معه أيام أتيليه "چيمي جدو" وبقايا قطع النسيج التي كانت تأخذها "وديدة" لتُفصل منها سجادة من قصاقيص ملابس، لي مع كل منها ذكرى وحكاية. وفي محل "هارودز"، خالف "ألبرت" طبيعته وتركني أتعالى عليه في القسم المصري الذي ينقل أجزاء من روح التاريخ الفرعوني ويخلد ذكرى حب "ديانا" الإنجليزية و"دودي" المصري.

كثيرًا ما تقمص "ألبرت" شخصية زبون يرغب في استشارة نصف ساعة لاختيار الملابس في محل "ريفر آيلاند" الذي كُنتُ أعمل به ستايلست لساعتين صباح السبت، لكي نشرب القهوة معًا ونقضي الساعتين كاملتين في الثرثرة والضحك. كما حجز بضع مرَّات مقابلة مطولة لعمل "إكستريم ميكوفر"، أي تغيير جذري في مظهره، وكان يأخذني فيها إلى الأماكن نفسها التي طالما زرتها أثناء الدراسة بمعهد الموضة؛ لكن كانت لها نكهة مختلفة معه. قلت له:

- سيرفدني المدير إن تعرَّف عليك، ووجدك بالچاكيت نفسه الكحلي والبنطال الرمادي، حتى بعد كل تلك المقابلات لعمل تغيير جذري في مظهرك.

فقال:

- سأبلغ أنا عنه مديره؛ لأنه لم يفهم التغيير الجذري الذي أحدثتِه أنتِ بي.

كان يوم السبت بالنسبة لـ"ألبرت" كرشفتي النبيذ الأحمر اللتين تُحسنان حالته المزاجية، وكان لقاء الأحد كأنما قد أتى على باقي زجاجة الخمر المعتَّقة، ودخل في نوبة سُكر حزينة ليفرغ بعدها كل ما في جوفه، وقد كان تحملي لرداءة مزاجه نهار الأحد هو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكافآتي له على سخاء روحه صباح ومساء السبت. عادة ما يكون لقاء الأحد مقتضبًا متجهِّمًا؛ لأنها اللحظات الأخيرة بإجازة نهاية الأسبوع، وهذا يعني أنه سيضطر إلى ركوب القطار لمدة ساعة واحدة عائدًا إلى بيته بـ"أوكسفورد"، حيث ينتظره أبناؤه الصغار، ووالده العجوز،وزوجته الحسناء التي تصغره بعشرين عامًا.

لم أحكِ لـ"ألبرت" إلا القدر اليسير عن "محمد خيامي"، ربما لأنه كان قد "أخذ الشر وراح" كما يقولون، لكن شر "تاتيانا" زوجة "ألبرت" كان ما زال يتجوَّل كالشبح في حياته، فلا منها ظلَّت معه، ولا منها غادرت. حكاية معقدة مثل خريطة خطوط مترو لندن التي تُشبه شبكة أنابيب متداخلة ومُربكة للعين، كما رسمتها "تاتيانا" بتنويعات مختلفة، وعرضتها في معرض للفن التشكيلي، أثنى عليه كل مَن جاؤوا من دول أوروبا الشرقية مثلها، وتقتلهم الحيرة بين أن يعودوا لأوطان أكثر دفئًا وفقرًا، وبين أن يبقوا وهم يلهثون جريًا تحت الأنفاق، لكي يزدهروا فوق الأرض كما كانوا يحلمون. توينزات مثلي أنا و"تُقى"، توائم غير متشابهة من الحيرة تتنازع"ألبرت"؛ مِلَته التي غيرها من أجل "تاتيانا" ووطنها الذي هجرته لتعيش مع رجل أحبها، فينتهي بها الحال مدمنة للخمر لكي تنسى شيئًا لا تستطيع الإمساك به. تفيق "تاتيانا" لساعات تمنح فيها ذلك الشيء الغامض البهيج لأطفالها ولحماها المسن، وحين يأتي دور "ألبرت"، تكون قد غابت في متاهتها، أو انتظرته بآخر الليل بنظرة لائمة وثياب سوداء كأرملة مكلومة. يقول "ألبرت" إن عائلة "تاتيانا" تحتضنه كابن، ويقول إنهم يطلبون منه ما يزيد على حدود إمكانياته، ويقول إنها أم جيدة، ويقول إنها زوجة بشعة، ويقول إنه يريد خلاصًا، ويقول إنه يريد وفاقًا، ويصب تلك الحيرة المزدوجة في فناجين القهوة أو أطباق الحساء الخفيفة التي نشربها في مقهى مجاور لمحطة القطار قبل أن يغادر لندن متجهًا إلى "أوكسفورد" ظهيرة كل أحد.

مرَّت ثمانية أشهر لم يتحسَّن فيها وضع "ألبرت" أو يزداد سوءًا أيام السبت والآحاد. وفي أيام الأسبوع التي كُنتُ أقضيها نصف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نائمة ونصف مستيقظة في كتابة مواضيع الموضة للموقع الإلكتروني، والجري خلف المصممين لآخذ تصريحًا أو اثنين بعد عروض الأزياء، ومتابعة البريد الصادر والوارد من إدارة التسويق بالشركة التي استبدلت أربعة موظفين بي، شعرت أن هدنة السبت وارتباك الأحد لم يكونا كافيين لاستعادة إحساسي بالحياة، ولم ينقذني من تلك الدوامة سوى مكالمة تيتة "نازلي" في ساعة متأخرة من الليل بأنني يجب أن أعود لأن "چيمي جدو" قد بدأ يدخل في متاهته الخاصة، ويقول الأطباء إنه بحاجة إلى شخص حميم يعيده للحياة. إذا كانت تقليعة النظارات الحمراء الكبيرة قد عادت هذا العام، ومعها موضة ارتداء السروال الإسترتش تحت الجيبة، مع الكعب القصير جدًّا ذي السن المدبب، فلا بأس من أن أرجع أنا أيضًا إلى غرفتي القديمة التي تطلُّ على فناء مدرستي، وأتحمل ثقل معاشرة وتبكيت تيتة "نازلي".

عاد "ألبرت" من "أوكسفورد" ساعة مبكرًا عن موعده في صباح السبت الأخير لي قبل العودة إلى مصر، وقال إنه سيبقى معي حتى مساء الإثنين. كانت الأيام الثلاثة مثل جوال "بابا نويل"، فقد أخرج "ألبرت" من جيبه تذكرتين لحضور معرض ملابس الفنانة المكسيكية "فريدا كاهلو" في متحف "فيكتوريا أند ألبرت"، ثم قال إنه لا بد أن يتسلم ساعة يده التي يصلحها في "كنزينجتون" في اليوم التالي، فتوقعت أن يأخذني إلى منطقة محال تجارية، لكنني وجدتنا نسير معًا في قلب جنة خضراء بها بحيرات، وإوز، ونوارس، وبآخرها قصر "كينزينجتون"، مسقط رأس الملكة "فيكتوريا". لم تكن تلك هي المفاجأة، بل تذكرتان أخريان لحضور معرض لمجموعة ملابس الأميرة "ديانا" بداخل القصر.

أخذني "ألبرت" مثل طفلة بصحبة أبيها إلى محل "بيتر جونز" الأثري. صعدنا الطوابق العديدة على السلالم لكي نمتع أعيننا بالمعروضات المغرية غالية الثمن، واستقررنا في الدور الأخير على منضدة لشخصين، في المطعم المستدير المطل على حي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

"تشـيلسي" لتنـاول الغـداء. كـان الطعـام شـهيًّا والمكـان ينضـح بـالحياة، إلا أننـي للمرَّة الأولـى أحـس أن للتـاريخ وطـأة ثقيلـة، شـعرت برغبـة فـي أن أفلتـها. مـا كـدت أن أعبِّر عما يعتمل فـي نفسـي، حتـى بـادرني "ألبرت" بتعجبه من كراهيـة "تاتيانا" لهذا المكان الذي يعجُّ بالعجزة وأحفادهم؛ لأنها مريضة بفوبيا التقدم في العمر. أعطاني "ألبرت" مهلة لساعتين حتى أتفرج سريعًا على معـرض "سـاتشي" للفن الحديث المقابل للمحل، يكون قد جهز فيهما الشقة التي يستأجرها، واستعد لحفل الوداع الذي سيقيمه لي مع الأصدقاء.

لم يكن بالحفل سوانا، وموسيقى الروك، وكتابين اشتراهما لي "ألبرت" من مكتبة المتحف وأبقاهما كمفاجأة؛ الأول عن الرسامة المكسيكية "فريدا كاهلو"، والثاني عن أصول تصميم الملابس للمسرح، ومجموعة الصور التي ظهر فيها وجهي بأغطية رأس وملابـس وطنيـة من معظم بلاد الدنيا. وعلى الرغم من عشقه للأحداث التاريخية المزدحمة بالانفعالات، لطالما قال "ألبرت" إنه يكره الدراما التي يظهرها البشر في اللقاء والوداع؛ لذا زعم أنه منهمك فـي إعـداد صـحن "ريزوتـو" بالدواجن، وأعطاني صحنًا مماثلًا من الخضروات لعمل السلاطة، فاندمجت أنا الأخرى في تقطيعها على منضدة أمامه بالمطبخ.

تعلمـت من التـاريخ أن البشـر يـدورون فـي حلقات من الأحـداث المُتكرِّرة وأن لاشيء يدعى "النهاية". لذا كان يداخلني يقين بأنني و"ألبرت" سنظل نتلاقى حتى يختفي أحدنا من على وجه الأرض. جلسنا نتناول العشاء ولا نعرف ماذا يقول أحدنا للآخر، فكلمتا حفـل ووداع توأمـان متنـافران فـي جملـة واحـدة. يـدَّعي النـاس حين يمارسون هذا الطقس العجيب أنهم فرحون، بينما تنخرهم غصَّة، ويعتصر قلوبهم وجع الفراق الوشيك. رفع "ألبرت" صوت الموسيقى، وسألني وهو ينظر إلى البعد الآخر ليظهر عدم اكتراث:

- ماذا لو تقدم للزواج منكِ رجل أجنبي، على استعداد لأن يدخل في الإسلام ويرتدي الحجاب، هل تقبلينه؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصد "ألبرت" أن يُضيف مسحة ساخرة إلى جملته حتى يجمع بين الهزل والجد اللذين اختلطا عليَّ أنا الأخرى، فأجبت عن سؤاله بكل ثقة:

- لا. لن أتزوَّج أبدًا، حتى لو ارتدى العريس النقاب.

وقبل أن يتحرك القطار الذي يحمل "ألبرت" من لندن إلى "أوكسفورد"، اتصل بي، وقال:

- لقد وعدتكِ أن أقول لكِ معلومة لا تعرفينها عن بلدك إن جئتِ إلى لندن، مثلما قلتِ لي معلومة عن بلدي حين كُنتُ في مصر، خاصة أنني قرأت التاريخ وشاهدت تصاوير وتماثيل كل مَن حكمن بلدك. "تمارا".. أنتِ أجمل من "كليوباترا" وأروع من "شجرة الدر".

وحين شاهدت السحاب يتشكل على هيئة بُراق يطير أمام نافذة فندق "الهوليداي إن"، حين جئت إلى "تبليسي" بعد رجوعي من لندن بعامين، تلقَّيتُ رسالة من "ألبرت" يسألني فيها بتلقائية:

"هل قلت لكِ من قبل إنني عشقتكِ؟".

لم تصلني من "ألبرت" بعد ذلك سوى كروت بوستال من كل بلد يذهب إليه، مثلما كان يفعل المسافرون في عقود سابقة، وكنت أفعل المثل وأخطره حين أذهب إلى بلد جديد. أرسلت هذه المرَّة كارتًا إلكترونيًا، عليه صورة كاريكاتورية لرجل جورجي يشرب النبيذ في قرن من العاج، وفي الخلفية معالم المدينة القديمة، مكتوب تحتها "تعالَ إلى تبليسي". لم يخطر لي ببالي أن "ألبرت" سيعتبر ذلك الكارت الذي لم أدقق في تفاصيله دعوة شخصية منِّي له، ويبعث لي برسالة على تليفوني أكثر غرابة من رسالة الاعتراف بالغرام السابقة.

تفيد رسالة "ألبرت" بأنه ينوي أن يمضي أسبوعًا مع أولاده وزوجته السابقة "تاتيانا"، المقيمين حاليًا عند أهلها في أرمينيا، ويفكر بما أنه ستكون بيننا أربع ساعات وست وأربعون دقيقة بالباص فقط، فلأتوقع أن أجده أمامي في الدقيقة السابقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأربعين فور وصوله لعمل فيلم تسجيلي عن عادات وتقاليد شرب النبيذ في المدينة القديمة بـ"تبليسي".

"لا تقتلني، فأنا عاشقة"؛ جملة مكتوبة على قطعة صغيرة من الورق، ومثبَّتة بدبوس رسم على الحائط الذي تستند إليه المكتبة الضخمة في صالة شقة "تبليسي". ارتجف قلبي حين رأيتها على أكثر من وُريقة، في أكثر من موقع على رفوف المكتبة. شعرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتكبت جريمة حب، أو مُحبة ترجو معبودها ألا يقتلها بالإهمال أو الخيانة. ثم وجدتُ على جدار المكتبة لوحة مستنسخة لامرأة مُوجَّه نحو رأسها مسدسان من الجانبين، وموقعًا باسم "فيولا كونست". عاودني هوس التنقيب عن الأسماء والأماكن الذي غرسته في عقلي ميس "عايدة"، فبحثت عن اسم وأعمال الفنانة لأكتشف أن "لا تقتلني فأنا عاشقة" هو اسم تلك اللوحة الموجودة في معرض مُقتنيات متحف "ساتشي" الذي زرته في لندن ولم ألحظها. وبصفتي امرأة تؤمن بالعلامات، فقد اعتبرت تلك اللوحة إشارة إلى أن مكتبة هذه الشقة خبيئة تستحق التنقيب، أو مقبرة بها كنوز، كالتي كان يسرقها ويعيش من ريعها رجال القبيلة في فيلم "المومياء". الفيلم الذي صدع "شادي" رأسي بتحليل كل مشهد من مشاهده، ليس فقط لقيمته الفنية؛ بل لقيمته المعنوية أيضًا، لأن والد "شادي عبد الهادي" قد منحه هذا الاسم حبًا وتيمنًا بصديقه مخرج الفيلم "شادي عبد السلام".

كنت قد قضيت الأيام الأربعة السابقة مثل مكوك ماكينة خياطة، لا يهدأ صعودًا وهبوطًا من وإلى الشقة، في مشاوير صباحية تستمر حتى حلول المساء إلى نهر "كورا" والمناطق التاريخية المحيطة به، ربما لأنني كُنتُ أعرف مسبقًا أنني سأمتع عينيّ وروحي بسخاء التاريخ الجورجي وآثاره وتذكاراته الملونة على كوبري الـ"دراي بريدج"، دون أن أضطر للمرور في شارع "روستافيللي"، وأفقد تماسكي أمام معروضات المحال البراقة التي تبيع الماركات العالمية الشهيرة وأبدِّد كل ما أتيت به من أموال في قطعة ملابس واحدة. ظلَّت روح "شادي" طاغية بتعلقه الروحي بروسيا، وأنا أحدِّق في المعروضات التي تشكل بازارًا يتم تجميعه بعناية على بطاطين مفروشة على أرض الكوبري، هدايا تذكارية تميز حقبة الاتحاد السوفيتي الجورجية، والأرمينية، والأذربيجية، ميداليات عسكرية قديمة تم منحها للأبطال الجورجيين البواسل لشجاعتهم ولولائهم أثناء الحرب العالمية الثانية، ومجوهرات عتيقة مصنوعة يدويًا، ومجموعات من "الساموفار" النحاسي الروسي العتيق، والمرصوص إلى جوار أدوات فضية للمطبخ وكاميرات وكتب بأوراق صفراء وصور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عائليــة بنيــة اللـون وبطـاقات بريـدية نـادرة وخنـاجر مزركشـة أطرافها بالفضة والنحاس، ثم أدلف إلى الحديقة الفسيحة التي يعـرض الفنـانون التشكيليون فيها لوحات زاهية تسرُّ مَن رآها، وتعكس فن العمارة والعادات والتقاليد الجورجية بألوان فاقعة ومنظور للرسم لم أرَ مثله ولا في أي لوحة من لوحات الفنانين الــذين زرت متاحفــهم فــي معظــم بــلاد الأرض، أو رسـامي البورتريهات في شقة الرسامين بـ"الدرب الأحمر".

أجـرُّ سـاقيَّ، وأعـود مُنهكة كـل مسـاء، أسـجِّل أسـماء الشـوارع وحكـايات أصـحابها، حتـى صـار "شـوتا روسـتافيللي"، و"كـوت أبخازي"، و"إريكلي"، و"آجماشينيبيلي" لا يمثلون أسماء شوارع في "تبليسي"، بل صاروا رفاقًا يؤنسونني ويهونون عليَّ التعب. ولا أسـترد طـاقتي إلا بعـد أن أدخـل فطيرة "الخاتشابوري" إلى المايكرويف، والتهمه في تلذذ مع كوب شاي بالنعناع الأخضر. أشـعر أننـي بـدأت أخـالف طبـيعتي فـي حسـاب عـدد السـعرات الحرارية قبل كل قضمة أتناولها، كما أنني تفاجأت ذات مساء بأنني فتحت درفة النملية العليا في مطبخ "تارا" وأعددت من المكونات المتاحة طبق كشري وفي الليلة التالية صحن "ريزوتو"، فلم يكن بالمطبخ سوى أرز ومكرونة وعدس أسود.

ليسـت الحيـاة منفـردة فـي شقة بالسوء الذي ظننته دائمًا، فما سـعيت أبـدًا لفكـرة الاسـتقلال التـام، أو الفطـام من حضن جدو الحنون، حتى وإن اضطررت للعيش معه كـ"باكيدج" هو وتيتة "نازلي". حتى إقامة أهل "محمد خيامي" حولنا ومعنا في عمارة واحدة، وفرضهم علينا ما يأكلون وما يشربون كُنتُ أعتبرها ميزة وليست عيبًا، مثلما كُنتُ أقيم في أي بيت للطلبة أو فندق، وآكل ما يقدمون على الإفطار. ما كان يوخز ضميري قليلًا حين أتيت لهذه الرحلة هو تركي لتيتة "نازلي" في شقة "الدرب الأحمر"، وقد يعتريها خوف أو مرض. إلا أنني حين كُنتُ أرتمي على فراشي شبه غائبة عن الوعي هنا في شقة "تبليسي"، بعد جولات السير على الأقدام، وتدوين اسم كل شارع وطئته، وكل أثر وقع تحت ناظري، ثم قضاء المساء في البحث الإلكتروني عن حواديت تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشوارع، وحواديت الشوارع التي تجاورها، أدركت أن النوم وحيدة في الظلام ليس الشبح الذي ظننته، وإنه لا داعٍ لتأنيب الضمير الذي حملته طوال عمري خوفًا من ذنب لم أقترفه تجاه تيتة "نازلي". شعرت أيضًا بلذة الحياة كـ"سينجل إندبندنت وومان"، أي امرأة عزباء مستقلة، وإن "السنجلة جنتلة.. هاهاها". لو سمع "شادي عبد الهادي" هذا المصطلح لنهرني على الفور، ليس لأن التعبير مبتذل، بل لأنه عصري، وقد كان "شادي" يستخدم كل المصطلحات الراقية والمبتذلة حد الدناءة، لكن من القاموس الخاص بحقبة الستينيات.

أقيس الفستان الزيتوني الواسع ذا الكرانيش المائلة، والذي يشبه تمامًا الفستان الذي اشتهيته في المحل المغلق تحت البيت، ويماثل فساتين بالشكل نفسه معروضة في بازارات شارع "شاردان" السياحي بالمدينة القديمة، إلا أن الفستان الذي أرتديه الآن اشتريته من امرأتين يعرضان بضاعتهما على حامل خشبي في مدخل عمارة قديمة بشارع "آجماشينيبيلي"، ويباع بثلاثين لاري فقط، والآخر الذي في البازار يباع بمائة وثلاثين. الفارق بين الفستانين هو اسم المصمم، فالذي اشتريته خيطته إحدى السيدتين، والآخر غالي الثمن صممه بيت أزياء يستأجر دكّانًا في بؤرة تاريخية تعجُّ بالسياح. والعجيب أن معظم النساء الچورچيات يرتدين الموديل نفسه، الفقيرات منهن والثريات، لكنك تستطيع التمييز بينهما من خامة القماش. تُشبه الرخيصة اللينو الناعم المريح الذي صنعت لي منه "وديدة" أول وأجمل قميص نوم ارتديته في طفولتي، أما الغالية فمن الكتان الخشن الذي يتكرمش مع أول قطرة عرق، لكنه ذائع الصيت كعنوان لذوق صاحبه الرفيع وتميزه، شأنه شأن جميع القمصان الكتان البيضاء التي كان يرتديها "شادي عبد الهادي".

أشبُّ على أطراف أصابعي في وضع جانبي أمام المرآة، وأتخيَّلني وأنا أرتديه بكعب عالٍ، ثم أعطي ظهري للمرآة وأدير رأسي لأرى إن كان الفستان يظهر الكيلوهات التي ربما أكون قد اكتسبتها بعد أكل "الخاتشابوري" و"الخينكالي" المحشو باللحم المفروم ومرقته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللذيذة. أنزل بقدمي الحافية ثانية، وأراني أرتديه على حذاء مريح وأغطي رأسي بطرحة، مثلما تفعل كل النساء هنا في الكنائس، وأتجه في تحشُّم نحو المكان الذي سأقابل فيه القس "أندراوس"، لكي يُسلِّمني الكنز الذي وعدني به.

أعاود التفتيش عن أي رسائل جديدة من القس ولا أجد سوى الرسالة الأخيرة التي بعث بها لي من أكثر من أسبوع، فأملأ فراغ إيميلي بإرسال رسالة مكررة له بأنني ما زلت في الانتظار، وأرفق بها كالعادة رقم تليفوني الجورجي وعنوان شقة شارع "آجماشينيبيلي"، فربما يكون قد فقد الرسائل السابقة. ما يخفف من وطأة الإحباط واستفزاز التجاهل هو إحساس غامض بوجود يد حنونة، زارت الشقة صباح أمس ورصصت الأكواب الزجاجية والفناجين الخزفية على رخامة المطبخ بشكل فني، ربما مكافأة منها على تركي كل شيء نظيفًا لامعًا. ولما وجدَتْني أستعمل أكياس التموين البسيطة بداخل النملية، جمعَتْ بجانبها علب التوابل وزجاجات الزيت والخل، لتسهل عليَّ مهام الطبخ. أما مفرش السرير الذي كان قد سُوِّيَ على شكل إوزة يوم قدومي، فقد تحول إلى شكل قلب، وكأنها رسالة موجهة لي من المرأة التي تنظف الشقة أسبوعيًّا، تقول لي فيها "أنا أحبكِ، أنتِ ذات قلب رحيم".

يرنُّ تليفوني المحمول بصوت حادٍّ مرتفع، فأجري لاهثة لألتقطه. يبدأ رقم المتصل بـ 955+ فيداخلني يقين بأنه حتمًا القس، وقبل أن أتأكد أنه يسمعني أقول بالإنجليزية في لهفة:

- هاللو!!!

فيرد المتصل بصوت هادئ رخيم وبلهجة شامية:

- وينك يا حلوة؟ أنتِ بالبيت ولا بالدار؟

لم يخطر ببالي سوى كلبي "چاكيت" في اللحظة التي سمعت فيها الصوت الغريب على التليفون. كان ليهجم على هذا المتحرش لو اقتحم الشقة، خاصة بعد أن قرَّرت "تارا" أن ترحل فجأةً إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلدتهم "كاخيتي"، وتتركني بمفردي في العمارة. تم قتل خمسة وثمانين ألف كلب ضال في "تبليسي" في الأعوام القليلة الماضية. ليتني التقطت واحدًا منهم وتبنَّيته ومنحته طعامًا ليدين لي بالولاء ويحميني. لو كان الأمر بيدي، لاقتنيت كلبًا قوقازيًّا جبليًّا قوي البنية، كال"چورچيان شيبرد" الذي يعين الرعاة في الجبال و....

- شو يا حلوة؟ نعستِ ولا نمتِ؟

يأتيني الصوت مرَّة أخرى بعد الثواني التي شرد ذهني فيها، وما إن أخذ يتنحنح محرجًا من صمتي، حتى تذكَّرت أنه صوت "موتي"؛ "مطيع" الفلسطيني الذي تلقاني في المطار مثل أم حنون تتلقَّف ابنها الضال.

- أنت عرفت نمرتي ازَّاي؟ مش أنت مش بتستعمل الموبايلات؟

جاءتني الإجابة بصوت "ريموندا" موظفة الاستقبال بفندق "ميجوتيل"، التي كان قد أعطاها "مطيع" كارت تليفون برقم جورجي اشتراه لي، وأعطاه ل"ريموندا" فثبتته لي في تليفوني وسجَّلت رقمي لديها، وقررت اليوم أن تعد لي مفاجأة وتتصل بي، ثم فكَّرت أن تُسمعني صوت "مطيع" حين قابلَته مصادفة في شارع "آجماشينيبيلي". دعوتهما لتناول القهوة معي، لكنهما اعتذرا لأنهما تقابلا صدفة ولدى كل منهما ارتباطات. تنفست الصعداء، ليس لأنني لا أرغب في صحبتهما، بل لخوفي من نزول وصعود الأدوار الثلاثة في الظلام لأفتح لهما الأبواب المغلقة، وهو ما سيؤكد لي أنني صرت أعيش في هذه البناية بمفردي تمامًا.

ما يؤنس وحدتي في هذه الشقة أن بها ملامح من لحظات حميمة عشتها في الماضي القريب، وكأن الأركان والحوائط لقطات صور فوتوغرافية منها ما يبعث على البهجة، ومنها ما يقف كغُصَّة في الحلق. روح أخرى تهيم ها هنا أكاد أراها وأمسك بها، مثل الكاميرا التي كانت لا تفارق يد "شادي عبد الهادي"، ويغازلها كرجل يحاول أن يفعل المستحيل ليوقع امرأة في حبائله. لم أتعذب فى استحضار تلك الروح، مثلما أعانى كل ليلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في استعطاف ملائكتي الحارسة أن تجلب روح "چيمي جدو" إلى أحلامي، وأن تجعله يمنحني حضنًا أثيريًّا أو يبلغني رسالة ولو مشفَّرة عن السبب الحقيقي لوجودي في هذا البلد. أما روح "شادي عبد الهادي" السارح الآن في مكان ما من الكُرة الأرضية، فقد تجلَّت لي في أنواع الكاميرات القديمة، والتي يبدو أن أصحاب الدار يعتزُّون بها، ويرصصونها كتحف فنية على أرفف المكتبة. حتى صوت "شادي" كدت أسمعه وهو يصف ولعه بالتصوير، وأنا أمرُّ بعيني على البوسترات الضخمة بالدهليز المجاور لغرفة النوم، ومكتوب عليها جمل مأثورة عن التصوير بألوان وطُرُز ستينية تليق بتعلُّق "شادي" المرضي بتلك الحقبة، وتمثل غروره بموهبته وامتلائه بذاته:

"أنا مصور لذلك أعيش بصوت مسموع"، و"التصوير الفوتوغرافي يساعد الناس لكي يروا"، و"كل صورة عظيمة تُرينا شيئًا نبصره بالعين مع شيء ندركه بالبصيرة، فهي تجمع بين البصر والبصيرة"، و"الكاميرا الاحترافية العالية الدقة ليست مَن تصنع الصور، بل يصنعها المصور". أما أكثر مقولة وصفت "شادي" فهي أن "الصورة سر يكشف سرًّا، فبقدر ما تخبرك بقدر ما تكتشف أنك وقعت في دوامة من الأسرار".

وقفت تنظر لي بالأبيض والأسود في حياد مُريب بآخر الصالة. تتصدر صورتها الغلاف الكبير للكتاب الفخم الذي يحتل ركنًا على رفٍّ مميز، وهي ترتدي زي ممرضة متطوعة في الصليب الأحمر في القرن التاسع عشر. عرفت تلك المعلومة حين قلبت في صفحات الكتاب المليء باللقطات الخاصة، والذي كشف لي روح التصوير الفوتوغرافي المهيمنة على أجيال متعاقبة عاشت في هذا المكان. فقد كانت جدتهم صاحبة صورة غلاف الكتاب السميك الذي يحمل اسمها بخط عريض، وعنوان بخط أصغر:

"الحرب العالمية الأولى بعيني امرأة جورجية".

ألهمتني العدسات العتيقة المتناثرة بأرجاء المكان أن أتوغل كل صباح في شوارع المدينة القديمة، وألتقط صورًا وفيديوهات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذات خصوصية للنساء اللاتي فقدن أزواجهن في حروب وثورات عاشتها چورچيا على مدار عقود، وتركتهن جالسات على قارعة كل الطرقات في ملابسهن السوداء، لا ليشحذن، بل ليبعن الفواكه المجففة والملضومة في أحبال كالسبح الكهرمان، أو ليصنعن زهورًا من "الأورجانزا" زاهية الألوان لتضعها البنات والنساء على رؤوسهن كأكاليل للبهجة. وددت لو طبع لي المتحف القومي كتابًا أسميه نساء چورچيات بعيني امرأة مصرية، على غرار الكتاب الموجود في صالة شقة "تبليسي".

مرَّ أسبوع آخر دون خبر من القس "أندراوس"، وكلما زعمت أنني أستمتع بلعبة حفظ أسماء الشوارع والتنقيب عن أصولها، أدركت كم التوتر الذي بدأ يمسك بكل جزء من جسدي ويصيبني بالأرق وعدم الرغبة في الطعام، حتى مع وجود فطائر "الخاتشابوري" الطرية و"الخينكالي" الشهي.

بدأت أتشكك في حقيقة ما يدور حولي، وتمنيت لو كُنتُ في كابوس مزعج، أرجو أن أصحو منه على سريري في شقة "جاردن سيتي"، على صوت تقليب الشاي بالملعقة الصغيرة بيد "چيمي جدو"، بينما تناديني تيتة "نازلي" بنبرة مفزعة بأن أصحو لكي أذهب إلى المدرسة، أو أن أجدني في المقعد المجاور لـ"شادي عبد الهادي"، وهو يقود سيارته بحرفية في شارع مظلم محاولًا اختلاس قُبلة منِّي وأنا أتمنع، وفي الخلفية تتجلَّى "أم كلثوم" بأغنية "عوِّدت عيني على رؤياك". ليته يعود ولو ساعة ليثرثر بآرائه في الكون والوجود والثورات وغباء البشر، ثم يسألني بتعالٍ: "فهمتِ حاجة؟". ولا أمانع أبدًا أن أعود لفترة هستيريا البحث عن بُعد عن "فادي أباظة"، والمرور مع كل مشوار من أمام بيته، والتدقيق في وجوه كل مَن كان يقود سيارة جولف حمراء كسيارته، وأنا أبكي لأسابيع متواصلة لأن أسطوانة تطنُّ في أذني بصوت "فيروز" وهي تغنِّي "كيفك أنت؟".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

فهمت الآن فقط لماذا قال لي "شادي" إنه لا أصدقاء حميمين لديه ولا أحد يستمع له سواي. ملأتني تلك المقولة بالغرور والزهو بنفسي آنذاك، خاصة مع كتاب تاريخ وأوتار عود وملاحم بطولية مجسدة على هيئة رجل مثل "شادي". فقد بدأت أتحول تدريجيًّا في الأسبوعين الماضيين إلى ماكينة لتخزين الأحداث والأبعاد الاجتماعية والخلفيات الثقافية لأصحاب أسماء الشوارع مثله، إلا أن معرفتي بأن "شوتا روستافيللي" هو شاعر چورچيا الأعظم، أو إن "كوت أبخازي" هو بطل حركة التحرير في عشرينيات القرن الماضي، وإن "الملك إيريكلي الثاني" هو أول مَن لجأ للحماية السوفيتية المسيحية من هجمات العثمانيين، لم تملأ خواء روحي بالقدر الذي يغنيني عن صحبة بشر من لحم ودم، يرافقونني السير والضحك أو حتى الحيرة والبكاء في تلك الشوارع التي تحمل أسماء أولئك الرجال. عرفت أيضًا أن أول أثر لقدم إنسان وطئ الأرض قبل مليوني عام قد وُجدت في چورچيا، ومع ذلك لا أجد رفيقًا أو أنيسًا يشاركني حكاياتي الشيقة، شأني شأن "شادي عبد الهادي".

خرجت إلى البلكون الخشبي الذي يطل على الباحة، وقررت عقد هدنة مع جسدي ورأسي وأن أمنحهما قليلًا من السلام. تبادلت الابتسامات مع جارة عجوز تشرب الشاي مع زوجها في البلكون المقابل، وتعجبت من صياح متحشرج في فراغ الباحة من عجوز أخرى ترتدي فستانًا أسود كالحًا، فوجدتها تمسك بمقشة وتزيح القمامة ببطء؛ لأن أحدًا قد رمى شيئًا أمام عتبتها. استحوذ عليَّ التفكير في المرأتين وأدركت أنني من كثرة ما شاهدت العجزة المرتديات ملابس الحداد، صرت أشاهد خيالات قبل النوم لأعين نسائية بائسة، وشعورًا بيضاء هائشة، وأيادٍ متعرقة، وخطوطًا عرضية في الجباه ووجنات متغضِّنة بالتجاعيد. وفجأة لمحت وجهًا لشابة تلتصق بزجاج نافذتها، وتحمل في يدها مرآة صغيرة لتلتقط الشعيرات الزائدة من حاجبيها تحت ضوء الشمس. ألهمتني الفكرة بأن أنزل إلى محل الكوافير الصغير بالدور الأرضي وأدلل نفسي قليلًا، فسرحت في شكلي بعد أن أصبغ شعري باللون الأحمر كبعض النساء الچورچيات، فربما ألقى

129 دقيقة متبقية 63%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببعض الحيوية على لون بشرتي الذي صار باهتًا، على الرغم من الكيلوجرامات التي اكتسبتها من أكل "الخاتشابوري".

تـذكَّرت أن اليوم هو الأحد، وهو الموعد الذي تأتي فيـه المرأة المسؤولة عن تنظيف الشقة، والتي تحرص على الدخول بعد أن أغـادر، مثـل خـدمة الغرف في الفنادق. فكَّرت أن أقوم بخدعة صغيرة، وهي أن أنصرف وأسير حتى منتصف الشارع، ثم أعود لأتعرَّف سرًّا على شكل تلك التي تبادلني رسائل المحبة الصامتة من خلال ترتيب الملاءات والفوط والكبايات، ورص أكياس الأرز والمكرونة وزجاجات الزيت والخل. وقفت على الرصيف الآخر لأراقب أي وافد إلى العمارة، لكن الرصد كان من الصعوبة بمكان، مع وجود مكتب الصرافة الذي يحتل بئر السلم، ويستقبل صاحبه زبائنـه وضـيوفه معظـم سـاعات العمـل طـوال النهار، فضلًا عـن زبونات مركز التجميل. سخرت بيني وبين نفسي من حماقتي وقـررت التوجـه إلـى الـدور الأرضي لأصبغ شعري قبل أن أفقد حماستي.

لـم يكـن ترحـاب "نـانا" المصـفقة، أو الابتسـامة العريضـة التـي قابلتني بها "كيتفان" صاحبة المحل، من منطلق كسب زبونة، أو الطمع في بضعة لاريهات كبقشيش. كانت الحفاوة هي نفسها التي قرأت عنها عن أهل چورچيا الذين يعتبرون الضيف منحة من الله، فقد أخبرتني كل العاملات أنهن يعرفنني من اليوم الأول الذي وصلت فيـه العمارة كساكنة جديدة، لكنهن لم يـرغبن فـي اقتحام خصوصيتي مثلما أوصتهن "تارا" صاحبة الشقة. لم تشرع "نانا" في صباغة شعري مباشرة، بل أخذتني إلى الحوض وأمالت رأســي إلــى الخلـف، وأخـذت تُخـلِّل أصـابعها فـي فـروة رأسـي وتضغط برفق على جانبي جبهتي، حتى إنني كدت أبكي حزنًا على الوقت الذي فرَّطت فيه في حق الجانب الأنثوي من آدميتي. انسال الماء باردًا ليطفئ حمى التفكير التي تلبَّستني الأسابيع الفائتة. دارت أغنيات شبابية مرحة، بعضها نسخة طبق الأصل من أغنيات لـ"عمرو دياب" و"شيرين" و"إليسا"، بكلمات أرمينية، أخذت تغنِّي عليها "نانا"، بينما يميل رأسي إلى الخلف وتطربه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حركات أناملها الدائرية الرشيقة. آه يا "نانا"، اعصري كل ما في دماغي من صخب، واجعلي المياه الباردة تتدفق بغزارة لتغسل كل ما تراكم من أحداث وأسماء عتيقة لا تخصُّني. أكملي غناءكِ واستمري في الرقص المرح يا "كيتفان" على هذه الأغنية الروسية التي كان يتناولها "شادي" بالتحليل من منظور مأساوي. تبًّا لكِ، وخسئتِ، وعار عليك أيها الوغد الرعديد الأخرق، وثكلتك أمك بكل الألفاظ المندثرة التي تعشقها، والمصطلحات التي عفى عليها الزمن من فرط ما تعفَّنت أيا "شادي عبد الهادي" أنت و"كارل ماركس"، و"نيتشه"، و"زرادشت"، و"كيركجارد"، وكل فلاسفتك الذين تلبَّسوا رأسك. عليكم اللعنة، ولتذهبوا جميعًا إلى الجحيم بلا رجعة. فقط لو تبقى معي قليلًا يا "شادي" لتردد اسمي مرَّات متتالية كما عوَّدتني، ولتهمس لي بصوت منخفض حنون أنك تعرف أنني أكثر تسامحًا منك، وأنك تنجذب لي لأنني في مثل طيبة "فؤاد المهندس".

استدار وجهي مع قَصَّة الشعر الجديدة، وجعله اللون الأحمر مثل قمر متوهِّج بعد لحظات خسوف كلي. لم تكن "نانا" قد انتهت بعد من التصفيف حين سمعنا صراخًا من الدور الثالث. لم يُفزَع أحدٌ سواي، حتى إنني كدت أنتفض من فوق الكرسي وأركض صاعدة لأتبيَّن ما يجري.

قالت "نانا" في هدوء:

- إنها "أمينات".

. لكن الصوت يأتي من شقتي.

. نعم. "أمينات" هي مَن تنظف شقتكِ كل يوم أحد.

. قسم الشرطة على بعد بنايتين، فليذهب أحد ليستدعيهم. ربما تعرضت المرأة لهجوم، أو انتابتها هستيريا تجعلها تحطم المكان، وقد وعدت "تارا" أنني سأسلِّمها الشقة مثلما تسلَّمتها.

ـ أميلي رأسكِ إلى الأمام قليلًا، لكي أرشَّ سبراي زيت ليُغذِّي الشعر، حتى لا تجف الأطراف من الصبغة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت لي "نانا" إنهم مُعتادون على هذا السيناريو الذي يتكرَّر كل يوم أحد، حيث تتلقَّى "أمينات" مكالمة أسبوعية من ابنتها على التليفون الأرضي لشقة "تارا". تخبرها الابنة بأسماء "المجاهدين" العائدين من سوريا أو العراق، فقد انضم ابنها ذو الستة عشر عامًا للدواعش منذ ما يُقارب أربع سنوات. وكلما عرفت أن ابنها ليس من العائدين أطلقت تلك الصرخات التي اعتادوها في العمارة، ولا تؤثر بالسلب على نظرتهم لـ"أمينات"، التي من المفترض أن تهدأ كالمعتاد وتبدأ في الغناء والعمل بعد قليل.

كان كمُّ المعلومات الصادمة أقوى من قدرتي على استيعابه دفعة واحدة. فقد صوَّر لي خيالي شكل مَن ترتب لي أشيائي برقَّة وذوق رفيع، على أنها فتاة في العشرين، تعمل في تنظيف الشقق لتكمل دراستها الجامعية، أو لتُعيل إخوتها الصغار، أو لتُريح أمها التي ربما تُشبه النساء اللاتي أعياهن فقد الزوج، ويبعن الورود أو الفواكه المجففة لكسب العيش. ولا أدري لماذا تخيلتها ترتدي الزي التقليدي لخادمات القصور كما نشاهدهن في المسلسلات، والذي يشبه "يونيفورم" عاملات خدمة الغرف في الفنادق الفاخرة. ولم يخطر ببالي قط أن تكون امرأة تفتتح نهارها بالصراخ، ولها ابن داعشي، ربما قرر أن يعود هو وحفنة من رفاقه ليختبئوا في شقتي، بعد أن يقوموا بتصوير مشهد ذبحي ويعرضوه على الفضائيات.

تترك "أمينات" الأبواب الأربعة المُؤدِّية إلى شقتي مفتوحة، لذا يرنُّ الصوت الآتي من الشقة في الأدوار الثلاثة الخالية، وفي بئر السُّلَّم الواقع بين محل الكوافير ومكتب الصرافة. بعد فترة هدوء قصيرة مشوبة بالحذر من جانبي، يتدفق صوت عذب بكلمات جورجية وألحان كالبكائيات، تمس القلوب وتجعلك شغوفًا بأن ترى صاحبته، وجاهزًا لأن تحتضنها بمودَّة لأنك قد وقعت في غرام أحبالها الصوتية.

دخلت شقتي المفتوح بابها، وقد تم ترتيب المقاعد بطريقة جديدة أكثر راحة للعين، وتم وضع حبل من العنب المجفف في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طبق مستطيل على منضدة السفرة. كانت "أمينات" تهم بالرحيل، ففُزعَتْ لما رأتني في منتصف الصالة، واندهشتُ أنا الأخرى من شكلها وملبسها، ليس لغرابته، بل من فُرط أُلفته. امرأة في الخامسة والأربعين تقريبًا، ترتدي جلبابًا فضفاضًا باللون الأزرق، وبه ورد صغير أصفر، وتعقد شعرها بمنديل رأس أسود اللون، وتتدلَّى من تحته ضفيرتان صغيرتان. لفحت بشرتها شمس ثقيلة، وزوَّدت جانبي عينيها الكحيلتين بتجاعيد تزيد على المتعارف عليه في مثل هذه السن. رحَّبت بي "أمينات" بجملة طويلة تضمنت كلمات جورجية وإنجليزية متكسِّرة وعربية، أو بمعنى أدق "إسلامية".

ذكَّرتني هيئة "أمينات" بامرأة من الماضي السحيق، كدت أنساها على الرغم من أنها قد لعبت دورًا رئيسيًّا في طفولتي المُبكِّرة؛ "أم أحمد"، تلك الفلاحة التي جلبتها تيتة "نازلي" من البلد لتحملني، وتهدهدني، وتحكي لي حواديت بدائية، وتقنعني بأن الوشم الأخضر المدقوق على كفِّها قد نما تلقائيًّا لأنها تأكل كل ما في صحن اللحم والخضروات، وتأخذني في نزهات قصيرة عصرًا على كورنيش النيل القريب من شقة "جاردن سيتي". اختفت "أم أحمد" وأنا في الرابعة تقريبًا، لكن تيتة "نازلي" ظلَّت تلعنها كلما تفرَّجنا على الصورة التي تجمعني بها؛ لأنها غادرت بلا سابق إنذار وظللت أبكي ستة أشهر كل مساء لأنني أريدها أن تحكي لي حدوتة وأن تربت على شعري بالكف الكبيرة ذات الوشم الأخضر حتى أستسلم للنوم.

قلت لـ"أمينات" إنني مُمتنَّة على ترتيبها للشقة، وعلى لفتاتها الرقيقة في لف غطاء السرير والفوط على هيئة وزَّات وقلوب، فضحكت وقالت إن صديقتها "أمرا" الأبخازية هي مَن علَّمتها فنون الفنادق هذه. كاد الفضول يقتلني من الأريحية التي تتحدث بها "أمينات" والمتناقضة مع الصخب الذي بدأت به يومها، فجررت خيط الكلام حتى أصل معها إلى الموضوع الذي صار يسيطر على تفكيري الآن. كانت الاستجابة أرحب وأكثر سخاء مما توقعت حين لم أقل سوى جملة واحدة غير مباشرة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صوتكِ أطربني، لقد سمعتكِ من الدور الأسفل. لكن لماذا أغنيتكِ حزينة؟

ـ حزينـة؟!!! هـذه أغنيـة أفـراح، ومـن المفتـرض أن تغنيـها معي أخريـات بطبقـات صـوتية متعـددة، لكننـا هكـذا، نغـنِّي بـاحترام، ونرقص بوقار، ومع ذلك لم يعجبهم وحرَّموا علينا الغناء.

. مَن هم؟

ـ الشـيشان الوهـابيون. فـأنا مـن وادي "بانكيسـي"، شرق منطقة "كاخيتي". هناك قرى وفد إليها الشيشان بالوادي، وصار رجال الـدين الـذين تـأثروا بـالتعاليم الوهابيـة يمنعون الرقص والغناء وسماع الموسيقى التي تربَّينا عليها واعتدنا سماعها ونحن نفرح أو نـحزن أو نصلي أو نعمـل، وألبسوا النساء الحجاب والنقاب، وصـار الرجـال يـربون ذقـونًا طويلـة غـير مشـذبة ويـدخلون سراويلهم في جواربهم، ويشغلون أغاني داعش بصوت مرتفع في سـياراتهم، وكأنـهم يتبعـون موضـة أو تقليعـة عصـرية. موضـة انتزعت أكثر من مائتي شاب وفتاة من أحضان أمهاتهم، وأرسلت بهم إلى مصائر مجهولة في بلاد لم يخطر ببالنا أننا قد نزورها يومًا.

. وهل قريتكِ في چورچيا أم في الشيشان؟

ـ أنـا مـن وادي "بانكيسـي" علـى الحـدود مع جمهورية الشيشان الروسية، على بعد مائة وستين كيلومترًا فقط من "تبليسي". ولما هـرب المتمـردون الشـيشان لـيختبئوا لـدينا أثنـاء حـرب الروس والشيشان عام 1994، جلبوا معهم الوهابية التي صارت موضة بين تسعين بالمائة من الشباب. ولما قامت حروب لا أدري عنها شيئًا منذ بضعة أعوام في سوريا، سافر مَن سافر ليحصل على المال، خاصة أن الشباب يعاني البطالة والفقر، ومنهم مَن انتفض لمحاربة "بشار" لأن روسيا تسانده. واللّه ما شعرنا بأي شيء في البيت، ولـم يحـدثنا الصبي أبدًا في تلك الأمور، ولا حتى لمَّح لصـديق عُمـره "جورجيو" قبل أن يقاطعه فجأة. يظنني الناس أصرخ حين تكلمني "مليكة" على التليفون لأن ابني ليس من بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العائدين المُشوَّهين. أنا أصرخ لأن الفتاة ترفض أن تعيش معي في "تبليسي" بحجة انتظار أخيها، لكنني أعلم أنها تحلم بالهرب والسفر إلى سوريا هي الأخرى خلف زوجها. أما أنا حين فقدت الأمل من انتظار الصبي على دكة أمام الدار صباح مساء، اتبعت الحدوتة الشعبية وفعلت مثلما تقول الأسطورة.

كنت قد أعددت صحنًا عميقًا من الكشري المصري أثناء انهماك "أمينات" في الحكي، وكأنها كانت تبحث عن أُذُن تبثها تاريخ بلدتها المجهولة هي الأخرى. غرفت لها صحنًا وجلست للمرَّة الأولى أتناول غدائي على منضدة السفرة، وليس فوق الكراسي الخشبية العالية في المطبخ وأنا في عجلة من أمري.

- تقول الأسطورة إن حفنة من الأولاد الشيشان قد خرجوا للبحث عن بعض الخراف الضالة، فتاهوا في جبال "القوقاز". وبعد بضعة أيام، خرج آباء الأولاد للبحث عنهم، ووصلوا للجانب الآخر من الجبال، فوجدوا أنفسهم في غابات چورچيا الكثيفة الوعرة. كانوا مُجهدين جدًّا من الرحلة، فضربوا بعصيانهم في الأرض واستندوا عليها حتى أذهبهم التعب في نوم عميق حتى اليوم التالي. وفي الصباح، وجدوا عيونًا من الماء قد تفجرت في الأماكن التي غرسوا فيها عصيانهم، وقامت طيور السنونو ببناء أعشاش فوق رؤوس العصي. اعتبر الرجال تلك المعجزة إشارة من الله، وكفوا عن البحث عن الأولاد الضالين، واستقروا في تلك الأرض، مثلما اعتبرتُ عرض "تارا" للعمل لديها ولدى بعض معارفها، إشارة من الله بترك "بانكيسي" والاستقرار في "تبليسي". فقد كان والدي يعمل منذ سنين طويلة لدى والد "تارا" في معصرة النبيذ الشهيرة في "كاخيتي"، وهنا وهناك أرض الله.

وضعت "أمينات" كفها الكبير على رأسها، كإشارة إلى أنها أوجعت رأسي، فأخذت أحملق في تلك الكف وكأنني أبحث عن وشم أخضر اللون ينمو تلقائيًّا لو أنهيت كل ما في الصحن من خضر ولحم. وعلى سيرة اللحم، قلت لـ"أمينات":

- ما رأيكِ لو رافقتني هذا المساء للتمشية عند نهر "كورا"، ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دعوتكِ للعشاء على "خينكالي" باللحم، تعويضًا عن هذا الغداء المتواضع؟

لطالما أزعجني كيف صار ينصبُّ اهتمام تيتة "نازلي" قبيل رحيل "چيمي جدو"على أحوال الخدم أكثر من تركيزها على حصولي على عمل أو فرصة جديدة في عالم الموضة. صارت ترفع الكلفة وتنطلق في الحكي بلا قيود وكأنهن قد صرن صديقات لهن الحق في الاطلاع على أدق أسرار البيت. لا أظن أن تيتة "نازلي" كانت تتصرف هكذا لأنها تُعاني الوحدة أو الخرف، أو حتى من منطلق حق البروليتاريا في حياة متساوية مع الأسياد، مثلما يزعم "شادي"، بل لوجود خيط خفي يربط بينهن حين تسقط الحواجز، كحنين لحدوتة قديمة أو لامرأة فقيرة من زمن مضى كانت تحنو عليها أكثر من أمها، مثلما أجد نفسي الآن في تلهف على انتظار رد "أمينات" على عرض التَّنزُّه معي ليلًا.

قالت "أمينات" ما معناه إنها تعتبر عرضي السخي شرفًا عظيمًا، لكنها لن تستطيع قبوله اليوم، لأنها قد وعدت صديقتها "أمرا" أن تمر عليها بعد أن تنهي ورديتها في فندق "ميجوتيل" وتذهبان للتمشي معًا عند النهر.

ابتهجت للوقع المألوف لاسم فندق "ميجوتيل"، وكأنني صاحبة أهل وعشيرة. فقد جلب مجرد ذكر اسم الفندق أسماء أخرى كـ"ريموندا"، و"أمجد"، و"مطيع". قلت:

- لا تعارض إذًا، فلنأخذ صديقتكِ "أمرا" معنا. أنتِ بحاجة إلى الونس في مدينة ليس لكِ فيها أهل.

قالت بهدوء وثقة:

- جئت إلى هذه المدينة بكامل إرادتي، وأستطيع أن أعود إلى بلدتي إن أحببت. أما "أمرا"، فستدخل السجن أو تُقتل إن جُنت وقرَّرت العودة إلى "أبخازيا".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(10)

الألوان الزاعقة التي صدمت عين "أمجد" عند مدخل فندق "ميجوتيل" نشَّطت سُرعة البديهة لديه، وأيقظت حاسته السابعة. شاهدنا "أمجد" فجأةً عند مكتب الاستقبال، أنا بفستاني الجورجي الأخضر الزاهي، و"أمينات" بجلبابها الأزرق ذي الورود الزهرية، فابتكر كذبة بيضاء.

مررنا على الفندق لنأخذ "أمرا" صديقة "أمينات" في نزهة على نهر "كورا"، وكان "أمجد" يحاول استرضاء زبونتين عراقيتين جاءتا إلى "تبليسي" لعمل جراحة تجميل في أسنانهما لكي تحصلا على ما يسمى بـ"ابتسامة هوليوود". تعيش المرأتان بالفعل بالقرب من "هوليوود" وتحاولان إنتاج فيلم وثائقي عن الموضة والتراث، وانتهزتا فرصة وجودهما في "تبليسي" لأخذ بعض اللقطات التي تفيدهما في مشروعهما. كانت السيدتان قد اتفقتا مع "ريموندا" على أن تأخذهما في اليوم التالي إلى مراكز إحياء تراث الملابس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجورجية، لكن "ريموندا" اعتذرت لأسباب عائلية. استيقظت ذاكرة "أمجد"، فقدمني للمرأتين بكل ثقة بالاسم الذي يبدو چورچيا تمامًا:

- "تمار إيلوشيفيللي". مصممة أزياء خبيرة بتاريخ الموضة في چورچيا، وتتحدث العربية أيضًا، وستصحبكما غدًا بدلًا من "ريموندا".

ألجمتني المفاجأة، ليس لأنني غير مستعدة لاصطحاب المرأتين، بل لأنني كُنتُ أتسكع قبل يومين ضمن رحلاتي المكوكية الصباحية على فترينات محال "ساموزيلي بيرفيلي"، و"ماتيريال"، و"فابريكا تبليسي"، المتخصصة في إحياء الملابس التقليدية الجورجية، وما جرأت على الدخول، حتى لا أصاب بإحباط إضافي بسبب ارتفاع الأسعار. ظن "أمجد" أن التعبير المتجمد على وجهي سيعقبه اعتذار أو رفض قاطع، فسحبني من ذراعي وهمس لي بأنه سيمنحني ضعف ما كانت ستأخذه "ريموندا" في مقابل أن أخرجه من هذا المأزق.

حين تمنحني السماء وهبة كهذه، ترسل لي إشارات وعلامات قبلها حتى تطمئني. لم أكن قد شاهدت أرقامًا متكررة لها أسرار ورموز بأن هناك ملائكة تحرسني وترشدني إلى مسالك رحبة كما تعودت؛ بل رأيت الملائكة بذاتها في الليلة السابقة. لم يعم السواد المعتاد حين أغمضت عيني لأخلد إلى النوم، بل سادت تفاصيل وجه "چيمي جدو" كأنها تنظر لي وهي طافية على سطح من الماء؛ شفاهه الداكنة، مسام بشرته اللامعة عقب حلاقته لذقنه، وعيناه الواسعتان تنغلقان ببُطءٍ حتى بدأت أنعس في ارتياح، فتبدل المشهد إلى نقاط صغيرة من نور ساطع، تبزغ لها أجنحة من ضوء، ترفرف جيئة وإيابًا على خلفية الرؤية الداكنة، فأدركت أنه اتصال نوراني، لكنني للحق لم أسعَ إلى تفسيره.

توقعت أن تُكمل "أمرا" مشهد الحديقة الحافلة بالألوان الذي كونتهُ أنا و"أمينات" بملابسنا، لكنها خرجت من مطعم الدور الأرضي بجونلة رمادية تحت الركبة، وقميص أبيض بسيط،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يناسب قدَّها القليل وشعرها الأسود القصير. كانت ملامح "أمرا" وصوتها تُشبه ملابسها؛ هادئة ومحايدة، وكأنها صاعدة للتَّوِّ من بئر سحيقة نعمت فيها بروعة السكون ورقرقة المياه. لا نزهة تناسب هذه المرأة أكثر من التمشي فوق جسر السلام "بيس بريدج"، المصنوع من الزجاج الشفاف، وتنعكس أضواؤه وأنوار المدينة القديمة على مياه نهر "كورا" تحته.

قامت موسيقى "آفا ماريا" الأوبرالية التي تحرك النافورة الراقصة، وضحكات الأطفال الذين يلهون في ساحة الجسر، ونداءات بائعي أكاليل الورد وعصير البرتقال الطبيعي، بملء الفراغ الصوتي الذي حل على تلك النزهة. شعرتُ أن المرأتين يستثقلان وجودي معهما، على الرغم من صمتي معظم الوقت وتبادلهما لبعض الأحاديث الجانبية بالجورجية. لم تضايقني حواراتهما التي لم أفهم منها شيئًا؛ لأنني أحسست أنا الأخرى أنني قد تورطت في تلك التمشية الهادئة، وأنه يجب أن أركض الآن إلى شارع "كوت أبخازي" بالمدينة القديمة؛ لأتعرف على مديرة محل "ماتريال" الذي يعرض ملابس مُصمِّمي الموضة الجورجيين، أو أن أهرب إلى محل "ساموسيلي بيرفيلي"، لأملأ عينيَّ بكل قطعة فضَّة أو ذهب أو ملابس الريف والحضر التقليدية والمسماة "شوخرا" أو "كالاكوري كابا"، وفقًا للمنطقة التي تعبر عنها، حتى أكون جديرة بدور المرشدة السياحية الذي سأقوم به غدًا.

يُفترض أن يضع تناول العشاء حدًّا لتلك النزهة التي ورطت نفسي فيها، كتعبير بالامتنان عن رقَّة وذوق "أمينات" في الاعتناء بالشقة، ولم أضع في الحسبان عرض "أمجد" المدهش الذي ضم الموضة والتاريخ في قبضة يد واحدة، أو ركود روح "أمرا" صديقة "أمينات" الساكتة، التي علَّمتها فن تنسيق الغرف كالفنادق. ما هوَّن عليَّ وطأة وجودها هو شعوري الأصيل بالتعاطف مع موظفي خدمة الغرف، الذين يحولون فوضى غرف أدوار بأكملها إلى إحساس حريري لذيذ، حين تعود إلى غرفتك بالفندق وكأن عصا ساحرة طيبة قد لمستها، بينما كُنتُ أعجز في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طفولتي عن ترتيب فوضى غرفتي بعد أن ألعب "محل الملابس"، وتنالني علقة من تيتة "نازلي".

اقتربنا جدًّا من المطعم الذي يقدم "الخينكالي" الشهي بشارع "شافتيلي"، إلا أن أمرين قد صرفاني تمامًا عن شعوري بوجود "أمينات" وصديقتها "أمرا" معي، فقد وجدتني أمام كاتدرائية "سيوني" التي بُنيت في القرن الخامس، وقيل إن العرب قد دمَّروها بالكامل، ثم أعاد الملك "ديفيد" بناءها، وأنها سميت "سيوني" نسبة إلى جبل "صهيون" في القدس. تعجبت أنني لم أعد أبالي بالحوادث التي وقعت للكنائس مثل ذي قبل، فقد بدأ يصيبني هوس من نوع آخر، تخيل مشهد القس "أندراوس" وهو يخرج في جلال من بوَّابة الكنيسة، أي كنيسة، وأنا أجري نحوه وأقول له أنا "تمار أبو لاسة الشوافيلي"، لقد أحضرت الإنجيل الذي تريده معي، والقرط القديم أيضًا، لقد حافظت أسرتنا عليه لأجيال لا أعرف منذ متى، خذهما وسلمني الكنز الذي وعدتني به في رسالتك، أنا وحيدة في هذا البلد، وسينفد مالي، والشهر الذي استأجرت فيه الشقة يوشك على الانتهاء، لماذا لا ترد على رسائلي؟ ما حكايتك؟ لماذا تفعل بي ذلك؟!!!

- " تمار".

قيلت بصوت ذكوري عميق آتٍ من وسط مجموعة من السياح يتحلقون حول مَن ناداني.

- "مطيع".

قلتها بفرحة طفولية وهرعت نحوه، وتبعتني "أمينات" و"أمرا"، لكن ما كدت أقترب منه، حتى وجدته ينخرط في إلقاء خطبة، أو حكاية والكل ينصتون باهتمام:

- "تمار" اسم ستجده بين معظم نساء چورچيا وروسيا وبلاد كثيرة أخرى، ليس فقط لأنها كانت ملكة العصر الذهبي في چورچيا؛ بل لأن "تمار" في الأسطورة الجورجية كانت إلهة للسماء، ولها قدرة على التحكم في الجو. اتخذت "تمار" "ديليس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاركاسفلافي" عبدًا، وكان نجم الصباح، وسيد الشتاء. أينما هرب، يبدأ الجليد في السقوط، لكن "تمار" كانت تقبض عليه مرَّة كل عام وتحبسه، فيعود الصيف إلى البلاد ويغمر الدفء الأرض والسماء. كانت "تمار" عذراء أبدية، تمتطي أفعى مجنحة، مسرجة ومقيدة بالذهب.

ظلت المجموعة المحيطة بـ"مطيع" على صمتها وذهولها وكأنهم لا يريدون للحدوتة أن تنتهي، فقال:

- نسيت أن أقول لكم إنكم لو سمعتم اسم "تامي"، أو "تارا"، أو "تامريكو"، أو "تامونا"، فاعرفوا إنه بالأصل "تامارا".. وأنتِ يا حلوة ياللي واقفة هونيك، ليش سموكي أهلك "تامارا"، مشان مسكَّرة ولا لذيذة؟ انتبهي إنك هتحكي حكايتك هلأ وهون.

أضاف "مطيع" تلك الجملة بالعربية وبلكنته الفلسطينية التي تطربني، بعد أن بدأت مجموعة السائحين تستعد للانصراف.

لـ"مطيع" مكان ثابت على الرصيف بين كاتدرائية "سيوني" وميدان ساعة مسرح العرائس "ريزو جابريادزة"، يقول فيها حكاياته المدهشة، بعد أن يُشاكس المارَّة، خاصة المجموعات السياحية. ينادي الفتيات، ويثني على أشكالهن، وينادي الصغار ويقول إنه سيحكي حدوتة قصيرة، فيجعلوا آباءهم يتوقفون. يتنقل "مطيع" في الحكي بين الجورجية والإنجليزية بمهارة، ويقوم ويقعد ويمسك بعصا أو كوفية، وكأنها بطلة أو حبيبة، فيعم صمت مقدس بين الجمهور وكأنهم يحضرون عرضًا عالميًّا في دار أوبرا. وبعد أن يكف عن الكلام، يشير إلى أحد الحضور ويطلب منه أن يحكي حدوتة قصيرة من وحي حكايته، وإن صفق الجمهور بشدَّة سيمنحه كوفيته كهدية.

وجدتني أتفاعل معه دون أن أشعر، وأتدلل مثلما يفعل كلما حدثني، فسألته:

- هلأ ولا هون؟

التفت حولي فلم أجد مَن توحى هيئتهم بأنهم يفهمون العربية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأكملت:

- هاي دلع ولا مياصة؟

قال:

- أنا عم إحكي جد. إحكي حكايتك بصوت عالي.

أعجبتني روح الأساطير التي تهيمن على كلام "مطيع"، فتخيلتني "تمار" التي تمتطي الأفعى المجنحة المسرجة بالذهب، وبدأت حكايتي بأن البراق طار من أمام نافذتي في سماء "تبليسي" منذ عامين، فعدت ومعي فردة قرط متكسِّرة وإنجيل أوراقه صفراء، سأدفعهما مهرًا لكنز سيمنحني إياه قس مجهول، وسأعود بعد الشقاء إلى سيرتي الأولى من العز والنعيم، وسأعود إلى بلادي التي يعني فيها اسم تمارا "تمرة"، بعد أن أنزل من فوق ظهر الأفعى وأمتطي البراق؛ لأنني ولدت في الليلة التي تنقل فيها البراق بين المدن الأرضية المقدسة والسماوات السبع.

صفَّق الحاضرون، لكن "مطيع" اعتذر عن عدم تقديم كوفيته كهدية لي لأن آخر كوفية كانت معه أعطاها لطفل صغير، وقال:

- بتحبي أعطيكي إياها بالبيت ولا بالدار؟

قلت له وأنا أشاكسه تعليقًا على لكنته الممطوطة التي تجعله يبدو وكأنه يتدلل:

- لأ بتعطيني إياها يا إما بالدلع يا إما بالمياصة.

وانصرفنا أنا و"أمينات" و"أمرا" حتى لا نتأخر عن العشاء.

أصابت عدوى الحكي "أمرا" الساكتة، حتى أنها لم تأبه كثيرًا لأطباق "الخينكالي" الطري الذي يفوح بالسخونة والطزاجة، وقالت إنها ستنتظر حتى يبرد قليلًا، ثم تنحنت وكأنها ستشرع في أمر محرج، وقالت:

- صديقكِ الحكاواتي هذا، إما مجنون، وإما أنه يحبكِ كثيرًا. لقد رأيت وجهي في الزحام حتى لا يتذكرني، ويحدث ما حدث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين حكيت حكايتي في لعبته تلك. أتيت منذ فترة بصحبة بعض السياح من نزلاء الفندق مع "ريموندا" و"أمجد". ينوع "موتي" هذا في طرق الحكي، وقد كان في ذلك اليوم يلعب مثل الساحر الذي يطلب من المتفرجين ساعة ذهبية ويحولها إلى تراب ثم يعيدها سليمة. كانت حيلته في ذلك اليوم أن ينادي المارة وكأنه يروج لبضاعة: "قل لي اسم مدينتك وتاريخ ميلادك، أقل لك ماذا حدث في چورچيا في مثل هذا اليوم، وأرشدك إلى أفضل مكان تذهب إليه".

عادة ما يتوقف المارَّة لينصتوا إلى "موتي"، فلا يبدو من هيئته أنه مجنون يهذي. تُجبر وسامته وأناقة ملبسه وصوته الجذاب أي شخص على التوقف عنده، حتى وإن كان سائحًا متعجلًا. تحمست ورفعت ذراعي وقلت بصوت عالٍ: "أنا من أبخازيا، وولدت يوم 9 أبريل". امتقع لون وجه "موتي"، ونفرت عروق جبهته ورقبته، وتبدَّلت ملامحه الجميلة إلى ملامح رجل ملبوس بالجن، وقال لي:

"فلتعودي إلى بلدك، أو لتذهبي إلى الجحيم، أو الأفضل أن تتسكَّعي في شارع "روستافيللي" لتلقي باقة ورد بجوار النصب التذكاري، كالمجرم الذي يقتل القتيل ويسير في جنازته".

شعرتُ بحرج شديد أمام المارَّة، وانزويت في جانب أبكي. احتضنتني "ريموندا"، وأعادني "أمجد" إلى الفندق. وفي الطريق، أفهمني إنها قد تكون ذكرى حزينة بالنسبة له، ففي مثل هذا اليوم منذ سبعين عامًا، أراق الإسرائيليون دماء أكثر من مائتي وخمسين رجلًا وامرأة وطفلًا في قرية تدعى "دير ياسين" في بلد "موتي" فلسطين، واستوطن اليهود القرية، ثم أعادوا بناء المستوطنات فوق أنقاض القتلى، وسموا الشوارع بأسماء منفذي المذبحة التي أرعبت الفلسطينيين آنذاك وتسببت في تركهم لبلادهم وتشتيتهم، فربما مات أحد أقاربه في تلك المذبحة. لم أقدر أن أسامح "مطيع" من تبرير "أمجد" لإهانته لي على الملأ، فكان من الأجدر به أن يتعاطف معي أنا المطرودة من بلدي أنا الأخرى، بدلًا من أن يقول لى أن أذهب إلى الجحيم أو أشرب من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دماء الشهداء الجورجيين. صديقكِ هذا مُختل عقليًّا.

يبدو أنني أجذب وأنجذب إلى أولئك الأشخاص الذين يجمعون بين كثافة الكشمير وخفة القطن، نعيم الجنة، ولهيب جهنم، مثل "فادي أباظة"، و"شادي عبد الهادي"، و"ألبرت راسيل". الوحيد الذي حافظ على ملمسه الخشن كان "محمد الخيامي"، وقد لفظتهُ غير آسفة ورفضته الحياة بأكملها.

بثَّت سيرة "مطيع" الروح في الصحبة التي جمعتني بـ"أمرا"، والتي بدأت فاترة باهتة وتحوَّلت الآن إلى جلسة حميمية ساخنة، حتى إنني تحمَّست لسماع حكايتها على الرغم من امتلاء المطعم بالرواد والصخب والموسيقى الفلكلورية الجبلية. ظهر النادل مرَّة أخرى ليرى إن كنا نريد أن نشرب شيئًا، فنظرت "أمينات"، و"أمرا" كل منهما للأخرى، وقالت "أمينات":

- نبيذ أحمر.

بينما قالت "أمرا":

- شاي.

وانخرطتا في الضحك، وكأنه أمر متفق عليه مُسبقًا.

تعجَّبتُ كيف تطلب "أمينات" المسلمة ذات الابن الداعشي المتشدد خمرًا، وتطلب "أمرا" الأرثوذكسية التي تتناول النبيذ كشراب مقدس في الكنيسة شايًا. لمحت السيدتان علامات الدهشة الصامتة على وجهي، وقالت لي "أمرا":

- هذا تقليد نتبعه خاص بنا نحن الاثنتين فقط.

وصل الشاي والنبيذ قبل أن تكمل "أمرا" حكايتهما، وشرَبَتْ رشفة من الشاي الملتهب بتلذذ، وقالت:

- هذا نخب طفولتي السعيدة التي ذهبت بلا رجعة. أنا و"أمينات" فلاحات قبل كل شيء. لم نعرف في طفولتنا أن في العالم بلدانًا أبعد من قرانا الصغيرة، هي في "كاخيتي" تغسل قدميها وترفع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثوبها وتدب بقدميها فوق الكروم في المعصرة التي يعمل بها والدها، كفقرة تقدم للزائرين عن طرق عصر النبيذ القديمة. وأنا أجري مع فتيات صغيرات في مثل سني في حقول الشاي الشاسعة، نقطف أوراقه ونضعها في أجولة كبيرة، وأنا أتأمل الجبال الشاهقة ذات الكهوف والقمم الثلجية، وجداول المياه الصافية أو أضحك تحت الأمطار الغزيرة بقرية "جالي" في "أبخازيا".

قلت لها:

- تستطيعين أن تعودي إلى "أبخازيا" بلدك، ألم تنل استقلالها من چورچيا مثلما أراد الانفصاليون؟

فقالت:

- أنا لا أفهم شيئًا من هذه الأمور. كل ما أعرفه أن والدي من أصل جورجي، ووقع في غرام والدتي الأبخازية وتزوجها وأنجبا أنا وإخوتي، في مقاطعة "جالي" في "أبخازيا". بعدما كبرنا قليلًا، عرفنا أن "أبخازيا" هي چورچيا، مثلها مثل أي مدينة تقع على حدود دولة. ولما كبرنا أكثر، سمعنا أن چورچيا استقلت عن الاتحاد السوفيتي، فاغتاظ الروس وهيجوا بعض أهالي "أبخازيا" ليستقلوا عن چورچيا. جاء الروس بجنودهم وأسلحتهم وألغامهم ليعاونوا الانفصاليين، واشتعلت الحرب بينهم وبين قوات چورچيا، ودُمِّرت الديار وقُتل أكثر من عشرين ألفًا ونحن كصغار نسمع ولا نفهم. طردونا الروس والانفصاليون الأبخاز من ديارنا بالملابس التي علينا، وقالوا لنا مثلما قال صديقكِ"مطيع" "أن نغرب من هنا"، ومنعونا منعًا باتًّا من العودة إلى "أبخازيا" لأن والدنا من أصل جورجي. هل عرفتِ الآن لماذا تطلب "أمينات" النبيذ وأطلب أنا الشاي؟

مرَّ النادل وهو يحمل صينية عليها أكواب سموزي موز باللبن، فتذكَّرت صوت الخلاط الرهيب حين كانت تيتة "نازلي" تضع فيه شرائح الموز ومكعبات الثلج واللبن الحليب، ونشربه في أكواب كريستال في البلكون أنا و"چيمي جدو" عصرًا. أشرت للنادل

105 دقيقة متبقية من الكتاب 69%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأنني أريد من هذا، ولما أحضره في لمح البصر، رفعنا كؤوسنا مُتنافرة المذاق والنكهات في صحَّة الطفولة السعيدة البعيدة.

مرَّ طيفه بخطى هادئة وواثقة من خلف زجاج المطعم، وكأنها لقطة في حلم."مطيع" ببدلته الزرقاء الأنيقة وشعره الأملس المرتب، وحول عنقه تلتف كوفية فلسطينية في طيات عديدة، مع أنه قال لي منذ قليل إنه ليس بحوزته واحدة لكي يعطيها لي مكافأة على أسطورتي الحقيقيَّة التي حكيتها بصوت عالٍ على الملأ.

(11)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أصدق أنني ذهبت إلى كل تلك الأماكن اليوم بصحبة "ريم" و"عاليا" العراقيتين. لو كان الوقت الذي قضيته اليوم معهما قطعة من القماش، لتصورته رداءً خلابًا ليس لتصميمه مثيل، أزراره أقمار صغيرة، وخيوطه الذهبية منسوجة من عين الشمس. شعرت أنني "شهر زاد" بذاتها، الحكاءة الأشهر في التاريخ وأنا أدلف إلى محل "ساموسيلي بيرفيلي"، وأمسك بكل قطعة ملابس جورجية تقليدية، وأضعها بشماعتها على جسدي كأنني أرتديها وأنا أحكي تفاصيلها الفنية، وطرق حياكتها، وتاريخ البلدة التي نشأت فيها، بينما تمسك السيدتان بكاميراتهما لتصوراني وأنا أتألق كبطلة مسرحية بين خامات الأقمشة ووقائع التاريخ. وفي منتصف الحكي، تلوح لي غمَّازة "شادي عبد الهادي" التي تغوص في وجهه حين يضحك ساخرًا من جهلي بتفاصيل أحداث الماضي لأنه الأبرع والأقدر على قراءة ما بين السطور. فأجدني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القديمة. نمر على بيوت أزياء "ماتيريال"، و"شاردان وان"، و"بيرو لـوفو"، أمـرر يـديَّ علـى ملمـس النسـيج الفـاخر، وأجـرب بعـض الفساتين والتاييرات، وأنا أشرح كيف وصل المصممون الشباب الجورجـيون إلـى السـجادة الحمراء في "هوليوود"، بمبتكراتهم العصرية التي استلهموها من الأزياء التقليدية، فأتخيل "چيمي جدو" وكأنه يصفق لي من غرفة القياس ويمنحني مقصَّه الذهبي، لا لأفصل به، بل كجائزة على مهارتي في الحكي، مثله ومثل "أم إدريس"، ومثل ميس "عايدة". المدهش أنني كُنتُ قد حصلت على الجائزة مُسبقًا من "أمجد"، حين منحني أجر مرشد سياحي عن يـوم اسـتثنائي، تبعـه عـرض بـالعمل لـيومين أسـبوعيًّا بالفنـدق، كمرافقة سياحية للنساء اللاتي يرغبن في التسوق والتعرف على الجانب الناعم العصري البرَّاق من مدينة "تبليسي".

لم أعقد الآمال على أن الفيلم الخاص بالموضة في "تبليسي" الذي صـورته "ريـم" و"عـاليا" سـيظهر فعلًا في "هوليـوود"، وقـد كُنـتُ محقـة فـي توقعـي. فقـد كـان مجـرد فيـديو قصـير للتـرويج السـياحي، رفعتـه المصـورتان علـى "اليوتيـوب" بعـد سـاعات مـن تصويره. لم أعرف بوجود الفيديو إلا حينما جاءني عرض من مجلة سياحية مصورة متخصصة في الترويج لچورچيا بأن أقوم بعمـل فيـديوهات لـديهم، وأحصـل علـى ربـح لا بـأس بـه مقابل الإعلانات. لم تنتهِ كل تلك الأحداث السعيدة بأن استيقظت من النوم واكتشفت أنه كان مجرد حلم لطيف كما يحدث في أفلام السينما، فللمرَّة الأولى يتفوق الواقع على جمال الخيال. كُنتُ فعلًا مُسـتلقية علـى ظـهري بنـهاية الـيوم مُتعبة من مُلاحقة الأخبـار المُفرحة، حين رنَّ جرس الشقة على غير المُعتاد، فلم تكن نسخ المفاتيح الأربعة موجودة سوى مع "تارا" صاحبة البيت. لا بُد أنها قد عادت من "كاخيتي" أثناء غيابي طوال النهار. أخيرًا، جاءت من تُؤنسني في هذه العمارة الكبيرة التي أسكنها وحدي. فتحت أقفال الباب الأربعة لأجد أمامي كوفية فلسطينية ذات المربعات التـي تُشـبه نقشـة الـ"بيي دو بوول" التي أعشقها، مفرودة على ذراعيه كوشاح يُقدَّم لفائز في بطولة ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. "مطيع"!! هي "تارا" رجعت؟

. شو؟

. أومَّال مين اللي فتحلك الأربع أبواب؟

للمرَّة الثانية أقابل مفاجأة من "مطيع" بسؤال سخيف، فحين حدَّثني في التليفون من أمام العمارة المرَّة السابقة، سألته كيف حصل على رقم تليفوني المحمول.

. ما حدا فتحلي أي أبواب. أنتِ ما سكِّرتيها بالأساس يا حلوة.

تنفَّست الصَّعداء لأن "تارا" لم تكن موجودة لتشهد استهتاري وعدم اتِّباعي للتعليمات، ومددتُ ذراعي لأتلقَّى الوشاح الهدية الذي كان قد وعدني به في مقابل الحكي الجيد.

. لأ.. هاي بيلفوها على رقبتهن أو على صدورهن.

وأخذ يلف الكوفية حول عنقي في طيات عديدة ببطء، مثل امرأة تعقد ربطة عنق لرجل تعشقه.

. عارفة؟ في بلاد "القوقاز" كانت المرأة بتقدر توقف الحرب، بس ترمي الشال بين الفريقين.

. على فكرة عندهم حق اللي بيقولوا عليك مجنون.

. طبعًا معهن حق.. بس مين هادول؟

لم أشأ أن أفسد جمال اللحظة بأن أقوم بتأنيب "مطيع" على إحراجه لـ"أمرا" في وقت سابق، وأن أخبره بأنها ضحية للتطهير العرقي مثلها مثله، وشكرت الظروف التي جعلَتْه يستخدم كلمة شامية في جملته الأخيرة لأغيِّر بها مجرى الحديث، فقلت له بدلال:

- هادول؟

لـ"مطيع" لهجة ذات حلاوة خاصة، تليق بوسامة وجهه الطفولي والجعلني أشعر برغبة في استحلاب الكلمات التي تتدفَّق من فمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكأنها حبَّات سكر.

. بدِّك تشربي قهوة؟

وقبل أن أرد عليه بأن واجب الضيافة فرض عليَّ أنا، كان يقف وراء الكاونتر في المطبخ ويعد القهوة التركية، التي فاحت رائحتها المُسْكرة وأنا أجلس على أريكة الصالة في مواجهته مستمتعة بالتفرُّج عليه، كأنه يقدم أحد عروضه المدهشة على قارعة الطريق.

. عارف إني هاشتغل حكاواتية زيَّك؟

. بتعرفي؟

. علِّمني...

كنت أمزح حين طلبت من "مطيع" أن يعلمني فن الحكي، فقد كُنتُ أقول أي شيء لأبقي الحوار قائمًا بيننا، لأتأكد أنه ليس غريب الأطوار مثلما قالت "أمرا". أود لو طالت جلسة "مطيع" حتى مطلع الفجر أو لصباح اليوم التالي، حتى وإن تطلب الأمر أن أمنحه غرفتي لينعم فيها بالراحة، وأغوص أنا على أريكة الصالة في نوم مطمئن. يمنحني وجه "مطيع" الطفولي شعورًا بالأمومة التي لم أمارسها سوى مع كلبي "چاكيت"، ويذكرني شعره الفضي بخصلات شعر "چيمي جدو"، فيلفني إحساس كامل بالدلال والتدليل. أما وجاهته الأوروبية وعطره الفوَّاح، فيجعلانني أستحضر هيئة "ألبرت" الواثقة، ثم أشعر أنني أجلس على كرسي بامبو تحت شجرة النادي الكبيرة وأمتع بصري وحاستي الشمية بأناقة وأريج "فادي أباظة".

وضع "مطيع" أمامي صينية فضية صغيرة بها كوب من الماء وفنجان قهوة واحد، ووضع يديه في جيوبه ووقف يتأمَّل كل اللوحات العالمية والكلمات المأثورة المُعلَّقة بدبابيس على الحوائط.

. إنت مش هتشرب معايا قهوة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. بتعرفي شو أحلى شي بهالبيت؟ الورقة ياللي هونيك.

وأشار إلى ورقة صغيرة مختبئة وسط المُعلّقات الكثيرة، وأخذ يُلملم أغراضه وهو يقول:

- أنا بس جيت مشان أدعوكي على معرض الأزياء والحكي الفلسطيني بالسوق المفتوح يوم السبت.

ثم غمز بعينه، وأضاف:

- وكمان مشان أعملك قهوة. ما تنسي تسكّري الأبواب.

أذهلني أداؤه الجنوني فبقيت على صمتي، مثلي مثل المتفرجين الذين يتحلقون حوله في الشارع. لففت كوفيته مثل شال حول ذراعي، وشربت "قُبلتين" من قهوته جعلاني أسهر حتى طلوع النهار، وأنا أتأمّل الورقة المُعلّقة التي أعجبته المكتوب عليها:

"I don't want to be your friend. I want to be your lover"

"لا أريد أن أكون صديقك. أريد أن أكون حبيبك".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عزيزي القس "أندراوس"،

لقد نفد صبري.

سأذهب يوم السبت إلى السوق المفتوح،

وسوف أعرض فردة القرط ونسخة الإنجيل للبيع.

"تمار الشوافيلي".

اغتظتُ من انصراف "مطيع" المفاجئ من شقتي، على الرغم من تحذير "أمرا" لي بأنه مُختل عقليًّا. كُنتُ في قرارة نفسي أتمنَّى ألا أصدِّقها، أو صوَّر لي غروري بأنه لن تطالني حماقته. لم يخطر ببالي الآن سوى القس "أندراوس" لأنفث فيه غضبي، فهو مَن وضعني في كل تلك المواقف بالأساس، إلا أنني مسحت كل ما كتبته ولم أبعث له بأي رسائل.

باقٍ على يوم السبت ثلاثة أيام، وحتمًا سيكون "مطيع" مشغولًا بالإعداد لمعرضه، ولن أذهب إليه عند مسرح "ريزو جابريادزة" ليحرجني مثلما أحرج "أمرا"، أو ليخذلني مثلما خذلني منذ قليل وتركني في اشتياق للكلام معه. الأجدر أن أهتمَّ بنفسي وبعملي الجديد الذي سيضمن لي أرباحًا في مقابل شغفي بالأحداث والمباني الأثرية.

دسستُ يدي في الحقيبة الصغيرة وأخرجت العلبة المتوارثة التي تحوي القرط والإنجيل، ووضعتهما أمامي على الفراش. أعددت فنجانًا جديدًا من القهوة ليبقيني نشيطة حتى طلوع النهار بعد أن هـرَبت قـهوة "مطـيع" النـوم من عـيني. قليـل من البحـث والتجوال على المتاحف سيفيد كثيرًا في العمل الجديد. سأضع جـدولًا بتـرتيب الأهميـة: متحـف "تبليسـي" للتـاريخ، ومتحـف الحـرير، ومتحـف الفـن الحـديث، والمتحـف الوطنـي، والمتحف الإثنوجرافي المفتوح. وفجأة، رنَّ جرس في رأسي حين وقعت عليـــه عـــيني فـــي مـــواقع البحـــث: المـــركز الوطنـــي للوثـــائق والمخطوطات. 1/3 شارع "ميراب أليكسدزة". للمرَّة الأولى لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتلهف على البحث عن تاريخ "ميراب أليكسدزة" هذا الذي سمي الشارع على اسمه؛ لأن اسم مؤسس المتحف قد قرع أجراسًا أعلى صوتًا، فقد كان اسمه "إيليا أبولادزة". أتغافل منذ فترة عن أمر يحيك به صدري لو انتبهت له ونقبت، لوجدت لي جذورًا راسخة في هذا البلد، فإذا كانت "الشوافيلي" ها هنا قد تحولت إلى "إيلشوفيللي" فلم لا تكون "أبو لاسة" هي نفسها "أبولادزة"؟ إن صح هذا الاحتمال، سيكون الكنز الموعود أرضًا خصبة فسيحة كالتي كانت تمرح فيها "أمرا" أو جبلًا مهيبًا أو مزارع ومعاصر كروم كالتي شهدت طفولة "أمينات"، سأبيعها بمبالغ طائلة وأحمل كنزي وأعود إلى "چيمي جدو". لا أتخيل نفسي أقيم إقامة دائمة في أرض بعيدة عن الأرض التي يقيم فيها "چيمي جدو"، فهو ليس رجلًا عاديًّا استوفى مدته على الأرض وصار مثل أي فقيد يبكيه الناس ويترحمون عليه. "چيمي جدو" بالنسبة لي كائن حي، ينام نومًا طويلًا هادئًا في حوش القرافة بجوار نبتة صغيرة لنخلة، ينثر عليها الحارس كل يوم ماء من الوعاء نفسه، فتمتصه التربة وتمزجهما معًا لتعطيه النبتة طراوة، ويمنحها "چيمي جدو" نماء. يبدو أنني من كثرة ما أعطيت أذني لحواديت "أم إدريس"، تخللتني سيرتها للدرجة التي صرت كالتاريخ الذي يعيد نفسه، وسأختار البقاء بالقرب من أرض الرجل الذي أحبه، فيتندر الناس بحكاية المرأة المخبولة التي تركت وديانًا وجبالًا وأنهارًا لتجاور جثمانًا في قرافة، شأني شأن "أم إدريس".

سقيتُ أصص الفل والريحان الموضوعة على سور البلكون كما أوصتني "تارا"، وما إن بدأت تصل إلى مسامعي نداءات النسوة على أولادهن، ممزوجة بزقزقة عصافير الصباح، حتى ارتديت ملابسي واستقللت التاكسي متجهة إلى شارع "ميراب أليكسدزة". قلت للسائق:

- متحف المخطوطات.

فنظر لي باندهاش، واعتبرني معتوهة تهذي. تقطع السيارة الشوارع التي لا أكاد أراها من فرط التوتر، كأنني متجهة إلى اختبار الثانوية العامة، أو للحصول على نتيجة تحاليل طبية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

لمرض عضال، فقد قرأت ليلة أمس على الموقع الإلكتروني للمتحف إنه يحوي مجموعة كتب مقدسة تُشبه تمامًا النسخة التي بحوزتي، بالإضافة إلى مخطوطات بلغات أخرى محفوظ مثلها في القدس وجبال "سانت كاترين"، وباريس و"سانت بطرسبرج". يوجد أيضًا في القسم الأدبي بعض المخطوطات الأصلية لـ"شوتا روستافيللي" لملحمة التماريات، ومخطوطات لـ"تولستوي"، و"ديستويفسكي". لو كُنت معي يا "شادي"، لدفعت نصف عمرك في مقابل إلقاء نظرة على تلك القطع الورقية النادرة.

انحرف بي التاكسي يمينًا ويسارًا مرَّات عدَّة حتى وصلنا إلى شارع "ميراب أليكسدزة"، وأخذنا نبحث عن رقم مبنى مركز الوثائق والمخطوطات؛ لكننا لم نجده. استوقفنا عدَّة أشخاص في الشارع لنسألهم، رجال ونساء وشباب، فلم أحصل سوى على النظرة المتشككة نفسها بأنني كائن فضائي هبط عليهم ليسأل عن أشياء خرافية. اقتربت منا امرأة خرجت للتَّوِّ من بيتها، وسمعتني وأنا أسأل المارَّة في إصرار ويأس معًا. أشارت بهدوء وثقة للمبنى الذي نقف أمامه بالضبط والمجاور لمسكنها. هرعت بخطى حثيثة نحو المدخل وكأنني قد تسلَّمت الكنز بالفعل، فقد أحضرت نسخة الإنجيل معي لأقارنها بالنسخ المعروضة، ولأتأكد أنني لا أسعى وراء سراب.

استوقفني موظف الاستقبال، وعانينا كثيرًا، واستعنَّا بآخرين لكي أشرح له أنني لا بد أن أزور قسم المعروضات، وردَّ عليَّ بأن المركز مغلق للصيانة ولا يستقبل الزائرين. لمحت قطعة متواضعة من الورق الأبيض مُلصقة على الحائط، ومرسومًا عليها سهم صاعد ومكتوب بالإنجليزية: إلى قاعة "أبولادزة". فهمت وسط المُهاترات أنه يمكنني أن أعود بعد شهر، فعُدت إلى الشقة في حالة إعياء من السهر وخيبة الأمل.

فتحت الموقع الإلكتروني لمركز المخطوطات، ودخلت إلى الصور لأجد شبيهه؛ إنجيل من القرن الثاني عشر، مكون من مائتين وثلاثين صفحة ومكتوب بخط النسخ الجورجي القديم على

72%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمودين، ومزين بصور القديسين الذهبية، تجاورها مخطوطات مقدسة من القرن الخامس، طمس ما عليها لتُكتب "مزامير داود".

ثقلت جفوني من كثرة التركيز، وجلبت كلمتي "المزامير"، و"داود" ذكرى حواديت "أم إدريس" بصوتها المحشرج الناعس عن الدين الذي لا يعرفه كثير من الناس ويسمى الزابور.. وعذوبة الألحونات القدسية.. و"داود" النبي.. والد"عمنون ".. و"ثامار"...

وكأن يدًا غير يدي هي ما تدق أزرار البحث الإلكتروني وتكتب "الحلى الأثرية في چورچيا"، فتظهر غوايش وعقود وأوانٍ وأقراط من الذهب من القرن الخامس الميلادي، تم العثور عليها ضمن ما يسمى كنوز "أخالجوري"، وتشبه تمامًا فردة القرط المتكسِّرة التي بحوزتي. برؤية مشوشة تمامًا، وبأصابع ترتعش من فرط الدهشة والإعياء، أكتب وأنا أغرق في عُمق سحيق من النوم:

عزيزي القس المُبجَّل "أندراوس"،

مددتُ فترة إقامتي لأجل غير مُسمَّى. أنتظر لقاءك على أحر من الجمر.

لن أغادر "تبليسي" حتى ألقاك.

خالص تقديري واحترامي.

"تمار الشوافيلي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(13)

للمرَّة الثانية أقف في مواجهة حقيبتيَّ الضخمتين ونزول الأدوار الثلاثة في العمارة المهجورة، فقد انتهت المدة المحددة للإيجار ويجب عليَّ إخلاء الشقة للسكان الجدد. لفحتْ "أمينات" الحقيبة الفوشيا بيديها العفيَّتين، وساعدتُ "أمرا" في حمل حقيبتي الموف. آه لو تعرف المرأتان أنهما تتكبَّدان كل تلك المشقة وأنا لم أرتدِ زيًّا واحدًا من التي جئت بها من مصر، واكتفيت بالفساتين الجورجية الواسعة التي تُشبه الجلباب الفلاحي.

عرض عليَّ "أمجد" منذ بضعة أيام غرفة بفندق "ميجوتيل"، بنصف سعر شقة "تارا"، حتى يتسنَّى لي العمل الجديد بسهولة، كمُرافقة سياحية لنزيلات الفندق. أما المواجهة الأخرى التي أعمل لها ألف حساب لولا سخاء العرض هي كيف سأضع عينيَّ في عيني "ريموندا" موظفة الاستقبال كل يوم بعد أن سطوت على وظيفتها الإضافية.

عدت للغرفة المُطلَّة على كنيسة "ساميبا" بصخب رحلاتها المدرسية وحفلات زفافها وباصات الشركات السياحية التي تفرغ أناسًا سعداء يرطنون بكل اللغات تحت بلكوني. أما اللغة العربية بجميع لهجاتها فتصل إليَّ أصداؤها من الدهليز المقابل، والموضوع فيه المكواة ومنضدة الكي المتاحة بالمجان للنزلاء. عرفت من "أمرا" أن اليوم إجازة "ريموندا"، فنزلت إلى المطعم المُواجه لمكتب الاستقبال بكل شجاعة. أعدَّت لي "أمرا" حساءً وواجن محمَّرة وشايًا مصريًّا بالنعناع، تناولته على أصوات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موسيقى أغنيات جورجية وفرنسية وأرمينية؛ بينما تدور على شاشة التليفزيون الكبيرة المُعلَّقة على الحائط أحداثًا متشابهة على قناة "العربية". لا أصدق أنني مُحاطة بكل هذا الونس والسحر اللذين صنعهما "أمجد" بأن أضفى على هذا المكان "الكوزموبوليتان" الصغير لمسات مصرية بمنافض السجائر على الموائد والأطباق الخزفية على الحيطان المزخرفة بأيقونات "توت عنخ آمون"، و"إيزيس"، و"حورس". روح وراحة، كلمتان تترددان في رأسي وكأن ملاكًا يُمليهما عليَّ. هذا المكان روح بالنهار وراحة بالليل. تدفَّق تيار هوائي من الباب الصغير، ممتزجًا بدخان الشيشة التي يُشعلها "أمجد"، فعطست بصوت حادٍّ. فوجئت بالبنات الچورچيات الثلاث اللاتي يقفن في مكتب الاستقبال يهتفن بحماس في نفس واحد:

- الحمد لله.

وللمرَّة الأولى منذ شهور أضحك ملء القلب.

. "أمجد" مُعلم فاشل. أنا التي تقول الحمد لله بعد العطس، لا أنثُن.

وبينما أشير بإصبعي نحو "أمجد" الجالس بجوار الباب، تدخل "ريموندا" وتتجه نحوي مباشرة، وتقول:

. "تمارا".. عرفت أنكِ وصلتِ منذ قليل. أريدكِ في أمر مهم.

. أقسم أنني كُنتُ سأعتذر لكِ، فلا ذنب لي.. "أمجد".. اشرح لها إنك أنت الذي...

. هل لديكِ بعض الوقت لنتناول القهوة بعيدًا عن هنا؟

لم نبتعد كثيرًا، فقد أخذتني "ريموندا" إلى الجانب الآخر من المدينة القديمة لنجلس على مقهى في مواجهة كنيسة "أبو تبيليلي" المنحوتة في المرتفعات الصخرية المُطلَّة على نهر "كورا"، جنبًا إلى جنب مع البيوت الجورجية ذات الطُّرُز الشرقية، والبلكونات الخشبية الملونة. أتوقَّع أن تلومني "ريموندا" أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستخسره جرَّاء سطوي على وظيفتها. فلأبادرها وأقول لها إنني غير متمسكة بالوظيفة، وإنني لن أنسى معروفها معي في اليوم الأول الـذي وصـلت فيـه إلـى "تبليسـي"، فقطعـت هـي الصـمت وقالت:

. هل تُسدين لي معروفًا؟ هل يمكن أن تأتي غدًا لتناول العشاء معي بالبيت لكي يتفرَّج أبي وابنتي على شكلك؟

تزداد "ريموندا" غموضًا كلما استطرَدَتْ في الحكي، خاصة حين قالت:

- جـئت بـكِ خصـيصًا إلـى هذا المكان بين كنيسة القديس "أبو تبـيليلي" ونهر "كورا" الذي امتلأ ذات يوم بالدماء؛ لأنه المكان الأفضل لسرد حكايتي.

امتصصتُ توتُّر "ريموندا" بصمتي الإجباري، فلم أجد قولًا مناسبًا لهذا الموقف الحرج بالأساس، وأخيرًا قالت ما يفسر الأمر قليلًا:

. أحببتُ رجلًا مصريًّا من نزلاء الفندق يعيش في دبي واتفقنا علـى الزواج، وأهلـي لا يـوافقون. لـو قـابلوكِ وتكلَّموا معـكِ قـد يقتنعـون بـأن لـيس كـل المصـريين يتزوَّجـون أربـع نسـاء، ولا يسمحون لزوجاتهم بالحركة خارج البيت، والأهم أن المسلمين لا يحملـــون الســكاكين والخنــاجر لــيقطعوا رقــاب مَن يتمســك بالمسيحية.

لاحظتْ "ريموندا" أن بدني قد اقشعرَّ من جملتها الأخيرة، وقالت:

- هـذا تعبـير مجـازي، فلقـد درسـت الآداب والفلسـفة، أمـا أهلـي فأناس بسطاء ومُتأثِّرون بما تتناقله الأجيال من حكايات التاريخ، وبما تعرضه السينما من أفلام تحكي عن خطف العرب والأتراك للأطفال الجورجيين ليصبحوا مماليك في قصور سلاطين مصر والشام، وكيف كانوا يُنتزعون من أحضان أمهاتهم ويفترقون عن إخوتهم، ليصيروا جنودًا يحاربونهم ويقتلونهم حين يكبرون. أما أنا فكم أتوق إلى الذهاب إلى مصر لأشاهد ما شيَّده المماليك من آثار، ولأطأ الأرض التي مشى عليها أجدادي كملوك وسلاطين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنعَّموا في أفخم القصور، وازدانوا بالحرير المنسوج بخيوط الذهب.

سألتني "ريموندا" إن كُنتُ أعرف "علي" و"نينو"، أو "أبو تبيليلي" فأجبت بالنفي. قالت إن "أبو تبيليلي" يسمى بالعربية "أبو التيفليس". يُقال إنه قد استُشهد في الموقع نفسه الذي بُنيت مكانه هذه الكنيسة التي أمامنا. ولد في العراق في القرن الثامن، وكان شابًّا مسلمًا متديِّنًا يعمل في تركيب العطور. وذات زيارة إلى چورچيا، قرَّر أن يدخل في مناقشات مع كهنة وأساقفة البلاد، تشمل أدقَّ التفاصيل الدينية، ودفعته هذه النقاشات إلى الاقتناع بالمسيحية، ومع ذلك تردَّد في إعلان عقيدته الجديدة، فقد كانت چورچيا تحت حكم الخلافة العباسية، لكنه ظل يُصلِّي الصلوات المسيحية سرًّا. سافر "أبو" إلى "أبخازيا" التي لم تكن تحت سيطرة العباسيين، وأعلن ديانته الجديدة وانخرط في حياة الزهد والصلاة، ثم عاد إلى "تبليسي"، وظل نحو ثلاث سنوات مقيمًا ومُبشِّرًا بين الشعب، فاعتقلته السلطات العباسية وحاكمته بتهمة الرِّدَّة عن الإسلام، لكنه رفض التَّخلِّي عن المسيحية، ونُفِّذ به حُكم الإعدام. تناقل الناس الروايات عن أن آخر كلماته كان "الشكر لله" لأنه حوَّل مهنته من تركيب العطور الدنيوية إلى الدعوة السماوية باتِّباع العطور الحلوة لوصايا المسيح. واعتبر قدِّيسًا وشهيدًا وشفيعًا لمدينة "تبليسي". أما كوبري "ميتيخي" الذي نراه من هنا، فيسميه الجورجيون "كوبري المائة ألف شهيد". ففي القرن الثاني عشر، دخل "جلال الدين خوارزم" شاه "تبليسي"، وذبح أهلها المسيحيين، وتحوَّل نهر "كورا" إلى اللون الأحمر. أما الرواية التي تتمسَّك بها الأمهات فهي حكاية "علي" الأمير المسلم من "أذربيجان" الذي أحب "نينو" الجورجية المسيحية من صميم قلبه، وتحدَّيا الظروف، وتزوَّجا، وأنجبا بنتًا، إلا أن الموت أخذ "علي" وافترقا ولم ينفعهما الحب والتضحية، حتى وإن خلَّد الفنَّانون المُعاصرون قصَّتهما في تمثال "علي" و"نينو" المُتحرِّك في مدينة "باتومي". هذا ما يعتقد فيه أبي ويلقنه لابنتي ليل نهار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. وماذا سأفعل أنا بمفردي أمام كل هذا الموروث الثقيل؟

. لا شيء. سترتدين فقط فستانًا أنيقًا، وتتحدَّثين عن مُقتطفات من حياتكِ اليومية في مصر، وأهلكِ العصريين المُتفتِّحين، وسفرياتكِ، ودراستكِ للموضة بالخارج. كما سأمنحكِ فُرصة عمل أخرى كمُدرِّسة للغة الإنجليزية لابنتي، فهي تعشقها وتعشق كل مَن يتحدَّثها بمهارة.

. وما رأي والدتكِ؟

. تُوفِّيت منذ سنوات في حادث سير، فارتاحت من أنانية أبي، وشربه للنبيذ ليل نهار، وتركها تعمل فترتين لكي تسدَّ رمقنا، ولولا أن طفولتنا كانت في الحقبة السوفيتية ما كنا نِلنا أي قسط من التعليم، ولاكتفى أبي بتشغيلنا في أعمال الفلاحة في مزرعته الصغيرة. كانت أمًّا جورجية أصيلة كتمثال "الأم چورچيا" الشامخ أمامنا، فخورة ومُثابرة، لكنها مغلوبة على أمرها، ومن أعظم إنجازاتها أنها تشبَّثت بزوجي السابق في الحادث نفسه الذي ماتت فيه، ظنًّا منها أنه سينقذها، فأخذته معها وأنقذتني أنا منه، فلم يكن أفضل حالًا من أبي. هل ستقدِّمين لي الخدمة وتأتين لتناول العشاء معنا غدًا؟ وبالمناسبة، سيكون معروفكِ هذا هو الأجر الذي ستدفعينه مقابل حصص التاريخ والإرشاد السياحي التي أعطيتكِ إياها الآن وستنفعكِ في وظيفتكِ الجديدة التي كُنتُ أريد أن أتخلَّص منها أصلًا لأتفرَّغ لإجراءات السفر إلى دبي.

. هل سيؤثر ردائي الجورجي هذا على وجهة نظر أهلكِ ويجعلهم يقتنعون بي؟

. لا، أرجوكِ أن ترتدي زيًّا عصريًّا عاديًّا، فالنساء المُلتزمات هنا ترتدين الفساتين الواسعة المُريحة من قبيل التديُّن لا التَّزيُّن؛ لأنهن يعتبرن البنطال حرامًا. أريدكِ أن تبدي على طبيعتكِ، وليس كسائحة تلهو في أزياء أهل البلد من قبيل التَّسلية والبهجة المُؤقَّتة.

ستخرج أخيرًا ملابسي الضيقة، وعطر "شانيل تشانس"، وكعبي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالي من حقيبة السفر، وإن كُنتُ أشك أنها ستُلائم قياسي الجديد، وحتى يحين موعد رد الجميل لـ"ريموندا" مساء غدٍ، سأجهِّز بنطالي الجينز، وبلوزة حريرية ناعمة، وأجرِّب لفَّات عدَّة للكوفية التي أهداها لي "مطيع"، لأرتديها صباح غدٍ حين أذهب لحضور معرضه في السوق المفتوح.

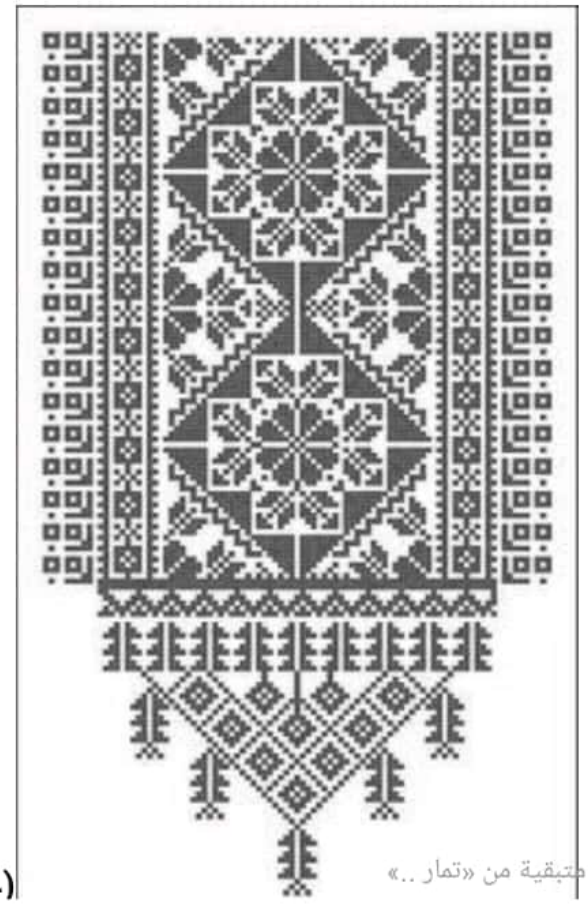

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

احترتُ هل أُحكِم لفَّ كوفية "مطيع" حول كتفي مثل وشاح أنيق، أم أطويها حول رقبتي باستهتار مقصود؟ عقدتُها من الخلف لتتدلّى على صدري على شكل "سبعة" أو علامة النصر، وتوجَّهتُ في ثقة إلى المنطقة التي وطئتها مرارًا أيام تسكُّعي الأولى في "تبليسي"، حين لم يكن لي ملاذ ثري بالألوان والمُقتنيات والفُرجة المجانية، السوق والمعرض المفتوح عند كوبري "دراي بريدج". لم أستغرق وقتًا لتحديد موقع "مطيع"، فهو الركن الوحيد الذي يتحلَّق حوله جمع كبير من الناس الصامتين، وتشرخ الهدوء نبرات صوته التي تتلوَّن ما بين ضعف، وقوة، وحزن، وفرح، وفقًا لمُتطلَّبات الحدُّوتة. لا أستطيع أن أحدِّد إن كان "مطيع" حكَّاءً ماهرًا بالفعل، أم أن الأطفال ينجذبون لتشابُه البراءة بينهم وبينه، وأن الرجال ربما يصبرون على الفرجة لكي يصلوا إلى نهاية بطولية تُغذِّي ذكورتهم وسط الأساطير والخرافات التي يدسُّها وسط الحكايات، أما النساء فيتخلَّين عن حبهن للثرثرة ويسكتن أمامه؛ لأنهن غالبًا مثلي أنا، لا يستطعن أن يُقاومن وسامته.

- تزوَّج غيري في عزِّ الحرب، في عزِّ حاجة الزُّلام، كُنتُ بنت تلاتين سنة في عزِّ صباي، وفي عزِّ جمالي.

يحكي حكاية على لسان امرأة فلسطينية في مخيم "البقعة" بالأردن. تزوَّج عليها زوجها أثناء الحرب عام 1967، وتركها وأولادها الصغار بلا أموال؛ لكنها عملت بالحياكة وبتصليح الملابس، حتى صار لها دكَّان صغير تبيع فيه أزرارًا وكُلف ولوازم الخياطة البسيطة التي تصنع أثوابًا عظيمة "كالتي سنحكي حكاياتها في المعرض" كما قال.

لا يتمايع "مطيع" أو يتقصَّع أو يرقِّق صوته كما يفعل الرجال حين يُقلِّدون النساء. والمدهش أكثر هو أن "مطيع" يكون أكثر دلالًا ورقَّةً حين يتكلَّم بلسان حاله هو، خاصة حين تطربني كلماته الشامية مثل "هلأ"، و"هون"، و"هونيك"، أو حين يُقطِع كلمة "حِلِو" فتقطر شهدًا مع كل حرف واِلتواءة لسان. يلمحني "مطيع" عن بُعد، وأنا أعدل الكوفية التي أهداها لي، فيشير نحوي بصوتٍ عالٍ، ويستدعيني إلى الحدُّوتة مثلما فعل المرَّة السابقة عند

186 دقيقة متبقية من «تمام» 75%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسرح "ريزو جابريادزة".

- شايفين هالكوفية على شكل سبعة ياللي لابساها الحلوة؟ لما اتهجَّروا الفلسطينية في عام 1948 ظنوا إنه مو هيغادروا بيوتهم أكتر من سبعة أيام، وبعدين صارت سبعة شهور، وسبع سنين، وسبعيييين سنة.

يحكـي "مطـيع" جزءًا بلـهجته ليُدغـدغ آذان الجمـهور ويلفت انتباههم للجرس الغريب، ثم يعيد الحكي بالإنجليزية والجورجية والروسية.

أعترفُ بأن ما جاء بي ثانيةً لمُلاقاة "مطيع" هو شغفي لمعرفة حـدُّوتته الشـخصية، وكشف غموضه وتصرُّفاته الهوجاء، التي تتعارض مع اللفتات الناعمة التي يُهدهدني بها حين أكون في أشدِّ العوز للطبطبة.

. يؤبشني صباحك.

. بتقول إيه؟

. مش عم تقولي عليَّا مايص؟ يؤبشني يبقى الدَّلع تاع يقبرني.

. فلسطينية الكلمة دي؟

. والله ما بعرف إن كان حكيي فلسطيني، ولا سوري، ولا مصري، ولا أبصر إيش، من كُتر ما لفِّيت بالبلاد. على كل لون يا "باتيستا" متل ما عم بتقولوا. أنا بحسدك إنك بتحكي مصري خالص.

. طيب مش هتعلمني أبقى حكَاواتِيَّة زي ما اتفقنا؟

. عطيتك أول درس خلص.

. ...؟!!!

. تشوِّقي المستمع عشان يضل ييجي لعندك، متل ما جيتيني هلأ وأنتِ مو طايقاني. مش كده يا حلوة؟ أما الدرس التاني هو إنك مـا تنكسـفي تحكـي. إحكـي أي شـي عن حـالك عن أهلك.. عن

84 دقيقة متبقية من «تتار ..» 75%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حبيبك.. حتى لو كانت الحدُّوتة خلصت وبتشوفيها ما بتسوى، بيجوز بتسوى كتير عند غيرك.. عندي أنا مثلًا.

ـ خلاص.. علمني أحكي من غير ما أتكسف، بس ابتدي أنت.. ونعملها لعبة.. حكاية منَّك، وحكاية منِّي.

ـ مو سمعتِ حكاية المرة ياللي جوزها تركها بالمخيم وصارت تبيع وتشتري؟ هاي إمي. تعي فرجيكي شو خيطت هي وجاراتها وشو باعوا وشو اشتروا وبحكيكي قصة كل إشي.

تقدَّمني "مطيع" بخطوات واسعة نحو البُقعة المنصوب فيها معرض التراث الفلسطيني، وأخذ يتكلَّم؛ لكن كأنه يُحدِّث نفسه. قال لي يكفي أن يكون لديك ولو مستمع واحد يسمعك بحماس كافٍ لكي ينقل حكايتك للآلاف، ويكفي أن ترتدي امرأة واحدة ثوبًا تعرف حكايته لكي تثبت لكل مَن يراها أن لهذا الثوب بلدًا له تاريخ يحافظ على ثيابه من أيام الكنعانيين.

اختار "مطيع" ثوبًا مُدهشًا من بين الفساتين الكثيرة المفرودة والمُعلَّقة في الحديقة، ورفعه إلى أعلى، وقال بالإنجليزية:

- هذا ثوب عروس مدينة "بيت لحم"، واسمه ثوب الملك، وغطاء رأسه هذا اسمه الشطوة، ومُرصَّع بالذهب، والفضَّة، والمُرجان، سرقته "إسرائيل" وسجَّلته ضمن تراثها في المجلد الرابع بالموسوعة العالمية.

ألقى"مطيع" الثوب على المنضدة العريضة، وسحب ثوبًا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، وأخذ يقول:

- وهذا ثوب "أريحا" أقدم مدن الأرض، لذا عليه تطريز بطول الثوب. وهذا ثوب "نابلس" يشبه الأثواب الدمشقية بسبب التجارة والسفر بين البلدين، أما التطريز النبيذي هذا فمن "رام الله"، والأحمر البرتقالي لـ"بئر السبع"، وهذا الثوب الساحلي يشبه الإغريقي، والصحراوي لا تطريز به لأن النسوة لم يكن مُرفَّهات ويمتلكن الوقت؛ لأنهن كن يزرعن ويكدحن...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انفعل "مطيع" بدرجة كبيرة، وطفح الطفل الذي بداخله على ملامح وجهه، حتى إن عينيه تندَّتا بالدموع. سألته إن كان بخير فأجاب:

- بحب النسوان كتير.

قلت له بمكر:

-كل الستات؟

فقال:

- نعم.

. تبقى ما بتحبِّش ولا واحدة.

. تعي فرجيكي بحب مين بكير، الساعة عشرة الصبح في شارع "روستافيللي"، هتلاقيني ناطرك في ميدان "الحرية"، ومعي بوكيه ورد كبير. اعملي حسابك بنقضي اليوم سوا، وبحكيكي حدُّوتة، وتحكيني حدُّوتة.

لستُ جاهزة لاعتراف بالحب من "مطيع" أو من غيره. لا أُنكر أن كلماته التي تتلوَّن بالمعاني تُغذِّي أنوثة ومشاعر كادت تجفُّ من فرط الهجر؛ لكنني لا أودُّ أن يتطوَّر الأمر لأكثر من دلال أو غزل عابر يُعينني على عبثية انتظار القس "أندراوس"، ومشقَّة العمل الذي سوف أبدؤه كمُرافقة للسائحات، والفيديوهات التي سأصوِّرها لأحصل على أموال مُقابل الإعلانات. أما مَن أحتاج إلى اعتراف صريح بحبِّها فهي ابنة "ريموندا"، مُستمعتي الوحيدة التي سأحدِّثها بإنجليزية تُبهرها، وسأرتدي لها فستانًا مرحًا ماركة "دولشي أند جابانا"، لكي تتأكَّد أن المصريين لن يذبحوا أمَّها ويُلقوا بها في نهر "كورا" إن تمسَّكت بديانتها، مثلما فعل رجال "خوارزم شاه" الذي أتى من "أوزبكستان" وقت أن كانت جزءًا من "خراسان"، بمساعدة بعض مسلمي چورچيا، حين كان اسمها "بلاد الكرج" منذ تسعمائة عام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5)

تأخَّر "مطيع" ساعة كاملة عن الموعد الذي حدَّده هو لمقابلتي في شارع "روستافيلي"، عند بوَّابة حديقة "الجمهورية الجورجية الأولى". قال لي سأقابلكِ في "كبسولة الزمن" لأحكي لكِ حدُّوتتي. لم تكن الحديقة المكان الأكثر رومانسية أو أناقة في الشارع الأشهر في "تبليسي"، فلقد دخلتها أثناء تسكُّعي ذات مرَّة، وحاولت أن أقع في غرامها، لكنني لم أستطع، وتركتها إلى ميدان "الحرية"، حيث النصب التذكاري الذهبي شاهق الارتفاع لـ"مارجرجس"، والمقاهي ذات الطابع الأصيل التي تطل على نهر "كورا". لا يؤنسني الآن سوى قراري بدخول الحديقة وانتظار "مطيع" على الدكَّة الأولى بالقرب من البوَّابة، ومحاولة فك رموز جملته التي قالها لي بالأمس، أن أرتدي بنطالًا جينز، وبلوزة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أدري إن كانت هذه إحدى مناوراته الكلامية لكي يبقيني على قيد الشغف بملاقاته، مع الحيرة في أمره إن كان يُلمِّح لأن تأخذ علاقتنا مجرى آخر أم لا.

لولا أنني ممتلئة بالدهشة والشعور بالتحقق في آن واحد، من زيارتي لبيت "ريموندا" ليلة أمس، ما كُنتُ لأغفر لـ"مطيع" أبدًا عدم التزامه بالموعد. لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير في مشاهد الاحتفال الصغير، أو "السوبرا" كما يسميه الجورجيون، ووالد "ريموندا" الذي تولَّى دور الـ"تامادا"، أو الرجل الذي يرفع الكأس ويلقي كلمة كنخب للترحيب بالمدعوين. كان والد "ريموندا" يشبه التمثال الذي يضعه الجورجيون في بعض الحدائق العامة لرجل يمسك بقرن من العاج أو الخشب ويشرب فيه النبيذ. يظل الرجل الـ"تامادا" يشرب ويشرب حتى آخر الـ"سوبرا" شريطة ألا يفقد عقله أو خفة ظله أو قدرته البلاغية، حتى وإن سكر بعض المدعوين. الأمر العجيب هو أن والد "ريموندا" رفع كأس النخب الأولى من أجلي، أنا التي ذهبت إليه مُرتعبة من أن يطردني. ظل يقول كلامًا إنشائيًّا مثل:

- نخب الأميرة الفرعونية التي جاءت من بلاد تنعم فيها أجدادنا بالجاه والسلطان وانصهروا بالحب والزواج مع أهلها منذ قرون، حتى صار لنا أبناء وأصهار تجري الدماء الجورجية والمصرية في عروقهم.

ثم رفع كأسه، وقال:

- نخب الدماء المتدفقة في العروق.

ارتبتُ من ذكر الدماء وسط المديح، لكن "ريموندا" شرحت لي إنهم يذكرون محاسن كل شخص في الـ"سوبرا"، لا للتملق أو للنقد المستتر، بل ليعززوا في نفسه صفاته الحميدة، فيتمسك بها أكثر ولا يظهر جانبه السيئ لصاحب الحفل أو للآخرين. أما الأروع فهو أنني لم أبذل جهدًا يُذكر مع ابنة "ريموندا"، فقد تولَّى أمر المحبة البنطال الجينز الضيق المقطوع عند الركبتين والبلوزة الـ"دولشى أند جابانا" التى ارتديتها، فضلًا عن اللكنة البريطانية التى

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

تسحرها وحدثتها بها، فذاب كل الجليد من أول طلّة. أما ما أشعرني أنني لم أغادر غرفتي بفندق "ميجوتيل"، فهو وجه "أمرا" التي تهلّلت حين فتحت لي الباب، فهي تعمل وتقيم في بيت "ريموندا"، وجعلتها زيارتي تشعر بأنها صاحبة بيت؛ لأنها صديقة شخصية لضيفة أصحاب البيت.

لا يعرف "مطيع" أنني حفيدة "جمال الشوافيلي"، الذي كان يسلّم زبائنه البدل التي يفصلها لهم، في الموعد الذي يحدده بالساعة والدقيقة، لا فقط باليوم. إن غاب أكثر من ذلك، فليذهب هو وقصة حياته وفضولي في ألف داهية، فقد بدأت فعلًا أشعر بالغل تجاه استهتاره وغموضه.

ها هو يدخل في مشية بطيئة مستفزّة، لا يمحو آثارها سوى ضحكة عينيه الطفوليتين وباقة الورد التي يحملها، والقُبلتين اللتين وضعهما على وجنتي. يسحبني من كفّي إلى رقعة من النجيلة ويأمرني بنعومة بأن أنام فوقها ليعطيني الدرس الأول. تمرُّ ببالي خاطرة بأن "مطيع" ممَن يهوون ارتكاب الأفعال الفاضحة في الطرق العامة، فقد كُنتُ أمامه في شقة "تارا"، وأعد لي فنجانًا من القهوة وانصرف على الفور. فلأسايره حتى أعرف آخره، فلن يجبرني في النهاية على فعل شيء لا أرغب فيه. استلقيت على النجيلة، فوضع حقيبته الصغيرة تحت رأسي، واستلقى إلى جواري بنصف جسده مستندًا إلى كوعه، وقال:

- أول حدُّوتة بحياتنا بتكون هيك.. بالتخت.. بالسرير يعني، بتحكيكي إياها إمك أو أبوكي، وأنا قد أبوكي.. لأ أنا أبوكي.

- يبقى أنا أكبر منك دلوقتي، لأن أبويا أصغر منّي. أبويا ساب الدنيا وهو عنده أربعة وعشرين سنة.

- بسّ أنا أبوكي، من ساعة ما البنت الزُّغيِّرة، ياللي اسمها "سهر"، ولاقيتها ع الطيارة قالتلي أدير بالي عليكي متل بنتي.

- طيب إحكي بقى.

- عارفة ليش هحكيكي هالحكاية؟ عشان عمري ما جرؤت أطلعها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

برًّا صدري، متل ما بيقولوا عندنا في الأمثال: "خليها في القلب تجرح ولا تطلعها وتفضح". كُنتُ ناوي أموت زي ياللي بيموت ويموت علمه معه، بس بعد ما لاقيتك وقلتيلي على حكاية الأفلام ياللي عم تصوَّريها في أماكن من چورچيا، حسّيت إن الله بعتك إلي عشان بس أقولك ياللي حابسه بقلبي. أنا جبتك لهون عشان عايزك تحسّي بالحكاية مكان ما حصلت، ووين ما دفن أهل چورچيا "كبسولة الزمن". وعايزك تفكّري باللي باقوله بلهجتك أنتِ وعقلك أنتِ عشان لما تحكي حكايتي، تطلع صادقة بصوت قلبك، حتى لو حكيتيها هون بالإنجليزي أو الجورجي.

وضع "مطيع" راحة يده على رأسي وأخذ يمسح على شعري، حتى شعرت بألفة خشيت أن أنعس بسببها قبل أن يبدأ الحكي، وحين قال:

- كان يا ما كان بقديم الزمان.. نحكي ولا ننام؟

إلا أن نصيحته لي بأن أفكِّر بصوتي أنا جعلتني أنتبه مثل طالبة علم، ولا أستسلم لغواية نبراته ولكنته.

يفاجئني "مطيع" كعادته بحركة أو جملة تقلب كل موازيني. فتح موقعًا للبحث من تليفوني ووضع الشاشة أمام عيني، وقال:

- هل تعرفين المخرج والكاتب الفلسطيني "مطيع الشيخ"؟

ظهرت صورة "مطيع" في أكثر من موقع، وعلى مدار عدَّة أزمنة، حتى إنني تعجَّبت أن شكله بالشعر الأسود الكثيف والملامح الشَّابَّة ليس لها حلاوته نفسها بالشعر الفضِّي والتجاعيد الرفيعة التي تظهر من خلف نظارته الطبية الآن. لاحظ "مطيع" شرود ذهني، فألقى مفاجأته الثانية:

- هذا أنا لكنه ليس اسمي، وليس هذا الذي في الصور هو مَن أحمله في روحي.

قال "مطيع" إنه سيحكي لي حكاية لا اسم لها مثله ومثل هذه الحديقة التي تحوينا وتبدَّلت أسماؤها مرَّات عدَّة على مدار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مئات السنين، واستطرد بصوته الناعس:

- فر جد جَدِّي من قريتنا قبل سبعين عامًا؛ لأنه كان منذورًا لثأر، وذهب إلى قرية تُدعى "بلد الشيخ" في فلسطين. كان بين قبيلتنا وبينهم نسب وعِشرة قديمة فغيَّروا اسم جَدِّي لـ"ابن الشيخ" حتى لا يتعرَّف على كُنيته مَن يطاردونه. وما إن زرع أرضًا وبنى بيتًا وأصبحت له ذرية حتى وقعت حرب الـ48 وصارت مذابح وتهجير وطرد مَن تبقَّى من عائلة أبوي. أما أنا فوُلدتُ بالمخيَّم بالأردن. سمعت كل التفاصيل المُريعة التي وثَّقتها في خمسة كتب كنوع من تنفيذ وصايا النساء المكلومات اللاتي كن يحكين حكايا الترويع. أما أنا بيني وبين نفسي كُنتُ لا أشعر أن هذا ما أريده حقًّا. فحين كُنتُ في الرابعة من عمري، أخذني والدي إلى السينما. أطفئت الأنوار، وكانت هناك نجوم حمراء وصفراء في السقف، ظل أبي ينظر إليها حتى بعد أن بدأ الفيلم. كان فيلم أبيض وأسود "عنترة بن شداد"، ضرب، وخيول، وكرٌّ وفرٌّ، لم أحبها لعُنفها وصخبها؛ لأنها كانت تُعطِّلني عن مشاهدة ماظننته الفيلم الذي كان يشاهده والدي، تلك النجوم المتلألئة بالألوان على السقف. كبرت وأنا متعلق بالنجوم وركوب السماوات والترحال، وبداخلي تمرُّد على التعبير التقليدي عن حب الوطن، الذي يختصرونه في مفتاح صدئ لبيت دمَّرته الحرب، أو شجرة ليمون تظلل عليه. كُنتُ أعرف أن الجدران والأرض رمز الحماية والأمان؛ لكنني كُنتُ أراها احلامًا متواضعة بحجم الطموح في بناية تهدَّمت، أو شجيرة جفَّت. كُنتُ أرغب في الأرض والسماء معًا، فدرست التمثيل في مصر والإخراج في "هوليوود" والأدب في فرنسا. ولأنهم يشبهون المدن بالنساء في المجاز الأدبي، كانت لي في كل مدينة امرأة جميلة، أحبها حبًّا رقيقًا ناعمًا، وأعود إليها بين الحين والآخر كلما جرفني الحنين إليها؛ إلا "بلد الشيخ" والقرى والمدن التي تحيط بها كانت مُحرَّمة عليَّ، وعلى كل مَن يرفع شعارات "حق العودة"، فقد صارت مدننا الصغيرة نساء يُغتصبن وتتعرَّى من أسمائها لتلبس ثوبًا عبريًّا فاضحًا. لست صاحب بندقية أو حجر؛ لكن معي الحكايات وأسماء المدن والقرى الأصلية. عبأتُ الحكايات فى الكتب، ولم أعرف إن كان

75 دقيقة متبقية من «...» 78%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَن سيلتقطها سيُعاملها برفق أم سيمسح بها القاذورات، فقرَّرت أن أنثرها في الهواء حتى تتسرَّب إلى وجدان المارَّة، ناس من لحم ودم أنادي عليهم، ويحكون حكاياتهم، وأبيع لهم الثياب التي تقول حكايات غزلتها أنامل النساء. إلا أن حكايتي أنا ظلَّت بلا عنوان أو اسم مثلي، ففي كل بلد أحببتُ فيه امرأة، فقدتُ الحرف الأخير من اسمي الذي لا تحمله أبجديتها، حتى صرت على ألسنة كل عشيقاتي "موتي". لذلك صار يلحُّ عليَّ المثل الشعبي الذي كانت تردده النسوة "من طين بلادك لط ع خدادك"، فاشتهيت بعد فوات الأوان امرأة مثل أمي، تحتفظ في بيتها بطنجرة صدئة، أو ثوب باهت لجدتها، وتعلق في صدرها مفتاحًا سلمه لها جدُ جدِّها، أو مثلك تحتفظ بفردة قرط وكتاب مقدس، وتسافر بهما لآخر الدنيا لتستعيد دارها المفقودة. صرت أحلم بأي امرأة تحمل أبجديتها حرف الـ"عين" ليكتمل في فمها اسمى وهي تتلوَّى في لحظات العشق صارخة "مطيع.. مطيع"، وليس مثل "كاترينا"، التي من كثرة ما رددت "موتي.. موتي" دون أن تدري معناها بالعربية، كان لها من الاسم نصيب، وكنت لها "موتًا".

مدَّ "مطيع" يده في الحقيبة التي جعلها لي وسادة، وأخرج إكليلًا من الورد الصناعي المُلوَّن الذي تبيعه النساء عند كل ناصية، ووضعه فوق رأسي. أتصوَّر أن شكلي أصبح الآن مثل بنات جزر "الهاواي"، وأقف استعدادًا لأن يمنحني باقة الورد الطبيعي التي كان يحملها حين دخل الحديقة، لكنه أبقاها معه، ثم جذبني ثانية من يدي، ومشينا نحو رُخامة عند بوَّابة الحديقة مكتوب عليها "كبسولة الزمن"، ومال نحوها وأراح باقة الورد الطبيعي.

. كُنتُ فاكراك حاتدِّيني البوكيه الحلو ده، مش حاترميه ع الأرض!

ـ الورد الطبيعي مثل البشر، بيكون حلو بالبداية، بسّ بالأخير بيموت. عارفة إني ما اشتريت ورد طبيعي من عام 2004؟

. إشمعنى 2004؟

. من يوم ما اختفت "كاترينا".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. اختفت؟

. ما بحب قول "ماتت"، عشان ما بعرف إن كانت فعلًا ماتت في 2004، ولا روحها مشيت وسابت لنا الجسد قبل هالوقت بخمس سنين. اسمعي.. هاي درس الحكي الثاني، بتحكي وأنتِ واقفة هون جنب "كبسولة الزمن"، وهتحكي الحكاية كيف ما بدّك بس المهم بيكون فيها كل ياللي هاقوله لإلك.

يبدو أن شغفي بعالم الموضة والأزياء قد أثَّر على ولعي بالتاريخ والمؤرخين فغفلت عن وجود ما يسمى "كبسولة الزمن" الرمزية التي عرفها لي "مطيع". لم أفهمه في البداية ثم شرح لي أنها عبارة عن مكان يضع فيه أهل البلد كل ما يخص حياتهم المُعاصرة؛ صور، ملابس، خطابات، وأوراق بها تكهنات للمستقبل، يقومون بدفنها في موقع ما، ويضعون عليه حجرًا أو رُخامة، محفورًا عليها تاريخ فتح تلك الخبيئة، بعد مائة عام أو أكثر، لكي يتواصلوا مع المؤرخين وعلماء الاجتماع في العصور التالية. أما "كبسولة الزمن" الخاصَّة بـ"تبليسي" هذه فقد دفنت في عام 2016، وسيتم فتحها في عام 2041 في العيد الخمسين لاستقلال چورچيا.

قال لي "مطيع" إنه يريد أن يكون قلبي "كبسولة الزمن" الخاصَّة بحكايته، شريطة أن أفتحها كل عام في مثل هذا الوقت، وأتذكَّر أنه في مثل هذا اليوم منذ ثلاثين عامًا جاء شاب إلى "تبليسي"، كان يحمل بداخله طفلًا يطير وراء نجوم السماء، وعاشقًا يجوب الأرض خلف النساء. وذات يوم قابل امرأة من چورچيا تدعى "كاترينا" في أرضٍ ثالثة غير أرضهما. كانا يسجلان كتبًا للمكتبات السمعية في باريس، هي تقرأ ما كتبه "إدوارد سعيد" عن الإمبريالية والصهيونية، وتجد تشابهًا مع حال بلادها مع الاحتلال الروسي، وهو يقرأ الملحمة الشعرية لكاتب چورچيا الأعظم "شوتا روستافيلي"، الذي كتبها في القرن الثاني عشر في عهد الملكة "تمار". شغف الشاب "مطيع" بچورچيا وتمنَّى لو كانت "كاترينا" حبيبته تحمل اسم "تمار". كما شعر بقليل من الحسد؛ لأن "روستافيلي" يرقد في سلام منذ ثمانية قرون في كنيسة

72 دقيقة متبقية من «تمار» 79%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"الصليب المقدس" في القدس، وهي المدينة التي عرف "مطيع" لاحقًا أنها كانت مسقط رأس جدِّه، وكان له فيها لقب آخر غير لقب "الشيخ". ظل "مطيع" يرسم "كاترينا" عارية كل مساء على مدار شهر كامل في غرفتها الباريسية الصغيرة، ولم يمسسها حتى لا يفقد شغفه بها، فهو إن أحب امرأة بحق، ترك حبه يغلي ببُطءٍ مثل فنجان قهوة مظبوط. فقد كان يريد أن يرحل معها بالحماسة نفسها إلى بلدها ليرى بعينيه مخطوطات من القرن السادس عشر للملحمة الشعرية التي أوقعته بحبها، وليمرحا بقلوب مُلتهبة في حدائق ومسارح ومتاحف شارع "روستافيلي". ويعلقان شريطًا حريريًّا في غصن بشجرة الأمنيات بـ"متسخيتا" بأن يظل حبهما متوهجًا. وأن يجرِّبا كل أنواع وألوان النبيذ في "كاخيتي"، ويغوصا ويذوبا تحت أمواج البحر الهائجة في "باتومي". تأكد "مطيع" أنه يريد أن يمضي باقي حياته مع "كاترينا"، خاصة حين أخذت تئنُّ تحته وتكتم صراخ لذَّتها "موتي.. موتي".

تغاضت "كاترينا" عن غيرتها العمياء، وقرَّرت أن تعرفه بصديقاتها. ولأن "كاترينا" كانت من عائلة ثورية قديمة ولا تصادق إلا مَن يشبهنها، فقد حددت موعدًا بأن يتقابل "مطيع" وصديقاتها في المظاهرة السلمية التي ستتجمَّع أمام البرلمان في شارع "روستافيللي"، للمطالبة بالاستقلال عن الاتحاد السوفيتي، والاعتراض على حركات الأبخاز الانفصاليين الذين تحرضهم روسيا لكي يظلوا مُنتمين لها. بدأ "مطيع" في الإضراب عن الطعام، تضامنًا مع "كاترينا"، فهبط مستوى السكر في دمه، وشعر بدُوار رهيب في اللحظة التي حاصرت فيها الدبَّابات الروسية الشارع، وأخذ عساكر الشرطة يضربون المتظاهرين فوق الرؤوس بجرَّافات، وسط الرؤية الضبابية والتدافع للهروب من قنابل الغاز. كان "مطيع" ينظر إلى "كاترينا" وهي تهرع لإنقاذ صديقتيها وتناديه ليساعدها وكأنه في حلم مُزعج، كلما هم بأن يرفع صوته ليخبرها بأنه سيغشى عليه أو يشدها من ذراعها، خارت قُواه. كان هذا في التاسع من أبريل عام 1989، حين فقدت "كاترينا" صديقتيها الأعزَّ إلى قلبها، واللاتي كانت منقطعة عن مقابلتهما خشية أن تغرما بـ"مطيع" أو يُغرم بهما. فهمت من التواريخ

70 دقيقة متبقية من «تمار» 79%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المذكورة في هذه الحكاية أن "مطيع" قد نفث كل الغليان الذي يحمله في صدره في وجه "أمرا"، وعاقبها على ذنب لم تقترفه، حين كانت بين المارَّة المستمعين إلى حكاياته، وقالت له إنها من "أبخازيا"، ومولودة في التاسع من أبريل. ثلاث خبطات في ضربة واحدة؛ ذكرى مذبحة "دير ياسين"، ومأساة "تبليسي" التي كان الأبخاز الانفصاليين من أهم مسبباتها. العجيب أن "مطيع" لم يتذكَّر توبيخه لـ"أمرا"، وبالتالي لم يشعر بالذنب حين قلت له إن الأبخاز قد شرَّدوا "أمرا"، وطردوها هي الأخرى من ديارها على ذنب لم تقترفه.

تزوَّج "مطيع" بـ"كاترينا" بعد انقضاء فترة الحداد، زواجًا مسيحيًّا للحصول على مُباركة أهلها، وزواجًا إسلاميًّا لنيل رضا أُمِّه. لم يُخمد الزواج الحب، خاصة أن "مطيع" كان يعمل مترجمًا بالنهار، ومُحرِّك عرائس في مسرح "ريزو جابريادزة" بالمساء. إلا أن "مطيع" كان يلمح نظرة جانبية تُوجِّهها "كاترينا" نحوه، وكأنها تلومه لأنه لم يهرع لإنقاذ صديقتيها، وأنه لولا ولع النساء به، ما كانت لتقاطعهما قبل وفاتهما وتحاسبهما مُسبقًا على ذنب لم يقترفانه أصلًا. نخر الحزن الذي تحوَّل إلى اكتئاب مُزمن قلب وجسد "كاترينا". وفي الثالث والعشرين من نوفمبر عام 2004، تم بناء نصب تذكاري لضحايا المظاهرات التي حصلت چورچيا بسببها على استقلالها. أخذ "مطيع" باقة ورد كبيرة وذهب مع "كاترينا" إلى شارع "روستافيلي" ليهدي الورد إلى أرواح الشهداء، لكن "كاترينا" أغمي عليها، ونقلت إلى المستشفى، وتركت الدنيا قبل نهاية العام. اكتشف الأطبَّاء أنها كانت تُعاني مرضًا نادرًا خبيثًا، لكنهم لم يحددوا إن كان هو السبب في الاكتئاب، أم أن الحزن هو الذي استدعاه إلى جسدها. لم تعد لـ"مطيع" حاجة للأموال التي يُدرُّها عليه العمل كمُحرِّك للعرائس في ظلام المسرح، وصار هو دُمية نفسه وبطلًا لحكايات النساء التي لا يستطيع أن يعبث بها المحتل، مثلما تبدَّل اسم قرية "الشيخ" إلى مُستعمرة "نيشير"، ومثلما تبدَّل اسمه قهرًا في الغُربة من "مطيع" إلى "موتي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتوتة توتة فرغت الحدُّوتة.

. ليش زعلانة يا حلوة؟ أنا زيّ البمب كيف ما بتقولوا. احكيكي نكتة وترقصيلي؟ طيب شوفي كيف صار لونك أسمر من كُتر الطلوع بالشارع والمياصة؟ بتعرفي؟ إمّي كان بدّها أتزوج واحدة سمرا، وكانت عم تقول "سمرا ونغشة ولا بيضا ودفشة". يالا يا سمرا.. بدّي أعرف بسّ مين المخبول اللي حاطتلك هالورد العجيب على راسك، ولوين بنروح عشان تحكيلي مين أكتر واحد خربطلك حالك.

حتى وإن كان "مطيع" قد نجح في استعادة روح المرح بغزله وشغبه الطفولي، فلقد بقيت على صمتي لبعض الوقت، لأنني لم أستطع أن أجد إجابة فورية لسؤاله، فمَن يا ترى "خربطلي حالي" أكثر: "فادي أباظة" أم "شادي عبد الهادي"؟

(16)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليتنا بدأنا لعبة الحكي المتبادل أنا و"مطيع" قبل أن أغادر شقة "تارا"، فهي المكان الأنسب الذي يصلح ملهمًا وخلفية لبداية حكايتي مع "شادي عبد الهادي"، نهار خارجي، الباحة الخلفية التي تكاد تماثل شقة "الدرب الأحمر"، زقزقة العصافير على أغصان شجرة التوت، والنسوة اللاتي يرتدين قمصان النوم في البلكونات ويشبهن "أنستازيا". والأهم هو حين يتحوَّل الديكور إلى "ليل داخلي" فتطل روح "شادي" من اللقطات الفوتوغرافية الاحترافية المُعلَّقة على الحوائط، فضلًا عن الجمل المأثورة التي تمجِّد فن التصوير وتغذي غرور المصور.

قال "مطيع":

- شقتي مثل شقة "تارا" ياللي تركتيها على فكرة. أنا ساكن بأول شارع "آجماشينيبيلي" يا بنت الجيران. وبتطل على الباحة ياللي عم يسموها "إيطاليان يارد"؛ بس بالدور الأرضي، عشان ما بطيق لا السلالم ولا الجدران.

. وليه ما قلتليش إنك ساكن جنبي أما جبتني من المطار وخدتني على أوتيل "ميجوتيل"؟

- كُنتُ خايف تفكّريني عم بتحرَّش فيكي.. أصلي كان بدّي

66 دقيقة متبقية من «...» 80%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتحرَّش فيكي.. بس إمي قالتلي ما تتحرَّش ببنات الجيران. كمان فيه واحدة هونيك عم بتغير عليَّ كتير. بتعرفي شو اسمها؟ "تامريكو".

لم تسمح لي "تامريكو" القطة بالدخول، فقد وقفتْ بعرض الباب الذي يفصل بين الشقة والبلكون المطل على الحديقة. حملها "مطيع" وأمسك يدي وجعلني أمسِّد على فرائها الغزير اللامع، فأغمضتُ عينيَّ، بينما أتخيَّلها كلبي "چاكيت". تساهلتْ معي قليلًا لكنها ظلَّت تنظر لي بغيرة نسائية أصيلة، حين تلهَّى عنها "مطيع"، واسترسل في الحوار معي، ومع الجارات اللاتي أحضرن صينية شاي، وكيك مخبوزًا توًّا بنكهة البرتقال.

. كان اسمه "شادي".

. بدّك تسمعي غنية "شادي" لـ"فيروز"؟

ـ لأ. إنت سألتني عن أكتر واحد "خربطلي حالي". كان اسمه "شادي". وأول يوم شُفته، كُنتُ بشرب شاي مع كيك وقاعدة لوحدي سرحانة وسط ناس كتير في مكان زي ده بالظبط.

كُنتُ قد عُدتُ من لندن للتَّوِّ، من رحلة الاستشفاء من زيجتي الخائبة، والتقلُّب في العمل هناك على مجلات ومحلات الموضة، وقصَّتي القصيرة مع "ألبرت" واضطراب أبعاده العاطفية. أما ما عجل بقدومي فهو تدهور الحالة الجسمانية والنفسية لـ"چيمي جدو"، واستغاثة تيتة "نازلي" بي لأنها لم تعد قادرة على رعايته.

كنت أجلس في البلكون الصغير في الشقة التي تؤجِّرها "أنستازيا" للفنانين، على الناحية الأخرى من الباحة والمُطلَّة على عمارة تيتة "زكية". ذهبت مع "ضيا"، وكأنها المرَّة الأولى التي تطأ فيها قدماي باحة "الدرب الأحمر". إحساس غريب ينتاب المرء حين يقف في بلكون جاره في الطابق الأعلى أو الأسفل، فتشعر أنك ترى المشهد الذي تراه من بلكونك كل يوم؛ لكن بمنظور مختلف، فلا تدري إن كان العيب في عينيك، أم أن المشهد يُراوغك. لم تسيطر عليَّ فكرة أنني أرى أصص الصبار الجافة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحزم الثوم المُعلَّقة بمسمار، والكراسي الخشبية في بلكون تيتة "زكية" وكأنها لغُرباء لا أعرفهم، فقد خطف عينيَّ وتفكيري مشهد أكثر غرابة داخل شقة الفنانين. كان هناك رسَّامون كثيرون، يضع كل منهم أمامه لوحة، ويمسك بفُرشاة، ويتبادلون أدوار الموديل المُراد رسمه. كانوا ينظرون بعُمق في وجوه بعضهم بعضًا، وكأن هناك فعلًا لممارسة الحب بين الأعين الثاقبة للرسام وملامح الموديل، ثم تتحوَّل العلاقة المُريبة لعيني مُحقِّق يُفتِّش عن الغُرف المُظلمة، واللحظات المُضيئة في الروح، ويحتار أين سيضعها على الملامح؛ على الشِّفاه، أم فوق الجفون، أم على عظام الوجنتين، أم بين التجاعيد. كان المشهد بمثابة تحقيق صامت:

س: لماذا تنفرج شفتاك بضحكة عريضة، بينما تنكسر عيناك؟

س: لماذا تنظر إلى أبعد نقطة، بينما البؤرة القريبة هي الأجمل؟

س: لما لا تُحدِّق فيَّ مثلما أحدِّق فيك؟

أما الإجابة فتتجلَّى على لوح "الكانفاس" بألوان الزيت الثقيلة، أو على الورق "الكانسون" بألوان الباستيل، أو بقلم الفحم، مصحوبة بشهقات الانبهار من المُشاهدين، وتنهيدة ارتياح من المرسوم، الذي انعتق توًّا من وضعية التمثال.

كنت أشرب الشاي ببُطءٍ وأنا أفكِّر أن حتى "وديدة"، وهي تجلس في المدخل على كنبة عرشها ذات الكسوة المُتَّسخة المُنفتق حشوها، لها أبعاد مختلفة من بلكون شقة الفنانين. وتساءلت لماذا لا تجعل "وديدة" أحدًا من أبنائها يجمع الأشياء المكسَّرة في الباحة وفوق السطح، التي تجعل المكان وكأنه كان قد تعرَّض لقُنبلة، ويحتاج أن يلتقط غني حرب القطع النادرة وسط الخراب، ويبيعها ليصير من أثرى الأثرياء. انتزعتني جملة "شادي" الآتية من خلفي من استغراقي في الأفكار:

- ياااااه.. إذا كُنتُ بتشربي الشاي بمزاج كده، يبقى بتـ.. بتـ.. بتشربي خمرة إزاي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هذه هي المرَّة الثانية التي كُنتُ قد سمعت فيها جملة قالها "شادي". ولم أدقِّق في ملامح وجهه أو هيئته وسط ثراء المشهد. أما المرَّة الأولى فقد كنا في حالة أكثر إبهارًا، حين اصطحبني "ضيا" إلى حفل غناء صوفي قبطي، وقابلنا هناك صديقه "شادي". عمَّ الظلام المسرح إلا من بُقعة الضوء المُسلَّطة على المُنشدين. مرَّت أسماء الله الحسنى كغيمة طيبة تحلِّق تحتها يمامات بيضاء، فتلحق بالسرب "كيريااليسون"، وتنشبك "يا رب ارحم" مع صفة "الرحمن الرحيم" في تناغم سماوي. أغمضت عينيَّ، واستلهم قلبي تصميمًا لتنُّورة "كلوش" لونها أزرق فاتح عليها يمامات تفرد أجنحتها، وأتخيَّل "ضيا" وهو يُطرِّز طرفها بخيوط الحرير بجملة "والروح تسري في مجالات العُلا".

- بتحبّي ربنا؟

كانت هذه هي الجملة الأولى التي سمعتها بصوت "شادي"، وكانت السؤال الذي لا إجابة له سوى نفَس عميق مُعبَّق بالحالة الطربية الروحانية وإغماض تام للعينين. أغمضت عينيَّ لا عملًا بمقولة "النفري" "إنما أحادثك لترى، فإن رأيت فلا حديث" التي كان ينشدها المُنشدون في تلك اللحظة؛ بل لأنني كُنتُ فعلًا أريد أن أغضَّ الطرف عن أي علاقات تجرفني إلى مزيد من الألم. تعوَّدتُ أن أحسب سنوات عمري بتواتُر الموضات على جسدي؛ كم من الأزياء ارتديت، وكم استغنيت ثم ندمت لأن موضته قد عادت بكل ثقلها، فاشتريت ثيابًا كُنتُ أمتلك مثلها بأضعاف أسعارها، ومن كثرة التكرار فقدت انبهاري وشغفي بكل جديد. حينها استطعت أن أقول بملء العين والجسد "لقد هرمنا"، ولم تعد تبهرني سوى الملابس التراثية وتنُّورة الصوفي، التي تصوَّرتها صفحة بيضاء تحتمل كل الإبداعات، على الرغم من دورانها الدؤوب بعدد لفَّات الزمن. كان أوَّل ما جعلني أترفَّع عن الاستجابة لتلميحات "شادي" هو اسمه، فتشابه كلمتي "شادي" و"فادي" جعلني أشعر بأنني سأعيد ارتداء ثوب بطلت موضته، وفي الوقت نفسه، كأنني أخون ثوبًا تراثيًّا يجب أن يظل في خانة مَن لا يشبهه أحد. ولم أجده أمرًا لائقًا أن أستبدل حرفًا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حروف اسم "فادي" لأرتدي "شادي".

لم يعرف "شادي" حينها أنني لا أستجيب لفحيح صوته بسبب تشابه الأسماء، ومع ذلك أفرط هو في استعمال اسمي، وتحوَّل من صوت هامس في ظلام المسرح إلى رسائل نصية لا عدد لها على تليفوني المحمول، لا تحوي سوى اسمي، "تمارا" في الثانية عشرة ليلًا، "تمارا" في الثالثة بعد منتصف الليل، والرابعة والخامسة فجرًا، والسادسة صباحًا، والسادسة والربع، والسادسة والنصف، إلى أن أستيقظ وأرد بكلمة واحدة "نعم"، فتكون الرسالة التالية:

"أحرف أربعة بها هام قلبي، تاء.. ميم.. ألف.. راء".

يتكرر الأمر كل ليلة لأستيقظ في الصباح على: ***"أشتهي وصالك"***، أو ***"يجب أن أتوضَّأ لأدخل قدس أقداس (تمار الشوافيلي)"***.

. وتوضَّأ ولا شو؟

. إنت مش قلتلي أحكيلك ولا هاتهزَّر؟

. باين عليه هجَّاص صاحبك هاي.

هذا ما تصوَّرته أيضًا في البداية، ولم آخذه على محمل الجدِّ؛ إلا أنني فوجئت بنفسي أستيقظ كل بضع ساعات حين أشعر برفة في القلب واختطاف للروح، لأجده يناديني في رسالة. أحببتُ اسمي حتى أدمنت على رؤيته مكتوبًا، لدرجة أنني فكَّرت في تصميم تنُّورة تتناثر على أنحائها التاء، والميم، والألف، والراء، بتشكيلات وخطوط عربية وخيوط من الذهب المقصَّب أو الحرير الملوَّن، وفكَّرت أن تقوم ورشة "ضيا" بتنفيذ خط إنتاج التنُّورات هذه ونسميه "تمارا تنُّورة". شعرت أن ظهور "شادي" المفاجئ في حياتي على هيئة رسائل نصية، وجمل قصيرة يقذفها سريعًا لي مرَّتين في الأسبوع في شقة الفنانين، هما اليومان نفسهما اللذان تأتي فيهما المُمرِّضة لمُراعاة تيتة "نازلي" و"چيمي جدو"، كانا بمثابة جناحي يمامة طيبة، تحملني بعيدًا عن غصة الحسرة التي تنتابني كلما شاهدت اضمحلال ذاكرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"چيمي جدو" وأفوله الوشيك. وللحق أعترف أنني قرَّرت أن أستخدم "شادي" كأيقونة للإلهام، مثلما يترك الشعراء قلوبهم تذوب في أعين المُلهمات؛ لكنني كُنتُ شرِّيرة طيِّبة، فعزمت على ألا أسرق روحه ومشاعره بالكامل، لو سلَّطت عينيَّ في عينيه، واخترق سحرهما صميم قلبه. هذا ما قاله بعض مَن قابلتهم ولم يؤثروا فيَّ، أنني أسرق الروح من الأعين. قرَّرت أن أظل ألعب دور المُتلقِّي الصامت المفتون بالعرض حتى بعد أن تعدَّدت لقاءاتنا بعيدًا عن إطار شقة الفنانين، وهو الأمر الذي غذَّى شغف "شادي" في استعراض إمكاناته وقُدراته الإبداعية.

. وشو قُدراته الإبداعية سي "شادي"؟

. إنت بتغير ولا إيه؟

. إيه.

صار "شادي" بالنسبة لي مثل ثوب شاهدت صورته في مجلة، ولم أصدق أنه سيليق بي، ثم قمت بتنفيذه بنفسي وارتديته مرَّة لأجربه، ومرَّة لأن شكلي فيه قد أعجبني، ومرَّة لأنني اعتدته، حتى صار مثل رداء لا أمتلك غيره.

يُمسِّد "مطيع" على شعري للمرَّة الثانية اليوم، وكأنني قطته "تامريكو"، ويأخذني إلى داخل الشقة تاركين أكواب الشاي وبقايا الكيك وجلبة النساء بالبلكون المفتوح على الباحة.

شقة "مطيع" مُعتمة قليلًا بسبب غلق النوافذ، ولا يُضيئها سوى اللون الأبيض المُهيمن على بيَّاضات الكراسي، وخشب المناضد، والبلاطات الرخام، والأطباق الخزفية، التي تزين المكتبة، والتماثيل الخشبية البيضاء. أي مُصادفة تجمع بين هذا المكان شاهق البياض وسيرة "شادي عبد الهادي" بقمصانه الكتَّان البيضاء. قال "مطيع" إنه يحرص على نصاعة الأبيض منذ وفاة "كاترينا"ولا يطأ هذا البيت غُرباء خشية أن يلوثوا لونها المُفضَّل الأوحد، حتى هو ينام أغلب الليالي الصيفية على الكنبة التي كنا نجلس عليها في البلكون، وفي الشتاء إما أن يبيت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ميجوتيل"، وإما يجوب بلدان العالم، ويختبر وقع حكاياته الشيِّقة على قلوب وأجساد النساء.

الأبيض لون مُراوغ، يقولون عنه أصل الألوان، وتقدسه الديانات، ويرمز للطهر والنقاء في دنيا الأحلام، لكنه أيضًا اللون نفسه للأكفان والحداد في بعض البلدان، كما يشبه الضوء الأبيض بآخر النفق الذي يشاهده مَن تُغادر أرواحهم أجسادهم لثوانٍ ويظلون مُعلَّقين في "البين بين"، ثم يعودون للحياة ويحكون أن البياض الخالص كان لون الموت. انتقلتُ لمرحلة "البين بين" مع "شادي" حين توقفتْ رسائله القصيرة، وصار يعتمد على الكلام. لم يكن "شادي" رسَّامًا لكي يظل ينظر إليَّ في صمت؛ بل كان يتردَّد على منطقة "الدرب الأحمر" لكي ينفذ حلمه بمشروع ترميم البيوت الأثرية وتحويلها إلى نُزُل لاستضافة السائحين المتخصصين، مثل وكالة "الغوري" في الأيام الغابرة. كان يكثف زياراته لبيت "أنستازيا" ولغيره من بيوت أهل الحي، ويلتقط صورًا فريدة للأزقَّة، والبلكونات الحديدية، وقباب ومُقرنصات الجوامع، بالإضافة إلى لقطات ضبابية باللون الرمادي لوجوه كل المُتردِّدين على شقة الفنانين، وضعوها كإنجازات نادرة على بروفايلاتهم ومواقعهم على "السوشيال ميديا". استهلك "شادي" ساعات نهارية طويلة في المرور على المصالح الحكومية لاستخراج التصاريح في المدة المحدودة التي كان يقضيها كإجازة من عمله مهندسًا معماريًّا يصمم فيلات وقصور الأغنياء في الخليج.

هدم الروتين والبيروقراطية أحلام "شادي"، فارتدَّ إلى حالة نوستالجيا ستينية بالأبيض والأسود، كان يعيشها أصلًا، ويُعشِّش في أعماقه السواد؛ لكنه كان دائم التخفِّي وراء نصاعة قميصه الكتان الأبيض. تحوَّلت رسائله التي تصرخ باسمي مثل طفل يستغيث بأُمِّه إلى مقولات صوفية لـ"النفري" الذي يعشقه، لكن ليست التي تلمح لوهج الغرام مثل ذي قبل؛ بل كدعوة إلى الاستغراق في الحزن: "ومعرفتك بالبلاء بلاء، وإنكارك للبلاء بلاء"، و"القلب يتغير وقلب القلب لا يتغير، والحزن قلب القلب".

تعلَّل «شادي» بأن تغير مزاجه المفاجئ يعود إلى عدم مقدرته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للتواصل مع ابنه، الذي تُربِّيه طليقته على غير ما يرغب في بلد أجنبي. وكلما راوغني برسالة ظننتُها عودة لسيرة الحب، وجدتها مجرد رغبة في إنجاز مهمة سريعة لإسكات إلحاح الجسد، علَّها تُهدِّئ روحه الضَّالَّة.

كُنتُ أذوب فيه عشقًا حين أستيقظ صباحًا فأجد رسالة بأغنية "عوِّدت عيني على رؤياك"، أو "أمل حياتي". ومع كل حرف وكل نغمة، يصور لي خيال مُراهق أن "شادي" هو مَن ألَّف الكلمات، ووضع الألحان ليوجهها خصِّيصًا لي مثل أي فتاة ساذجة، فيتبعها برسالة أخرى يسألني أن أضع وحدة قياس لمدى حبي له فأقول:

- بحبَّك قد كل الأغاني.. وأنت وحدة قياسك إيه؟

فيُعاوده عربيده البائس، ويقول:

- بعدد مرَّات الأورجازم منذ بدء الخليقة إلى الآن.

ثم لا يترك لي مساحة للقبول أو الاعتراض، حين يرسل لي بعدها مباشرة أغنيات حماسية للشيخ "إمام"، ويعلق عليها بـ"ناح النَّوَّاح والنَّوَّاحة عليكي يا مصر". ثم ينصحني بأن أشاهد فيلمًا وثائقيًّا بعنوان "الستينيات في زمن ناصر"، وأن أرسل له تعليقًا فوريًّا عن انطباعاتي. أما ما احتلَّ الجزء الأعظم من رأسه هي تلك المرحلة التي درس فيها الهندسة المعمارية في موسكو، فكان يبدأ في السُّخرية ممَّن يُحاولون التَّدريب على رسم البورتريهات في الدرب، مقارنة بالتحف المرسومة في جاليري "تريتياكوف"، أو متحف "الكرملين"، ومتحف "بوشكين". وحين كُنتُ أحاول إشباع النَّهَم الفني لدى "شادي" باقتراحات لعمل جولات على متاحف وجاليريهات الزمالك، بعد تناول القهوة والإفطار على النيل، كان يفاجئني بالكلام عن مشروع إدارة الثورات الملونة والخطط الأمريكية لإشعال الجبهات في روسيا، وأحقيتها في جزيرة القرم.

فكَّرتُ أن أُبقي "شادي" مُلهمًا حتى الرَّمق الأخير، خاصة أنه كان يُعاود النداءات الليلية المُلحَّة من حين إلى آخر، فاخترت من بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقولاته الجافَّة مايصلح للتطريز فوق تنُّورة ترتديها فتاة تحن إلى زمن ليس بقريب، وليس ببعيد، تمامًا مثل "شادي": "تضحكي للصبح يصبح، بعد ليلة ومغربية، تطلع الشمس تلاقيكي، معجبانية وصبية، يا بهية". أسأله بماذا يشعر حين يرى تصميماتي فيقول:

- أشعر بأنني أرغب في إيلامك بشدَّة، فاللذة شقيقة الألم.

ثم يبكي لأن أمه قد أوحشته. أمه التي تسمى "نادية"، وكان يناديها بـ"نانا"، وكذا كان ينادي "نادين" حبيبته السابقة.

كان قد تبقَّى على سفره يومان، قضينا معظم ساعاتهما في قوارب نيلية، وكأنه يرغب في الارتداد إلى حالته الجنينية في المحيط المائي برحم أمه. كان يضع رأسه على رجلي، حين سرح كثيرًا واستطرد في الحكي مثل طفل يهلوس قبل الخضوع التام للنوم:

- أشتاق إلى "نانا"، هكذا كانت تريحني على حجرها بالساعات وننام بعُمق حتى مطلع الصباح.

سألت بدلال وأنا أثق أنه يقصد أمه:

- "نانا نادية"، أم "نانا نادين"؟

فقال بتلقائية:

- "نانا نادين"، كنا نلتقي كل يوم في حديقة "مكسيم جوركي" عند نهر "موسكوفا".

سألته:

- وليه سبتوا بعض؟

رد بتلقائية:

- معرفش.

سافر "شادي" ليعود إلى عمله الذي قال إنه يتحوَّل فيه إلى ترس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في آلة في الإمارات. غابت رسائله عشرة أيام، كُنتُ أتلهَّى خلالها بالإعداد لعمل صفحة إلكترونية لتسويق "تمارا تنُّورة" المزركشة بحروف اسمي، التي ألهمتني إياها حكايتي مع "شادي عبد الهادي". أرسلت اسمه خمس مرَّات في رسالة واحدة مثلما كان يفعل باسمي، ليشاركني رأيه وفرحتي بتصميم التنُّورة الجديد، فكان رده: "مش قادر أرغي"، واختفى اسمه من على قائمة "الواتساب".

حين بعثرت على "تمارا تنُّورة" الحروف المبهمة، كُنتُ أقصد بالتاء أغنية "توبة"، وبالميم "مشاعر"، وبالألف "إنت عُمري"، وبالراء "راجعين يا هوى راجعين"، أما الألف الأخيرة فكانت لـ"أهواك". كان كل مَن يدقِّق في الحروف يرى كلمات مثل تمر، أو أمر، أو أم؛ لكن حين غاب اسمي تمامًا من رسائل "شادي"، صرت لا أرى على التنُّورة سوى حرفي كلمة "مُر". لكنك تعرف بعد مرور الوقت أنك تعافيت من حب قديم حين تركب قاربًا في النيل، ولا توخزك شكَّة في القلب لكلمة قيلت فيه وأوجعتك، أو حين تتردَّد على شقة الفنانين وتشرب الشاي رشفة رشفة، وتغمض عينيك دون أن يضجرك تساؤل تسمعه بصدى صوتك إنه إن كُنتُ تشرب الشاي بمزاج هكذا فكيف تشرب الخمر؟ حتى وأنا أتفرَّج على الصور التي التقطها "شادي" للمكان ولوجوه أصحابه، وعلَّقوها بالدبابيس على الحوائط، فكَّرت دون حسرة بمقولة إن أفضل شيء في الصور هي أنها لا تتغير، حتى وإن تغيَّر مَن ظهروا بها، وإن مَن أعجب مزايا التصوير هو أن مادَّته الخام الضوء والوقت.

وتوتة توتة فرغت الحدُّوتة.

همس "مطيع" في أذني:

- برافو يا شاطرة. حكيتي حلو. بتعرفي إني عُمري ما لاعبت ولا واحدة لعبة المدن بالبيت هون؟

. إيه لعبة المدن دي؟

. بتقولي اسم مدينة من بلدي وبقول اسم مدينة من بلدك، واللي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول أكتر يبوس التاني بوسة طويلة. يالا أنا باقول "القاهرة" "إسكندرية" "طنطا" "بنها" "كفر الشيخ" "السويس" "الإسماعيلية" "بورسعيد"...

ضحكتُ وقلت:

- "غزة"، "أريحا"، "بيت لحم"، "الناصرة"، ثم صمت.

. "مطيع".. أنا تعبت، و لازم أروح أنام.

. نامي هون.

. لأ، لازم أمشي، تصبح على خير. إنت مش وعدتني تاخدني بُكرة "متسخيتا"؟

أفلتني "مطيع" برقَّة، وتركني أخرج ثانية إلى الباحة لأجدِّد الهواء الذي لوَّث صدري بحكاية موجعة.

شعرت برغبة في أن أكمل اللعبة مع "مطيع"، وأن أعود وأقول له بكل اشتياق: "رفح"، "جنين"، "حيفا"، "عكا"، "القدس"، "نابلس"، "رام الله"، "الخليل"، لكنني أردت أن تظل حكايتي معه في خانة "غموض ما قبل البدايات"، ذلك السحر الذي يُنبئك بأن هناك حدثًا عظيمًا ينتظرك، رداءً ملكيًّا سيبهرك في المرَّة الأولى، فإن ارتديته ربما أراحك في المرَّة الثانية، لكنك حتمًا لن ترتديه مرَّة ثالثة، شأن كل الملابس شديدة الروعة التي تبقيها في عُزلة لقيمتها الرفيعة، فتعلوها الأتربة حين تبقى أسيرة الحقائب الضخمة أو خزانـــــــــــــــات الملابـــــــــــــــس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(17)

تعـجَّب "مطـيع"كيف لامـرأة مهووسـة بتـاريخ الأمكنـة مثلي أن تحصر نفسها في "تبليسي" لشهر ونصف الشهر، وتكتفي بالتفرُّج على أطلال التاريخ داخل الشوارع الضيقة، وقاعات المتاحف، مثل فأر مذعور محبوس في مصيدة. بينما التاريخ بذاته يُعرِّي نفسه ويُعربد في كل المدن الجورجية على بُعد أميال قليلة. قلت له إنني فعلًا مثل فأر رهين الانتظار لرسالة أو زيارة مفاجئة من القس "أندراوس"، وإنني أنفِّذ تعليماته بالحرف، لئلَّا يغير رأيه ويحرمني من الكنز. لم يصدق "مطيع" أيضًا أنني كُنتُ جادَّة حين حكيت حكايتي مع القرط، والإنجيـل، والبراق الذي طار أمام نافذتي، وظنني أريد أن أبهر المارَّة وأختبر مهارتي في حكاية تُشبه أسطورة "جاسون والصوفة الذهبية" التي دارت أحداثها في "كولخيس" إحدى مدن چورچيا في العصور الغابرة، حيث كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتَّهمني "مطيع" بالخبل، أو بتعاطي عقاقير للهلوسة، لكي أترك ورائي في بلدي بيتًا له جدران أربعة، وبابًا يُوصد، وسقفًا غير مُهدَّد بالقصف، وجدَّة حتى وإن كانت عجوزًا، وأختًا حتى وإن كانت بلهاء، وجيرانًا، وملاعب صبا، وحيطان مدرسة، وبقايا ذكريات تُعاش بالروح والجسد، وليس فقط على ألسنة العجائز في الحكايات. نصحني "مطيع" بأن أستمتع في چورچيا بالتاريخ الذي أعشقه، بلمس أحجاره، وشم رائحته، وغسل روحي في ينابيع المياه الدافئة، والمناظر الجبلية الخلابة، وآثار الأزمنة البعيدة والقريبة التي طبعها الغُزاة الرومان، والفرس، والبيزنطيون، والعرب، والأتراك السلاجقة، والمغول، وأخيرًا الروس والسوفيت. وأن أمتصَّ رحيق مدن "كاخيتي"، و"باتومي"، و"بورجومي"، و"كوتايسي"، ثم أعود مُحمَّلة بالحكايات الشيِّقة التي أرويها في مصر. وأن أصير مثل الـ"ناتسياللياني" في الأسطورة الجورجية، وهم أولئك البشر الذين بُوركوا بمنحة إلهية، تظهر على هيئة بريق على عظام الظهر الناتئة، وتمنح صاحبها قُدرات خارقة، ويجب ألا يُحدِّث عنها أحد، حتى لا يزول السحر. سأُبقي الآن فردة القرط معي مثل حلقة في أذني، والكتاب المقدس الغامض الذي ورثته عن جدَّاتي في مكان عزيز ومُقرَّب من قلبي.

وعدني "مطيع" بأن نبدأ بـ"متسخيتا"، المدينة التي تبعد عن "تبليسي" بعشرين كيلومترًا فقط بحساب إطارات السيارات، وبقرون بعيدة بحساب الأزمنة. يكفي أنها من أقدم المناطق التي عاش فيها إنسان على وجه الأرض. اتفقت معه أن نتناول الإفطار في المطعم الصغير بصالة الاستقبال بفندق "ميجوتيل"، ثم ننطلق.

ألحظ حركة مُرتبكة في المطبخ، وأن الذين يقدمون الإفطار موظفات مكتب الاستقبال بالتناوب، وليست "أمرا" كما تعوَّدت. تضع "ريموندا" بنفسها فنجان القهوة أمامي، مع الخبز، والجبن، والمربَّى، ويتشتَّت نظرها بين الموائد الأخرى والمطبخ. تسألني:

- لماذا لم تردِّي على أيٍّ من مُكالماتي أو أيٍّ من رسائل "الواتساب"

1 دقيقة متبقية من «تماس» 85%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي أحاول أن أرسلها لكِ منذ صباح الأمس؟

عبثتُ بتليفوني لأبحث عن رسائلها، فاكتشفت أن مدة شحن الكارت قد انتهت منذ أيام ثلاثة، وأنا غارقة في حكاياتي وخروجاتي مع "مطيع". قالت لي "ريموندا" إن "أمرا" اختفت منذ يومين، فقد حزمت معظم أمتعتها وغادرت البيت. ظنوا أن والد "ريموندا" قد ضايقها في نوبة سُكْر، أو احتدَّت عليها الفتاة المُراهقة في لحظة تمرُّد. بحثوا عنها في الفندق، لكنها لم تحضر إلى العمل، فسألوا عنها صديقتها "أمينات" التي سرحت بعينيها بعيدًا وكأنها تهمس لنفسها، وقالت:

- فعلتِها يا "أمرا"؟ لن تهدئي حتى تصيري جُثَّة هامدة، وربما يسكنكِ السلام فعلًا حينئذٍ، لو حقَّقتِ أمنيتكِ بأن تموتي وتُدفني في الأرض التي تربَّيتِ فيها.

فلطالما تمنَّت "أمرا" أن تعود إلى "أبخازيا"، وأنه لن يأتي عيد ميلادها المقبل إلا وهي هناك، حيَّة أو ميِّتة.

انضمَّ إلينا "مطيع" والتقط الجزء الأخير من الحوار، وقال ساخرًا:

- رفيقتكن هاي مولودة بيوم نحس، 9 أبريل ياللي عاملينه العيد القومي لچورچيا هو اليوم نفسه ياللي تلفت بيه أعصاب "كاترينا"، وياللي دخلت به قوات التحالف بغداد، وأسقطوا تمثال "صدام حسين"، وبيسمُّوه عيد الشهدا في تونس، ناهيك أصلًا عن أن أجدادي اندبحوا فيه في "دير ياسين"، وكمان اتفجَّر فيه كنيستان بمصر. يالا خلِّينا "نفوت" على "متسخيتا" قبل ما تيجي "أمرا" وتنفجر بوجهنا.

تركت تليفوني لـ"ريموندا" لكي تجدِّد لي شحن الكارت، وتركت نفسي لـ"مطيع" ليبثّني وصاياه وتعليماته. لم يأخذني "مطيع" إلى "متسخيتا" تحديدًا لقربها الجغرافي، ولا لأنها تضرب بجذورها في أعماق التاريخ فحسب؛ بل لأن بها شيئًا له علاقة بالثياب، وهو ما يُفترض أن أقدِّمه في الفيديوهات التي سأقوم بتصويرها؛ لكن الثوب المدفون في إحدى كنائسها ليس ثوبًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاديًّا، بل القميص المقدس الذي صُلب فيه السيد المسيح. كان قميصًا بغير خياطة، منسوجًا كله من فوق إلى تحت. قيل إن رجلًا يهوديًّا چورچيا من "متسخيتا" كان بالقدس وقت الصلب فوجد القميص وأتى به إلى چورچيا. تشبَّثت أخته "سيدونيا" بالقميص، وماتت من فرط الانفعال وهي مُمسكة به، فجعلوه لها كفنًا، ودُفنت به. وبعد قليل، نمت شجرة أرز كبيرة فوق قبر "سيدونيا". أمر الحاكم "ميريان" أن يتم بناء معبد فوق قميص المسيح، المدفونة به "سيدونيا"، فاضطروا أن يقطعوا شجرة الأرز، ويصنعوا منها سبعة أعمدة. تم دقُّ ستة أعمدة وبقي السابع مُعلَّقًا في الهواء. أخذت القدِّيسة "نينو" تُصلِّي طوال الليل، فتجمَّد العمود في الهواء، وأخذت تنزل منه نقاط زيت مقدس، وصار يأتيه الناس من كل صوب وحدب ليستشفوا بزيت الكنيسة التي صار اسمها "سفيتيتسخوفيلي"، ومعناها بالجورجية "عمود منح الحياة". ويُقام عيدان عندها أشبه بالحج في الثالث عشر من يوليو، وفي الرابع عشر من أكتوبر للتبرُّك بالزيت وبالقميص المقدس.

قلت لـ"مطيع" ليتنا انتظرنا حتى الأسبوع المقبل، فقد بقيت سبعة أيام على هذا العيد، فقال إنه يريد أن يُفرِّجني التقاء نهري "كورا" و"أراجفي" عند سفح دير "جفاري". يلتقي النهران تحت سفح الجبال الخضراء المُزركشة بالورد البنفسجي، وكأنهما حبيبان التقيا بعد طول غياب، ثم يسيران يدًا بيد في طريق جميل لا نهائي. وبجوار الدير، شجرة الأمنيات، التي تتدلَّى منها الشرائط الملوَّنة التي يعقدها الحجاج على أغصانها، وهم يتمنُّون أمنيات ويأملون أن تتحقَّق.

ـ لو كنتِ بعدّك زغيرة، وكنتِ متل نهر "كورا"، مين ياللي كنتِ تمنّي يشبك فيكي متل نهر "أراجفي"، وتعقدوا شريطة حرير عند شجرة الأمنيات بأنكن ما تفترقوا أبدا؟

. كُنتُ أتمنى ما أسيبش إيد "فادي أباظة".

. طيِّب إحكيني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. إنت إزَّاي لئيم كده وعرفت تجيبني الجنة دي عشان أحكيلك الحكاية دي بالذات؟ إحنا فعلًا كنا على طول بنمشي ماسكين إيدين بعض كده تحت الشجر العالي المتشابك في النادي، وأول مرَّة شُفنا فيها بعض كنا لابسين قميصين مقلمين أزرق في أبيض، زيّ ألوان الأنهار والبحر. وتاني مرَّة اتقابلنا تصادف برضو إننا كنا لابسين تيشيرتين بلون المانجا، لون مش مألوف أوي، بسّ بيدّي إحساس بالصيف وحلاوته. وقعدنا حوالي ست شهور بنلبس حاجات بالصُّدفة شبه بعض بالظبط، لدرجة إن أصحابنا كانوا فاكريننا متفقين من وراهم، بس إحنا كنا مستمتعين بالدهشة اللي بتحصلّنا إحنا شخصيًّا كل مرَّة نتقابل صُدفة.

في المرَّة الأولى التي التقينا فيها، كانت تُهمين على الهواء رائحة فوَّاحة هي مزيج من عطر "ميس ديور" الذي كان يفوح من رقبتي ونبضاتي، وبين زهور الياسمين الصغيرة التي تزين الشجر العريض الذي نجلس خلفه، وبين عبق "فادي" الذي له حلاوة الزهور وقوَّة خشب الصندل، ويذوب الشذا ويتداخل في بعضه بعضًا ليحدث التأثير الحالم نفسه على قلبينا وعقلينا.

. وسي "فادي" كان عم يلبس متل البنات ويتعطَّر متل البنات؟

. بنات؟ ده كل البنات في النادي كانت هتموت عليه. عارف إن شياكة الراجل مش بتكمل إلا إذا كان فيها لمسة حريمي؟

كان لـ"فادي" جسد إله إغريقي، كالتماثيل العارية التي نشاهدها في المواقع الأثرية والمتاحف. إلا أنه كان يكسو هذا الجسد الفارع قمصان، وسراويل، وأحذية، تزيده روعة، كالعارضين الرجال الذين كُنتُ أتفرَّج على صورهم في الكتالوجات السميكة المُتراصَّة بعناية على منضدة صالة الاستقبال في أتيليه "چيمي جدو"، وكنت أرسم قصصًا في خيالي تجمعني بهم، وأعيش حلمًا مختلفًا مع كل بطل على حدة.

كنا نشتهي الأزمنة الجميلة، ليس بحسرة الأبيض والأسود التي كانت تطفو كغيمة كئيبة فوق رأس "شادي عبد الهادي"، بل كلتُورات مُنقَّطة، وأزرار كبيرة مُلوَّنة، وببيونات بيضاء، وكُسر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثـيرة تحـت الوسـط، وأغنيـات تتركـك لاهـثًا بفرحـة مثـل "يـا مصـطفى يـا مصـطفى"، و"تويسـت"، و"سـواي"، و"روك أنـد رول"، لدرجة أن أصحابنا كانوا يُسمُّوننا "سعاد حسني" و"رشدي أباظة"، لكـن "فـادي" كان يُسمِّي نفسه "بليتو" أي "أفلاطون". بينما كان يُخطئ أناس كثيرون في النطق ويقولون عليه "بلاتوو"، أي مكان تصوير السينما.

. وما كنتوا بتعملوا شي سوى تشلحوا تياب وتغنوا وتتمايعوا ولا شو؟

. لأ طبعًا. كنا صغيرين بس كان عندنا أحلام، ومشاكل كتير.

كان "فادي" يكبرني كثيرًا في حجم الجسد، إلا أنه كان يصغرني بعام، وقد كان يشكل هذا الأمر مُعضلة كبيرة في بداية حكايتنا. كُنتُ في الثانوية العامة، وعلى وشك دخول الجامعة، وكان أمرًا غير مقبول بين الصديقات أن تحب فتاة في الجامعة صبيًّا ما زال في المدرسة. كنا نحلم بأن نلتحق بأكاديمية الفنون معًا؛ هو فـي قسـم السـيناريو، وأنـا فـي قسـم الأزيـاء. كـان لـ"فادي" فـي طفولتـه جدَّة عمياء، تُجلسه بجانبها قبل أن تنام لكي يُسلِّيها، فتسلِّيه هي بالحواديت، وتنام في منتصف الحدُّوتة، فينسحب إلى غرفته، ويتخيَّل الجزء الناقص من الحدُّوتة ويكتبه. وفي الصباح، يقرؤها عليهم في البيت بعد أن عبث بنصفها، فتضحك جدَّته العجوز كثيرًا، وتنهره طنت "هدى" والدته، لأنه تعطَّل عن تحصيل دروسه، وأضاع وقته في هذا الهُراء، فصار يحلم بأن تكون دروسه وواجباته هي حكايات الآخرين التي لم تكتمل. أما أنـا فقـد أصـاب عـينيَّ فيروس نـادر وسـط الامتحـانات النهائية، جعلنـي أعـجز عـن الكتابـة بخـطٍّ سـويٍّ، فصمَّمتُ على أن أُكمل الامتحـانات فـي لجنة عاديـة، وليس فـي لجنة خاصة، حتـى إن رسبت، تكون حجَّة مقبولة أمام "چيمي جدو"، وتيتة "نازلي"، ويستطيع "فادي" أن يلحق بي دراسيًّا؛ لكنني وللأسف نجحت، وبـذلك خسـرت أن نـدخل أنا و"فـادي" الجامعة معًا. كُنتُ أحب التاريخ بالقدر نفسه الذي أعشق به الموضة، فدخلت كلية الآداب، خاصة أنني لم أكن واثقة أن طنت "هدى" ستوافق على التحاق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"فادي" بأكاديمية الفنون.

. واضح أن الأستاذ "فادي" كان "ابن إمه" وما إلو كلمة.

. بالعكس، ده كان راجل جدًّا. أبوه مات وهو صغير، وكان بيعتبر نفسه راجل البيت اللي بيخلِّي باله من مامته وجدّته الكفيفة مامت باباه. عشان كده ماكنش بيحب يزعّلها، ويقول كفاية عليها شبابها اللي راح.

اعتبرت طنت "هدى" "فادي" أيقونة تعبر عن الزوج الذي فقدته والحاضر الذي تعيشه بقوة، والمستقبل الذي تتطلع إليه. كانت تُسمي نفسها "هدى أباظة"، حتى إن كل مَن في النادي كانوا يعتقدون أن هذا هو لقبها الأصلي، لكن "فادي" قال لي إنها ترغب في أن تلصق اسمها في كل ما يقربها لأبيه الراحل وله. تمكَّن "فادي" من أن ينقل لي حبه وتعاطفه مع أمه، فحلمت كثيرًا بأنه يومًا ما سيضمنا بيت صغير أنا و"فادي" وطنت "هدى أباظة"، وسينشغل "فادي" في أعماله ويتركنا معًا في المساءات، فنشرب الشاي والكيك أمام مسلسل أجنبي، أو فيلم عربي قديم، ونبكي ونضحك مع الأبطال. وتحكي لي طنت "هدى" عن قصة حبها مع والد "فادي" الذي أحبته ووافقت على الزواج منه فورًا؛ لأنه كان يمتُّ بصلة قرابة لـ"رشدي أباظة". وقعت أنا أيضًا في غرام طنت "هدى أباظة"، ليس فقط لأنها كانت تعاملني بلُطف حين تقابلني في النادي، بل لجمالها وأناقتها الغامضة غير المُتعمَّدة. كان كل ما في طنت "هدى" فاتح اللون، بشرتها الوردية، وشعرها الكستنائي، وفساتينها السادة بألوان الباستل، وسلسلتها البلاتينية ذات حبَّة اللؤلؤ الواحدة. تصوَّرتها تيتة "نازلي" في شبابها، لو لم تستبدل الملابس الهادئة المُحايدة بملابس الحداد الصارخة بالنِّقمة على القدر. وأحيانًا أخرى أتخيَّلها أمي لو كان "چيمي جدو" قد تولَّى أمر تصميم أزيائها، وطمس عنها معالم الأزياء ذات النقوشات المُربكة للعين، كالتي ترتديها تيتة "زكية". إلى أن كان اليوم الذي ارتدى فيه "فادي" قميصًا سماويًّا فاتحًا لحضور الحفل الراقص بالنادي. كانت هذه هي المرَّة الأولى في حياتي التي أضع فيها أحمر شفاه بلون وردى فاقع، كما كانت المرَّة الأولى التى أريح

87%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها رأسي على صدر "فادي" في رقصة بطيئة ناعمة. عاد "فادي" إلي البيت بعد منتصف الليل، ووجد طنت "هدى" في انتظاره في الصالة، وبدلًا من أن تُستِّف له خطبة عن أصول ومواعيد الدخول والخروج من البيت، أُغمى عليها لبضع دقائق، فقد طُبعت على ياقة قميص "فادي" السماوية تفاصيل شفتين باللون الأحمر الفاقع.

تبدَّلت مُعاملة طنت "هدى" معي، وصارت تمدُّ لي يدًا ببرود في السلام، ثم تُدير ظهرها إن رأتنا أنا و"فادي" آتيين من بعيد. أنا أيضًا صرت أنتزع كفِّي من بين أصابع "فادي" فور أن أشعر بوجود طنت "هدى" في النادي. لم أفهم لِمَ تخلَّت طنت "هدى" عن جزء كبير من لُطفها معي، فأكمل لي "فادي" الجزء الناقص من الحدُّوتة. قال إن أمه منذ أن رأت أحمر شفاهي على قميصه، وهي تراني كفتاة مُستهترة عديمة الأخلاق، سوف أؤثِّر على مستقبله، وعلى سُمعة عائلته، كما أخذت تتوسَّل لأصدقائه وأقاربه أن ينصحوه بالابتعاد عن "الصَّايعة بنت التَّرزي"، فقد صار هذا هو اسمي ولقبي على لسانها وبين معارفها. كما قال "فادي" بسُخرية وثقة إن كل ما تفعله أمه لن يؤثِّر فيه، لكنه سيتحمَّل مُضايقاتها لبعض الوقت حتى يحصل على شهادته، ويعمل، ثم نُواجهها معًا. أي عمل هذا كان يصبو إليه "فادي"؟ إكمال الحواديت الناقصة، وتبديل نهايات الأساطير في سيناريوهات سينمائية؟ ليس كل جزء ناقص من حدُّوتة جديرًا بأن يُحكى، فقد كان من الأفضل أن يحتفظ "فادي" لنفسه بما لم أعرفه من كلام أمه. لم تجرحني إهانتها لشخصي ولسلوكي، بل شعرت أنها طعنتني بمقصٍّ حادٍّ حين وردت سيرة "چيمي جدو" كنقيصة تُقلِّل من شأني، وليس كتاج أتفاخر به بأنني حفيدة صاحب أتيليه ومحلات ملابس "الشوافيلي"، "جمال بك الشوافيلي"، كما كان يُناديه كل زبائنه.

أصابني خرس أمام حكاية "فادي" التي سردها ببساطة، وكُنتُ أرى فيها النهاية الحزينة لفيلم رومانسي مرح. كُنتُ مُرتبكة لأن "فادي" كان هو رفيق الروح ونصف القلب، فعدت إلى البيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

بعينين دامعتين، لاحظهما نصف القلب الآخر "چيمي جدو". وحين ألحَّ على معرفة ما بي، وهو يضع رأسي على صدره، وجدتني أختلق قصَّة له بأنني شاهدت "فادي" يمسك بيد فتاة أخرى. كان "چيمي جدو" يعرف "فادي" كصديق في الشلة، لكنه لم يكن يعرف بحكاية الحب وعهود الغرام، فحكيتها له كاملة مع تغيير نصف الحكاية الأخير مثلما يفعل "فادي" بالحواديت.

طلب منِّي "چيمي جدو" أن أتَّصل بـ"فادي"، وآخذ معه موعدًا في النادي في اليوم التالي، وهو اليوم الذي تجتمع فيه النساء مع والدته. قال "چيمي جدو" لـ"فادي" أن يستأذن والدته أن تترك النساء لخمس دقائق. نظر لي "فادي" ليفهم ما يحدث، لكنني بقيت على صمتي؛ لأنني أيضًا لم أعرف ما ينتويه "چيمي جدو"، سوى أنه سيخرجني من حدُّوتة لا أستطيع الإفلات من حبائلها بمفردي. تقدَّم "چيمي جدو" نحو طنت "هدى أباظة"، وانحنى مُسلِّمًا عليها في تأدُّب، وقال بضع كلمات، وأخذني وانصرفنا:

- "هدى" هانم، إحنا يشرَّفنا إن بنتنا "تمارا" تكون صديقة لابنك، لكن إنه يستغلّ الصداقة دي، ويطلع إشاعة إنها عايزة تتجوّزه، فأظن إن ده مايرضيش حضرتك. أرجوكي خلّيه يدّيني وعد دلوقتي حالًا إنه ما يتكلّمش أبدًا مع "تمارا".

بعد تلك الواقعة بقليل، أصدر "فادي" مجلة حائط في النادي سمَّاها "أفلاطون"، فكنت أعرف أنه ما زال يُكمل الناقص من الحكايات، وأتساءل كيف سيُكمل ما لم يعرفه عن نهاية حكايتنا. ركَّزت أنا في تلك الفترة على استلهام دوائي من الدَّاء نفسه الذي سبَّبتني به طنت "هدى"، فلم تشفِني سوى مقولات الخيَّاطين؛ "إيف سان لوران" و"كريستيان ديور"، مثل "عليك بتتبع الموضة، في الفترة التي لا تعرفين فيها مَن تكونين"، فانخرطت في شراء الكتالوجات وتنفيذ ما بها، والتسوق من المحلات الفاخرة ذات الأسعار الباهظة، ربما صادفت "فادي أباظة" يقود سيارته في الشارع، أو لاقيته في إحدى الطرقات. بدأت أشعر بالارتياح والثقة فيما أرتديه، وأن هذا حتمًا سيجلب السعادة وفق ما تقوله النظريات، لكن رائحة الياسمين التي تملأ روحي كانت توخزني

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بغُصَّة في الحلق، فتخلَّصت من كل زجاجات عطر "ميس ديور"، التي لها سُلطان على مَن يتعطَّر بها لأنها بقيت كثيرًا قريبة من قلب مَن صنعها "كريستيان ديور" نفسه. استبدلتها بـ"إستيه لودر"، و"كلوي"، و"شانيل"؛ لكنني ظللت أتوق إلى "ميس ديور"، وكف تشتبك أصابعها الكبيرة في كفِّي الصغيرة. توقَّفت عن وضع أحمر الشِّفاه، خاصة الوردي الفاقع، عملًا بمقولة إن أفضل ماكياج لوجه المرأة هو شغفها، لكنني كُنتُ قد فقدت الشغف أيضًا وشحبت بشرتي. ربما كانت هذه هي الفترة التي أرسلت فيها تيتة "نازلي" الخطـاب لطنـت "هـدى" تشـرح لـها فيـها طـيب أصـل عائلـة "الشـوافيلي"، وعـاد الخطاب لأنه لم يُستدلّ على المُرسَل إليه. تركت طنت "هدى" مسكنهم وأخذت "فادي" ليعيشا مع أخيها في أمريكا، بعدما ماتت حماتها جدَّة "فادي". علمت لاحقًا من بعض الأصدقاء أن "فادي" جُرحت كرامته بسبب ما فعله معه "چيمي جدو"، لكنه أخذ يلوم نفسه لماذا لم يكلِّمني كما وعد جَدِّي، وأصرَّ علـى أن يتبـنَّى دور الجنتلمـان الـذي يحمـي نسـاء بيتـه ويفـي بالوعود للرجال.

مـا سـاعدني قليـلًا هـو شَباب تيتـة "نازلي" فـي طنـت "هـدى" وعجرفتـها، التـي كـانت تصـفها لـها نسـاء يكـرهن طنـت "هـدى" ويسترسلن في ذلك في مُكالمات تليفونية بالساعات، لكنني لم أكره طنت "هدى"، ووضعت كل همِّي في الانخراط في أحداث تاريخية وقعت في بلاد وأزمنة بعيدة لأُناس غيري، كما شجَّعتني تيتة "نازلي" على السفر إلى لندن لعمل دبلومة الأزياء. صارت أحلامـي أكبـر من مجرد جلسة تحت شجرة مع صبي في نادٍ. تمنَّيت أن أصير مُصمِّمة أزياء عالمية، تقرأ طنت "هدى" اسمها في مجلات "فوج"، و"إل ماجازين" بعد أن تُقام لي عروض في لنـدن ورومـا وبـاريس، وأن يكـون لـي بيت أزيـاء يشـير إليـه السائحون في شوارع "الشانزليزيه"، و"أوكسفورد" و"فيا فراتينا"، لكنني فشلت حتى في إكمال مسيرة "چيمي جدو"، بعد أن باع محل وسط البلد والأتيليه والسيارة المرسيدس، وخسرنا شقة "جـاردن سيتي". شعرت أن هذا جزاءً عن ظلمي لـ"فادي" حين عبثتُ بالجزء الناقص من حكايته، ولم أبرِّر له ما فعله "چيمي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جدو" معه. أثق أن الله قد عوَّضه بتحقيق حلمه، وبحبٍ وأطفال يرعاهم كأب حقيقي. لكنني ما زلت أتوق لأن أكون مثل نهر "أراجفي" هذا الذي يشتبك مع نهر "كورا" على شكل قلب وسط حقول البنفسج.

. تعالي نربط شريط بشجرة الأمنيات ونيجي بعد أسبوع نشوف شو حصل معك. يمكن نروح "أبخازيا" ونحنا بندوّر على "أمرا" وبنلاقي صاحبك "أباظة" هاي لابس قلنسوة فرو وبالطو مُحاربين لونه أسود بأكمام طويلة لحد الركبة، ولافف ع وسطه زنار بخنجر، وعم ينط بحذاء برقبة في رقصة بطولية شركسية.

ـ إنت بتهزَّر؟ طيِّب والله طنت "هدى" كانت بتقول إنهم أصلًا شركس.

ـ بتعرفي إيش؟ أنا مرَّة أخدت طوبة من البحر الأسود هون، وحطيتها بالبحر الميت في الأردن. كُنتُ عم بتشاقى مشان أحيّر علماء الأركيولوجي.. ممكن حدا ينقلك صاحبك من أمريكا لـ"أبخازيا". لا لا، عن جد، أنا قريت ملحمة نارت تبع الأبخاز، وبعرف إن "الأباظة" شعب يعيش غالبيته على أراضي "أبخازيا" و"شيركسيا"، وأغلبهم منحدرين من اللاجئين من منطقة "القوقاز" بعد الحرب مع الإمبراطورية الروسية. وكمان بعرف إن الحكومة في "أبخازيا" هلأ عم يبعتوا لكل الناس ياللي تركوا أراضيهم بعد الحروب، وموجودين بتركيا ومصر والأردن، مشان يرجعوا ويعمروا.

ـ خلاص تعالى نروح نتفرج عليه وهو بيرقص، ونرقص معاه، وبالمرَّة ندوَّر على "أمرا".

. والله "أمرا" هاي غلبانة، صارت تصعب عليَّ وحاسس فيها، بس أنا كُنتُ متغاظ منها شويّ، مشان خلتك تفكريني وحش كاسر لما انفعلت عليها.

خلعت شريطًا كُنتُ أعقد به شعري، وربطه لي "مطيع" في جذع رفيع بشجرة الأمنيات. قال لي أن أغمض عينيَّ وأتمنَّى، فقلت له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن الشجرة قد سمعت وعرفت كل ما قلناه.

أجمل ما في "متسخيتا" أنها مثل بساط الريح الذي ينقلك في الزمان والمكان في لمح البصر. عُدنا بعد نصف ساعة إلى فندق "ميجوتيل" لأجد "ريموندا" في مكانها عند مكتب الاستقبال، وتناولني تليفوني بعد أن أعادت شحن الكارت. جلست أمامها على أريكة المدخل أعبث بقائمة رسائل "الواتساب" والإيميل، لأجد قائمة طويلة من الرسائل التي وردت منذ أيام ولم تُقرأ، رسالة على "الواتساب" من "ضيا" يخبرني فيها أنه وجد ممولًا لمشروع "تمارا تنُّورة"، ويقترح أن نطلق عليه اسم "تي تي" فهي تصلح اسمًا فرعونيًّا يلقى رواجًا إن وزعناه في دول غربية. شعرت أن الشريط الرفيع الذي ربطته عند شجرة الأمنيات قد بدأ سحره. كانت الرسالة الثانية على الماسنجر من "ألبرت" يخبرني فيها أنه سيصل إلى "تبليسي" بعد أسبوع، ويطلب منِّي عنوان الشقة أو الفندق الذي أقيم فيه. أما الرسالة الثالثة فقد كانت منه أخيرًا، القس "أندراوس". فركت عينيَّ وأغلقت التليفون وفتحته لأتأكد أنني لا أحلم. كانت الرسالة لا تزال على رأس قائمة الوارد في الإيميل، وما زالت بالتاريخ نفسه، وباسمه مثلما رأيته؛ القس "أندراوس".

أردت أن أهرع خارج الفندق لألحق بـ"مطيع" وأخبره أنني لم أكن أهزي، أو أن أصرخ وأنادي على "ريموندا" وأقول لها إنني سوف أصير مصممة أزياء عالمية، لكنني تماسكت قليلًا حتى أقرأ ما بالرسالة أولًا.

العزيزة "تمارا"،

اتمنَّى لكِ يومًا مليئًا بالفرح والسلام.

سامحيني إن كُنتُ قد تأخرت عليكِ، فقد كانت خطة الرب هي أن يرسلني إلى صلاة خاصة مع الرهبان في دير "فارديزيا". وفي طريق العودة، انقلبت الحافلة وبها كل ما يُذكّر بمخاطباتنا، فقد شاء الرب أن أصاب بارتجاج في المخ، فقدت معه الوعي والذاكرة القريبة لبضعة أسابيع. نشكر الله لأنه أعادها لى، إلا أننى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن أتمكن من القدوم إليكِ في "تبليسي" مع وجود جبيرة حول
ساقي المكسورة وتنبيه الطبيب بعدم الحركة. أهل الخير
اعادوني إلى مكان إقامتي بجوار دير "جريمي" في "كاخيتي". إن
تفضلتِ بالحضور أكون في غاية الامتنان. لست بحاجة إلى أن
اذكركِ بإحضار فردة القرط والكتاب المقدس.

محبتي، وليرعاكِ الرب..

القس "أندراوس".

8)

© CanStockPhoto.com - csp48130028

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وددتُّ أن أطوف بكل شوارع "تبليسي" أحكي للمارَّة حكايتي، وأقول لهم إن القس "أندراوس" واقع لا خيال، وأنني سأقابله بعد بضعة أيام بجوار الكنيسة والدير في "كاخيتي". بحثت عن "مطيع" عند مسرح "ريزو جابريادزة"، فلم أجده، لكنني وجدت بعض السائحين يسألون عن "الفلسطيني الذي يحكي حكايات الجدات ويغني أغنيات عربية ويرقص الدَّبكة"، فقال العاملون في المقهى المجاور للمسرح إنهم لم يروه اليوم. ذهبت إلى شقته في شارع "آجماشينيبيلي"، فوجدت البلكون مُوصدًا، وتجلس "تامريكو" فوق السور تترقَّب وصوله.

قرَّرت الاحتفال باللقاء المنتظر على طريقتي، بشراء ثوب بهيج. أعرف أن أكثر ما يليق بلقاء قس هو تلك الفساتين الواسعة التي اشتريتها من هنا، وشال عريض أضعه كحجاب مثل كل الچورچيات حين يدخلن الكنائس، لكنني أحببتُ أن أكون على طبيعتي التي كدت أنساها في المتاهة التي ابتلعتني. يكاد الطقم المعروض في الفاترينة يقول خذيني؛ تنُّورة حمراء واسعة بطيَّات عديدة، مُعلَّقة ومفرودة بوضع جانبي في الهواء، ومعها بلوزة مُنقَّطة بالأبيض والأسود، وكأنما يرقصان معًا فلامنكو سعيدًا. اشتريت قُبَّعة مُقلَّمة بالأبيض والأسود، وفي وسطها شريط عريض أحمر وتوكة ذهبية.

نصحتني "ريموندا" بأن أذهب إلى "كاخيتي" مع شركة سياحة في رحلات اليوم الواحد التي تنطلق من المدينة القديمة بـ"تبليسي"، وتستغرق ساعتين ونصف الساعة، بدلًا من الركوب مع سائق مُتهوِّر، تُوتِّرني قيادته الطائشة وتجعلني ألاقي القس في حالة نفسية بائسة. حجزت "ريموندا" الرحلة في اليوم الثاني عشر من يوليو، وهو الموعد الذي أخطرت به القس، فقال إنه سيكون في انتظاري طوال ساعات اليوم. أعدَّت لي "ريموندا"حقيبة صغيرة بها زجاجة ماء وشوكولاتة وسندوتشات، مثل طفلة تعد لها أمها علبة الغداء لرحلة مدرسية. وضعتُ الكتاب المقدس والقرط الذهبي في ركن آمن من حقيبتي، ووقفت أنتظر الباص الصغير أمام شركة السياحة في شارع "كوت أبخازي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلَّمني المُرشد السياحي التذكرة، المطبوع عليها خط السير، فاكتشفت أننا لن نتوجَّه إلى الدير مباشرة، بل سوف نمرُّ على بضعة معالم سياحية قبل الوصول. كان المرشد روسي الجنسية، ومعظم السياح الموجودين بالباص، فيما عداي أنا واثنين من اليابان. قال المُرشد إنه لن يتكلم الإنجليزية إلا حينما نصل إلى المعالم الأثرية، أما طوال الطريق، فسيتحدث بالروسية إرضاءً للأغلبية. أكاد أكون الوحيدة التائهة بملامحي الشرقية وسط هذه الجموع من الروس، الذين يتحدثون لغتهم الأصلية بأريحية ويفهمون بعضهم بعضًا، مع أنني قد أكون ابنة شرعية للمكان، وذاهبة للتعرف على جذوري.

خرجنا من "تبليسي" لنمرَّ على بيوت شبه آيلة للسقوط، وكأننا قد غادرنا الحرب العالمية للتَّوِّ. صوت المُرشد معدني بارد، ولا يكفُّ عن التحدث للسائحين الروس. لستُ شغوفة بمعلوماتك التاريخية أيها المُرشد، والتي تشير لي بلغة الصم أنك ستشرحها لي لاحقًا، فلتأخذني فقط إلى الدير، ولتسلمني إلى القس "أندراوس". يفوت الباص في طرق تَحفُّها جبال خضراء وتتخلَّلها أنهار جقَّت. أشعر بغُصَّة في الحلق، كلما تحدث المُرشد السياحي، وكأنما سيفوتني شيء سيقوله عنِّي. ليتني ما تركت نفسي كالدُّمية في يد "ريموندا"، وقمت بحجز سيارة خاصة تأخذني إلى الدير مباشرة. نعس معظم السياح، وأراحوا رؤوسهم على زجاج النوافذ، ربما لأن المُرشد يحكي حكايتي التي لا تخصُّهم.

سكت المُرشد تمامًا مع سطوع الشمس، وتخلَّل أشعَّتها الباص المارُّ وسط الجبال. تمنحني الشمس والجبال شعورًا بالأمل والاحتواء، فالقمم الجبلية المزروعة نُهود لأمهات يُرضعن صغارهن من تحت ثيابهن الخضراء. أما الأشجار العالية بطول الطريق، فتبدو كأيادي راقصات الباليه وهن يمددنها، ثم يدورن بتنُّورات من التُّل الأخضر الشفَّاف. لا تفلح محاولات إلهاء نفسي بأفكار إبداعية، فكلما هدَّأ الباص السرعة، واقتربنا من أي مبنى عتيق، ظننته الدير المقصود، فيخيب ظني حين ينطق المُرشد بالإنجليزية ويقول أسماء أخرى غير دير "جريمي". نتوقف عند

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلعة "أوجارما"، ودير "شاومتا"، وللمرَّة الأولى منذ وعيت على محبتي للتاريخ، أريد أن أسدَّ أذنيَّ عن شرح المُرشد لحروب، وهروب، وقتل، وأديرة احترقت، ومبانٍ دُمِّرت، وممالك زالت، وشعوب حلَّت محل شعوب أخرى. يدخلنا المُرشد إلى صلاة جنائزية في كنيسة تمتلئ بالنسوة المحجَّبات والرَّاهبات الغارقات في الخُمُر السوداء. تصوِّبن جميعًا نظرات نارية باتِّجاهي، حين يُحدث نعلي صوتًا يحدث نشازًا وسط الترنيم، وأشعر أنني عاهرة بتنُّورتي الحمراء وبلوزتي المُنقَّطة وذراعيَّ العاريتين. تطردني بصمت الوجوه الطويلة، والأعين الحزينة، والإضاءة المُعتمة، واللحن الجنائزي، لأخرج فأجد قسًّا شابًّا يُناولني كأسًا من دم المسيح. لستُ في حالة تسمح لي بشرب الدماء، حتى وإن كان دمًا رمزيًّا مصنوعًا من النبيذ. لا أريد أن أقابل القس "أندراوس" وأنا في هذه الحالة من الانقباض والتَّوتُّر. أسأل المُرشد كم من المعالم تبقى قبل أن نصل إلى دير "جريمي"، فيجيب بأننا أوشكنا على الوصول، ولم يتبقَ سوى صعود سور "كاخيتي" العظيم، الذي كان يحمي البلدة من الأعداء، وزيارة مدينة "تيلافي"، و"سيجناجي" مدينة الحب ببيوتها الصغيرة وبحيرتها الرومانسية، ودير "بودبي"، ورحلة تذوق النبيذ الجورجي والمرور من الأنفاق الباردة لحفظ النبيذ لعشرات السنين، ثم سنصل في النهاية إلى دير "جريمي". قطعت كل رحلات الصعود لأعالي الأديرة والمشي في النفق البارد وأنا مُتلفحة ببطانية للتَّفرُّج على زجاجات وبراميل النبيذ المحفوظة تحت الأرض، وقد بدأت أهدأ قليلًا، حين تناولت الغداء أمام بحيرة تحيط بها الجبال الشاهقة والورد زاهي الألوان. وأخيرًا، سمعت اسم المكان، فانتابني دُوار خفيف وألم في البطن كأنني مُقبلة على اختبار لم أستعد له بالمُذاكرة؛ دير وقلعة "جريمي"، وأجراس تدقُّ من برج الكنيسة، لتعمق الإحساس برهبة الموقف. تنحبس أنفاسي وتتضاعف ضربات قلبي مع كل دقَّة جرس، يرتفع صوتها، وأنا أصعد التَّلَّة وأقترب من باب الكنيسة. أتذكَّر مقولة أنه "حين يدقُّ جرس، ينبت جناح لملاك"، وأتخيَّل نفسي محفوفة بأجنحة بيضاء لملائكة صغار، لكي أهدِّئ من روعي، أسأل خادم الكنيسة الواقف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الممرِّ الحجري عن القس "أندراوس"، فيشير لي بيده نحو باب خشبي عتيق، محفور بنقوشات نباتية متكررة. تتقارب المدة الفاصلة بين كل دقَّة جرس وأخرى، ويتداخل معها حفيف خطواتي، وصوت الرياح، واهتزازات الأغصان، ثم تطمس الأصوات جميعًا طنين رنَّات الأجراس المُتسارعة فوق رأسي وبين دقَّات قلبي. أتجاوز الباب الخشبي إلى داخل الكنيسة، فيتحوَّل المشهد إلى ترانيم وصلوات هادئة بصوت ذكوري رخيم، يصلح كخلفية لَحْنية للإضاءة الخافتة، التي تلقي بنورها الهزيل على جدران الكنيسة الأثرية، ورسومات الفريسكو بأيقونات القديسين، التي تقشَّرت معظم أجزاؤها، واحتفظ ما تبقَّى على الحوائط ببقايا ألوان زاهية. لم يكن بالكنيسة سوى فتاة تُغطِّي شعرها وتُصلِّي في تبتل، فاقتربت ممن أظنه القس "أندراوس"؛ لأن خادم الكنيسة أشار نحوه. كُنتُ قد رسمت له بضعة أشكال في خيالي، فقد تصوَّرته طاعنًا في العُمر، ممتلئ القوام، له شعر أسود كثيف، ولحية غير مُهذَّبة. وفي صورة أخرى، تخيَّلته ذا شعر فضي، وبشرة باهتة، وتجاعيد متعددة. آخر ما كُنتُ أتصوَّره أن يكون القس "أندراوس" شابًّا بهذه الوسامة، فقد كان مليح الوجه، أشقر الشعر، يعقده في ذيل حصان، لعينيه زُرقة صافية، ولبشرته لون وردي فاتح، تتوافق مع شفتيه بلون حبات الفراولة. أشفقت على الفتيات والنساء اللاتي يجئن للاعتراف أمامه، فقد يجئن شاكيات من ذنب خفيف، ليعُدن محملات بشعور عميق بالإثم بعد أن يرين حُسنه ويشتهينه. وأشفق على نفسي مقدمًا، حين يتبادل معي أطراف الحديث، الذي أظنني لن أقوى على ترتيب جملة مُكتملة فيه.

أراه بوضع جانبي، لكنه أدار وجهه نحوي فور انتهائه من الصلوات، وكأنما كان يشعر بأنفاس غير مألوفة داخل فضاء الكنيسة. تكلَّم "أندراوس" مُرحِّبًا بي، فحمدت الله أنه ليس لصوته ولكنته الإنجليزية الثقيلة الحلاوة نفسها لوجهه ورديائه الأزرق المُذهب. خرجنا من الكنيسة، وهو يستند إلى عصا، فتذكَّرت أن ثوبه الطويل يخفي جبيرة ساقه المكسورة. يساعده خادم الكنيسة في الجلوس على حجر فوق تلَّة مرتفعة تطلُّ على

91%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدينة "جريمي". أؤثر الصمت وأمنحه انطباعًا بأنني جئت فقط لأستمع، فهو يعرف عنِّي ربما أكثر مما أعرفه عن نفسي، فضلًا عن الإيميلات العديدة التي أرسلتها له على مدار أكثر من شهر وبها من التَّهوُّر وقلَّة الذوق ما يستحق الاعتذار. لكنه هو مَن بادرني بالاعتذار عن عدم مقدرته في أن يأخذني في جولة بداخل الدير والكنيسة والقلعة نظرًا لسوء حالة ساقه.

أشار إلى القلعة الملكية الأثرية والكنيسة بعصاه، وقال لي إن تلك المباني صامدة من القرن السادس عشر. سرح في الجبال والحقول المنبسطة حولنا وقال إن "جريمي" كانت عاصمة مملكة "كاخيتي"، التي أنشأها الملك "ليفان"، وقد كانت مدينة مُزدهرة وغنيَّة بالتجارة، حيث كان يمرُّ منها "طريق الحرير". هل سيُعطيني هذا القس درسًا في التاريخ، أو يُعيد سرد المكتوب في المواقع الإلكترونية؟ وفجأة، ذكر اسمي فانتبهت، قال:

- "تمار".. كان اسمها "تمار"، فتاة جميلة، وابنة أحد أكبر تجار الحرير والأقمشة في "كاخيتي". كانت معشوقة والدها وفتاته المُدلَّلة، فلم تطلب شيئًا إلا واستجاب على الفور، إلى أن طلبت أمرًا لم يستطع أن يرضخ له. كانت "تمار" تعشق شابًّا مليحًا مُتديِّنًا من أسرة فقيرة لا تليق بنسب عائلتها. كانا يهيمان ببعضهما بعضًا منذ الطفولة، حتى بعد أن صارت له مكانة دينية لم يقبل به والدها زوجًا لابنته، فقد أصبح قسًّا بهذه الكنيسة. كان حبهما عُذريًّا لا يغضب الله، وكانا ينتويان أن يربطهما رباط مقدس أبدي بعد أن ينالا مباركة أبيها وأهلها. كانت "تمار" في سنوات المُراهقة تتسلَّل نهارًا بصُحبة خادمتها، وتُقابل "أوتار"، الذي صار اسمه الكنسي فيما بعد القس "أندراوس"؛ جَدِّي الأكبر. كانت تتكبَّد مشقَّة كبيرة بملابسها الثقيلة في الصعود إلى البُرج، أو في النزول إلى قبو النبيذ، أو عند النفق السِّرِّي المُؤدِّي إلى نهر "إنتسوبي".

لم يتَّفق الحبيب والأب سوى على أمر واحد حطَّم قلب "تمار"، فحين أرسلت له رسالة مع خادمتها تبلغه بأنها تفتقده وترغب في رؤيته، أرسل لها ورقة مكتوبًا عليها آية من سفر رؤيا "يوحنا"

26 دقيقة متبقية من «تمار» 92%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللاهوتي "كن أمينًا إلى الموت، فسأعطيك إكليل الحياة". شعرت "تمـار" بالإهانـة لعـدم اسـتجابة "أنـدراوس" لرغبتـها فـي لقائـه، واستجابت لطلب والدها في أن يرسلها مع القافلة المُسافرة إلى مصر، تحت رعاية خالها وابنه. شعر "أندراوس" أنه قد أخطأ في حق العهد الذي قطعاه معًا بألا يسمحا لأحد أو لشيء أن يفرقهما، فطلب أن يقابلها ولو مرَّةً واحدة ها هنا، عند الحجر الذي نجلس فوقه الآن. كانت القافلة تستعد للرحيل، وكان "أندراوس" يهم بأن يجدد العهد مع "تمار" ويعدها بأنه لن يخذلها ثانية حين تعود من مصـــر. لكـن الخادمـة أخـذت تصـيح وتسـتعجلها لأن القافلـة سـتتحرَّك، والجميع يبحثـون عنـها. خلعـت "تمـار" فردة قرطها، وأعطتها سريعًا لـ"أندراوس"، ولم يجد تحت يده سوى إنجيل الكنيسة ليمنحه لها، وليحفظها في طريق سفرها الطويل، وقال لـها عـودي لكـي تردِّي الأمانة الغاليـة. حطَّت القافلة رحالها فـي وكالة "الغوري" في القاهرة، في الوقت نفسه الذي أغارت فيه قـوات الشـاه "عبـاس الأول" الفارسـي علـى "كـاخيتي"، ودكَّت المدينة بالكامل. كان هذا في عام 1615 حين وصلت أخبار الدمار الـذي حـلَّ بالبلـد إلـى "تمـار"، وابن خالها، فقد مات خالها أثناء الرحلة ودُفن في الصحراء.

قاطع خادم الكنيسة القس "أندراوس"، وأعطاه الدواء وكوب ماء، ثـم وضـع أمـامي صـينية عليـها عصـائر، ومـاء بـارد، وشـرائح "خاتشـابوري" بـالجبن. أشـار لـي القس "أندراوس" بأن تفضَّلي، وأكمل حكايته:

- كـانت القوافـل تحمـل الأقمشـة الحريريـة التـي تنتجها مدينة "يـونن" فـي الصين، التـي تخصص منتجاتها للتصدير إلى مصر خلال حكم الشركس، من تسمُّونهم أنتم "المماليك". وكانت هذه المنسوجات تُطرَّز برسومات تمثل التنين وطائر العنقاء، جنبًا إلى جنـب مـع نصـوص عربيـة كتبت بخط رائع وبديع. ونظرًا لدقَّة صـناعتها وروعـة تشـكيلاتها وزخارفـها، اكتسـبت المنسـوجات والأقمشـة المصـنوعة فـي مصـر شُهـرة واسعة فـي أسـواق دول البحر المتوسط. وقد كانت عائلة "إيلشوفيللي" والد "تمار"، وأسرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"أبولادزة" والد "زكريا" ابن خالها، من أكبر العائلات التي تخرج في قوافل نقل الأقمشة والمنسوجات عبر "طريق الحرير".

لما علم الأهالي بالأزهر والغورية بما حدث في بلدة ضيوفهم التجار، سمحوا لهم بأن تطول إقامتهم بالوكالة، فقد كان في طوابقها الثلاثة العلوية تسعة وعشرون منزلًا، وتركوهم يُخزِّنون بضاعتهم في الطابقين الأول والثاني لأجل غير مسمى، وساعدوهم على إيجاد محل تجاري صغير يصرفون فيه بضائع الآخرين، حتى يشتد عودهم ويُعاودوا السفر في القوافل، أو يعودوا سالمين إلى بلادهم. أسرت مُعاملة الأهالي المصريين قلوب "تمار" وابن خالها "زكريا"، إلا أنهما لم يرغبا في أن يذوبا تمامًا وتضيع هويتهما الجورجية، بعد أن دخلا راضيين في الإسلام، فتزوجا وقرَّرا أن يُعطيا اسميهما معًا لذريتهما؛ "إيلشوفيللي" و"أبولادزة"، التي تحوَّلت وتمصَّرت على مرِّ الأزمان إلى "الشوافيلي" و"أبو لاسة". وأوصت "تمار" بأن تسمي الابنة الكبرى من ذريتها "تمار"، وأن تحتفظ بفردة القرط والإنجيل، لسببٍ مجهول، لم يعلمه حتى "زكريا" ابن خالها الذي تزوَّجته.

لم ينم إلى علم "تمار" أن المكان الوحيد الذي لم يدمر في "كاخيتي" وقت هجوم الشاه "عباس" هو قلعة وكنيسة ودير "جريمي"، حيث كان القس "أندراوس" يؤدي الصلوات ويدعو لـ"تمار" بسلامة العودة. كانت خادمتها "ماريام" قد صعدت أيضًا إلى الكنيسة لتشاهد القس "أندراوس" عن بُعد، فقد كانت تحبه حبًّا صامتًا، وكانت هي مَن أقنعت "تمار" بالرحيل. ولما هجمت الجيوش ودُكَّت المدينة ووجد "أندراوس" خادمة "تمار" تؤدي الصلاة خلفه، أخذها وهربا من النفق السِّرِّي المُؤدِّي إلى نهر "إنتسوبي". شهدا معًا أيامًا عصيبة، هونتها عليه "ماريام" بحبها ورعايتها. كان شقيق "ماريام" يعمل خادمًا في القافلة التي سافرت فيها "تمار" و"زكريا"، وكان يراسل شقيقته ويعلم أن الدير و"أندراوس" لم يهلكا مثلما هلكت القرية. لكن أخته توسَّلت إليه بألا يبوح بهذا الأمر، وبأن ينقل للقافلة خبر الدمار الكُلِّي فحسب. ظلَّت "ماريام" تراسل أخيها وعلمت بأمر زواج "تمار" الذي نقلته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فـي ابتـهاج للقس "أندراوس"، وأقنعته بأنهما يجب أن يتزوجا وينجبـا ذريـة تعمـر الأرض التـي خربـها الأعـداء، فتزوجـها "أندراوس" كنوع من الامتنان ورد الجميل، وأنجبا ولدًا. لم تنعم "ماريام" بالحب والنظرات الحانية التي كانت ترى "أندراوس" يبثها لـ"تمار"، بل إنها من كثرة ما وقفت خلفه في الصلوات، فقدت سلامها الداخلي، لا لعيب في الصلوات، بل لأنه كان يردد آية "حيث دودهم لا يموت"، ويشرح لها أن هذا الدود هو الضمير المُوبِّخ، الذي يظل يُبكِّت الخُطاة في عذاب الحياة المُزمعة. وذات صـحوة كاملة لضمير "ماريام"، اعترفت لـ"أندراوس" بخطتها للتفريق بينه وبين "تمار"، والتي خدمتها فيها الظروف. لم يُوبِّخ "أنـدراوس" زوجتـه "مـاريام"، فيكفيها الدود الذي ينخر في عظامها. شدَّ رحاله وصعد إلى الدير، وكتب نسخًا عدَّة من الحكاية كاملة، على هيئة وصية لذريته، بأنه لن يرقد في سلام، ولن يكون جديرًا برفقة القديسين أو بشفاعة الملائكة، لأنه قد وقع في الخطيَّة وفرَّط في كتاب مقدس نقشت حروفه بماء الذهب، في لحظة إظلام للعقل وإلهاب للعواطف، وأن هذا الكتاب المقدس موجود في مصر مع امرأة تُدعى "تمار"، ومعه فردة قرط ذهبية، ***"أمين هو الله"***.. ***"عيناي على أمناء الأرض لكي أجلسهم معي" (مز 6:101)*** أعيدوا للمرأة أو لذريتها فردة قرطها، واسترجعوا الكتاب المقدس، وضعوه حيث ينتمي، حتى ولو بعد حين ***"لأن السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول" (مز 31:13)***.

مات "أندراوس" راهبًا، ذا ذرية شحيحة، منهم مَن قرأ الوصية واعتبرها حكاية للتندُّر، ومنهم مَن رأى أن جدَّهم الأكبر استحقَّ الحرمان من الملكوت والفرح، لتفريطه في الأمانة ووقوعه في الخطيَّة، ومنهم مَن تجاهل أو تكاسل لصعوبة المسألة وبُعد المسافات. أما أنا فقد تصادف أن عندي ولعًا بدراسة المخطوطات ودورها في تغيير التاريخ، فضلًا عن إيماني بأن يسوع المسيح لم يأتِ ليؤسس لديانة، إنما تجسَّد ليصنع الخلاص للإنسان. وقد كُنتُ أكثر عشيرتي حظًّا، لأنني أتيت في زمن يسهل فيه تتبُّع الآثار، وهي سُبل وفَّرها لنا الرب لنساعد أنفسنا وغيرنا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فـي ابتـهاج للقس "أندراوس"، وأقنعته بأنهما يجب أن يتزوجا وينجبـا ذريـة تعمـر الأرض التـي خربـها الأعـداء، فتزوجـها "أندراوس" كنوع من الامتنان ورد الجميل، وأنجبا ولدًا. لم تنعم "ماريام" بالحب والنظرات الحانية التي كانت ترى "أندراوس" يبثها لـ"تمار"، بل إنها من كثرة ما وقفت خلفه في الصلوات، فقدت سلامها الداخلي، لا لعيب في الصلوات، بل لأنه كان يردد آية "حيث دودهم لا يموت"، ويشرح لها أن هذا الدود هو الضمير المُوبِّخ، الذي يظل يُبكِّت الخُطاة في عذاب الحياة المُزمعة. وذات صـحوة كاملة لضمير "ماريام"، اعترفت لـ"أندراوس" بخطتها للتفريق بينه وبين "تمار"، والتي خدمتها فيها الظروف. لم يُوبِّخ "أنـدراوس" زوجتـه "مـاريام"، فيكفيها الدود الذي ينخر في عظامها. شدَّ رحاله وصعد إلى الدير، وكتب نسخًا عدَّة من الحكاية كاملة، على هيئة وصية لذريته، بأنه لن يرقد في سلام، ولن يكون جديرًا برفقة القديسين أو بشفاعة الملائكة، لأنه قد وقع في الخطيَّة وفرَّط في كتاب مقدس نقشت حروفه بماء الذهب، في لحظة إظلام للعقل وإلهاب للعواطف، وأن هذا الكتاب المقدس موجود في مصر مع امرأة تُدعى "تمار"، ومعه فردة قرط ذهبية، ***"أمين هو الله"***.. ***"عيناي على أمناء الأرض لكي أجلسهم معي" (مز 6:101)*** أعيدوا للمرأة أو لذريتها فردة قرطها، واسترجعوا الكتاب المقدس، وضعوه حيث ينتمي، حتى ولو بعد حين ***"لأن السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول" (مز 31:13)***.

مات "أندراوس" راهبًا، ذا ذرية شحيحة، منهم مَن قرأ الوصية واعتبرها حكاية للتندُّر، ومنهم مَن رأى أن جدَّهم الأكبر استحقَّ الحرمان من الملكوت والفرح، لتفريطه في الأمانة ووقوعه في الخطيَّة، ومنهم مَن تجاهل أو تكاسل لصعوبة المسألة وبُعد المسافات. أما أنا فقد تصادف أن عندي ولعًا بدراسة المخطوطات ودورها في تغيير التاريخ، فضلًا عن إيماني بأن يسوع المسيح لم يأتِ ليؤسس لديانة، إنما تجسَّد ليصنع الخلاص للإنسان. وقد كُنتُ أكثر عشيرتي حظًّا، لأنني أتيت في زمن يسهل فيه تتبُّع الآثار، وهي سُبل وفَّرها لنا الرب لنساعد أنفسنا وغيرنا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخلاص. أعرف أن وقتكِ محدود، وأنه يجب أن تعودي إلى "تبليسي" قبل حلول الليل.

أخرج القس "أندراوس" من جيبه كيسًا من القطيفة عليه صليب، ثم أخرج منه فردة قرط نسخة طبق الأصل من التي معي، فيما عدا أن التي معه لامعة برَّاقة كالجديدة تمامًا، أما التي بحوزتي، فمتكسِّرة بعض حوافِّها، وبداخل نقوشاتها نقر سوداء كالصدأ المكين. سلمني "أندراوس" فردة قرط "تمار" الأصلية، وسلَّمته كالمُنوَّمة مغناطيسيًّا الكتاب المقدس الذي سيجعل جدَّه يرقد في سلام، وينعم في الفردوس.

لا تكفي عدد شهقات الكون مدى الاستغراب الذي اعتراني لأنني صرت بطلة في حكاية تاريخية، أشبه ما تكون بحواديت ألف ليلة وليلة. حكاية تُحيِّر أعتى المؤرخين، مثلما أراد "مطيع" أن يُحيِّر علماء البحار حين نقل الطوبة من البحر الأسود ووضعها في البحر الميت، لكن المُدهش لم يأتِ بعد، فقد هممت بشكر القس على جُهده وحُسن ضيافته، فاستوقفني وقال إنه لم ينتهِ بعد.

- حين بدأت التنقيب عن "إيلشوفيللي" أو "أبولادزة"، راسلت كل مَن يمتُّ اسمه من قريب أو بعيد لهذين اللقبين، حتى عثرت على "جمال أبو لاسة الشوافيلي". أطلعني على حالته الصحية الآخذة في التدهور، وأنه يُريد أن يُؤمِّن مستقبل حفيدته "تمار"، وأن يحقق لها حلمًا باقتناء محل للأزياء، يشاهده السائحون ويشيرون إلى روعة ما ابتكره خيال صاحبته، فباع كل ممتلكاته التي لم تعد تُدرُّ ربحًا، وكلَّفني بشراء محل أنيق في شارع "شاردان" السياحي بالمدينة القديمة بـ"تبليسي"، فلا بد أن روح "تمار" الأم الكبرى ستكون أكثر حنانًا عليها من لو صار لها دكَّان صغير وسط وحوش الموضة في باريس أو نيويورك، وها هو عقد المحل الذي وقَّعته نيابة عنكِ، لا ينقصنا سوى إجراءات بسيطة لنقل الملكية. 19 شارع "شاردان"، "تبليسي".

أفتِّح عينيَّ في سريري بفندق "ميجوتيل" مع أول زقزقة عصفور،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[redacted]

وكلي يقين بأن ما حدث في "كاخيتي" بالأمس ولقائي بالقس كان أضغاث أحلام. أدسُّ يدي تحت المخدَّة لأتأكد من وجود الكيس القطيفي وفردتي القرط التوأمتين اللتين تشبهانني أنا و"تُقى"، فأجدهما ترقدان بداخله في سلام. أقفز من الفراش وأفتح حقيبتي، لأجد عقد المحل لا يزال مطويًا بعناية في ملف شفَّاف.

أنزل لتناول الإفطار في المطعم، فأجد البنات يتداولن خبرًا تم نشره على الإنترنت بأن البركة قد حلَّت، وما زالت المعجزات تتحقق في عيد "سفيتيتسوفيلي" الذي يأتيه الحجاج من كل صوب وحدب في الثالث عشر من يوليو، فقد وجد القساوسة في دير "جريمي" بـ"كاخيتي" صباح اليوم إنجيلًا أثريًا من القرن السادس عشر كان ينتمي للكنيسة قبل أن تُدمَّر البلدة، مكتوبة حروفه بماء الذهب، ومُزيَّن بأيقونات مُقدَّسة، ولم يتقرر بعد إن كانوا سيبقونه في متحف الدير بـ"جريمي"، أو سينتقل في احتفال خاص إلى متحف المخطوطات الأثرية في "تبليسي".

عاهدت القس "أندراوس" أمس أن أحفظ سرَّ جدِّه، فالسر في المسيحية لا يشير إلى واقع غامض، بل إلى المشروع الخلاصي، الذي كان مُستترًا في الله منذ خلق العالم، وقد ظهر في يسوع المسيح، ولذا فالسر هو رفيق الحقيقة. أتناول القهوة في صمت وأنا أفكِّر في كتابة وصية خاصة بالأمانة الثقيلة التي صارت في حوزتي؛ فردتي القرط التوأمتين المُتنافرتين اللتين لا تُقدَّران بمال. هل أمنح "تُقى" فردة وأحتفظ بالأخرى، أم أهب فردة للمتحف الوطني في چورچيا والفردة الأخرى للمتحف المصري الجديد؟ ذهبت "تمار إيلشوفيللي" إلى مصر قهرًا واضطرارًا، وذابت في أهلها واحتواها دفئهم، فبقيت معهم، لكنها لم تستطع العودة إلى ديارها لأنها لم يعد لها أهل ولا دار.

أما أنا "تمار الشوافيلي" فجئت إلى چورچيا غير مُخيَّرة أيضًا، لكنني سأبقى وأعيش على أرض تحمل بعضًا من جيناتي، ومع ذلك سأعود إلى شقة الدرب، وأصنع منها بؤرة للجمال والأصالة. سأجعلها بيتًا للحواديت، يضم كل مَن تقلَّب أجدادهم في بلاد الله، وأنجبوا أبناء للكون كله. سأحكى لماذا لاحظ الرَّسَّامون

94%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العظماء في عصر النهضة ولع واعتزاز الأمراء والنبلاء بالثياب المزخرفة بالخط العربي، حتى إن القساوسة كانوا يرتدونها ويحتفظون بها في خزانات الكنائس، فرسم الفنانون لوحات للعذراء والقديسين يرتدون أوشحة وملابس عليها نقوشات عربية. سأقول إن العصر المملوكي لم ينتج سفَّاحين وقتلة يُدبِّرون المكايد للاستيلاء على العروش، فقد كان بينهم صانعو منسوجات وأقمشة في مصر وبلاد العرب، مثل "الدمسق"، و"الفوشة"، و"الكشمير"، و"الموصلين"، و"التفتة"، حتى إن أسماءها العربية دخلت في اللغة الإنجليزية. لن أذيع سرَّ القرط والإنجيل، بل سأروي سيرة القوافل المُحمَّلة بالمنسوجات ذات التشكيلات الإبداعية التي استخدمت أحيانًا الأمثلة الشعبية والدعوات بالأمن والبركات، لتصير حلقة وصل بين الهند والصين و"القوقاز" ومصر والشام وأوروبا على طريق حريري ناعم كبساط الريح. وقد لا أكتب وصية وأحتفظ بفردتي القرط لنفسي، وأتزيَّن بهما على حالهما؛ لأن إحداهما التي احتفظ بها القس العاشق وحافظ عليها تُمثِّل الحب، أما الأخرى التي تهالكت وتناقلتها الأجيال في أسرتنا، فتُمثِّل الحياة. لن أعطي أيًّا منهما لـ"تُقى"؛ لأن "تُقى" لا تحب الحب ولا الحياة. لن أخلع فردتي القرط من أذنيَّ ليجلبا لي حبًّا أبديًّا خالدًا، وسأحتفل الآن وفورًا مع كل مَن شاركوني أيامي. سأذهب إلى شركة السياحة، وأنظم رحلة على نفقتي أدعو فيها "مطيع"، و"ريموندا"، و"أمجد"، و"أمينات"، والعاملات بـ"ميجوتيل"، و"ألبرت" الذي سيصل إلى "تبليسي" بعد يومين، وربما دعوت "ضيا" و"سهر"؛ ليقوما بتنسيق المحل الجديد معي. سنذهب إلى "متسخيتا"، ونعلق مزيدًا من الشرائط الحريرية على شجرة الأمنيات، أو نشدُّ الرحال إلى "سوخومي" في "أبخازيا"، وربما عثرنا على"أمرا" وهي تُحاول أن تمرق إلى بلدتها "جالي"، فنحتويها في الفوج الكبير الذي يضمُّنا ونحقق لها أمنية طال انتظارها.

سأخلع الشريط القطيفي الأسود ذا الحلية الذهبية ماركة "شانيل" الذي أعقد به شعري وأحرِّر خصلاتي ليتخلَّلها الهواء، لكنني لن أتخلَّى عنه، فسوف أرتديه مثل سُوار أو حظَّاظة في معصمي،

95%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفاءً لفترة حبيبة من حياتي. وسآكل "الخاتشابوري" بالزبد السائح، و"الخينكالي" الشهي في نهاية كل أسبوع، فلا بأس من بضعة كيلوهات زائدة تستجلب هرمونات السعادة، خاصة أنه يمكن مُداراتها بالفساتين الواسعة التي ترتديها الأمهات في چورچيا، وصارت موضة يتباهى بها مصممو الأزياء.

أخطط لحجز باص كامل، ورحلة لسبعة أيام في "أبخازيا" نمارس فيها مُتعة الصيد، وركوب الزوارق بالبحر الأسود، ونُعالج ما تلف من عضلاتنا، ونُدلِّل عظامنا بالمياه المعدنية في المنتجعات العلاجية، ثم ننطلق منها إلى قرية "جالي" للبحث وللاطمئنان على "أمرا".

أقف في طابور صغير بشركة "أدفنتشر تورز" للسياحة، لتنظيم الرحلة المفاجأة لأفراد عائلتي الجديدة في "تبليسي"، وتُراودني أحلام يقظة سعيدة بوقع المفاجأة على وجوههم. لم يتبقَّ سوى خطوة واحدة ويتحقق الحلم، حين ينتهي الرجل الضخم الذي يتقدَّمني من إنهاء إجراءاته، هو والمرأة التي تُرافقه وتجلس على كرسي متحرك.

تسأله موظفة الاستقبال عن اسمه واسم والدته المريضة، فيرد بصوت خفيض مألوف:

- مدام "هدى أبو بكر" و"فادي أباظة".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القاهرة

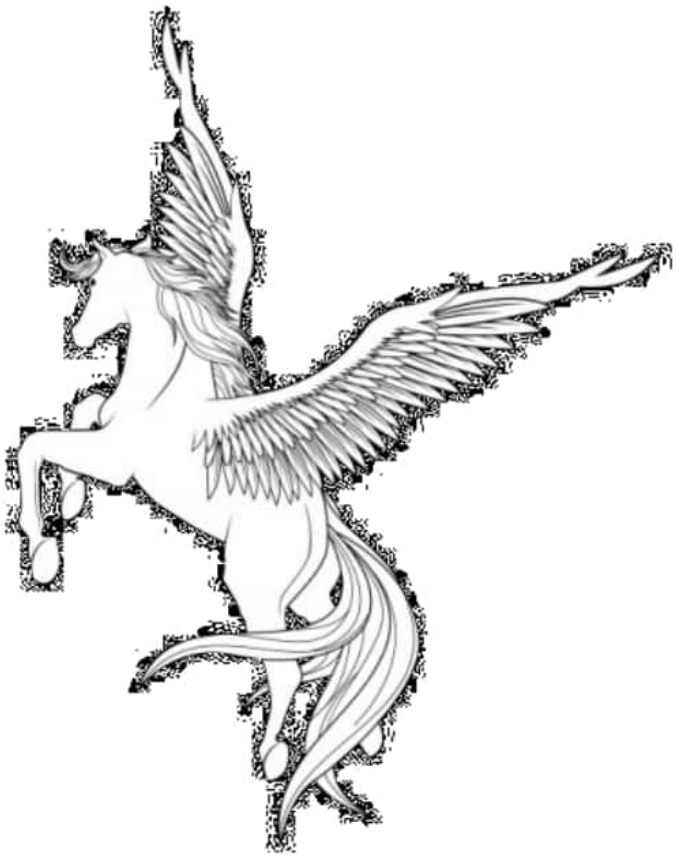

"ثُقى"

هـل يُفتـرض بـي أن أصـفِّق، أم أزغـرد لنـهاية حـدُّوتة "تمـارا" المفتوحـة علـى الاحتمالات السعيدة؟ أم يجب أن أمضي الليل ساهرةً لأفكِّر معها، أيٌّ من رجالها يصلح أكثر كفارس لأحلامها؟ "ضيا" رفيق الطفولة، أم "فادي" حبيب المُراهقة، أم "شادي" مُحرِّك أنوثتها، أم "ألبرت" الإنجليزي، أم "مطيع" الفلسطيني، ولِمَ لا يكون القـس "أنـدراوس" الجورجـي؟ فلقـد فُتنـتْ بـه أوَّل مـا رأتـه، وتعاطفتْ مع قلوب النساء اللاتي يذهبن للاعتراف عنده، وفقًا لما ذكرته في يوميَّاتها التي ترسلها لي وقت حدوثها، أو تحكيها لـي وجـهًا لوجـه على شاشة التليفون في مُكالمات الفيـديو. لو فعلتها "تمارا"، لن يقولوا مسلمة أحبَّت قسًّا، بل سيعتبرونها قصَّة غرام خالدة، وربما نصبوا لها تمثالًا مثل تمثال "علي" و"نينو"، ولصارت "كـاخيتي" بسببهما مـدينة الحـب، ولأصبح اسم ديـر "حريمي" "دير العاشقين". أما أنا، حين كُنتُ صغيرة في الحادية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحنوط الذي جلبه "عاطف" شقيق "ميراي" صديقتي من الكنيسة، وتطيَّبتُ به؛ لأنه يُشبه رائحة الياسمين، أو حين أعجبتني مع "ميراي" صورة الفارس "مارجرجس"، الذي يركب الحصان ويقتل الوحش بشجاعة، فضَبطتُها تيتة في كرَّاستي، وكانت ليلة سوداء.

أفضل ما يليق بفرحة "تمارا" هو ثوب أبيض مُكوَّن من خمس طبقات، قميص، وإزار، وخمار، ولفافة، وخرقة تُربط فوق ثدييها، وقطع صغيرة من القطن تُوضع في أذنيها. نعم، أعلم أن هذا ليس فستان زفاف؛ بل كفن، وأي فارق بين الزواج والموت؟ يصبح الزواج موتًا مزدوجًا حين يموت الحب في قلب مَن تعشقه المرأة، ثم حين يهجرها إلى غيرها، مثلما فعل زوجي "علاء المصري". احترتُ كيف ظلَّ يُعايرني ببدانتي وشرهي للطعام، لكي يرسلني إلى منتجع بعيد كالذي شهد لقاءنا الأوَّل، ولأعود وأجده يغطُّ في نوم مُريح على فراشي في أحضان أخرى، ذات وزن ثقيل أيضًا. أردتُ أن أُعرِّفه أضرار البدانة على حق، فجلست بكل ثقلي فوق صدره وهو متمدِّد على ظهره، ووضعت المخدَّة فوق رأسه، فسمع الجيران استغاثات المرأة الأخرى، وأبلغوا الشرطة ونقلوني إلى مصحَّة نفسية كالمنتجع، أعطوني فيها عقاقير كثيرة وحُقنًا ليلية ونهارية، وأجلسوني في حديقة، وألبسوني زيًّا مُوحَّدًا باللون الأبيض.

أخذت روحي تهيم في سماء الرُّؤى، لم تكن خيالاتٍ وأطيافًا كالتي نشاهدها في المنامات، بل رُؤى يقظة أراها بحواسّ قلبي، ويحادثني فيها الأحباب والأولياء وأصحاب الكرامات. رأيت "ميراي" صديقتي على هيئة طيف يمرُّ في صمت، وشممت زيتًا مُعطَّرًا يُناولني إياه "عاطف" أخوها، وسمعت سِتِّي "أم إدريس" تُلقِّنني دروسًا كالنفحات والعطايا الرَّبَّانية. قالت لي سِتِّي "أم إدريس" إنه لا سكينة للنفس والروح إلا في الصمت والزهد؛ صمت اللسان عن الكلام، وصمت القلب عن الخواطر. نفَّذت وصاياها راضية، وصرت هادئة ليِّنة بعد شهر أو شهرين، فتسلَّمني خالي "عادل"، الذي قلت له بهدوء إنني شُفيت وتعافيت، وأريد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن أترك ألمانيا لأنني أشتاق للعودة إلى البيت، فأرسلني تحت التوسُّل والإلحاح إلى شقتنا بـ"الدرب الأحمر".

أي مكان أفضل من البلكون المُطلِّ على الباحة، بزقزقة العصافير، وهديل اليمام، ورفرفة أجنحة الحمام، وحفيف أوراق الشجر، للتخلص من الوساوس والهواجس الشيطانية، فلم تعد نفسي الأمَّارة بالسوء تتحكَّم فيَّ، وتطالبني بمطالبها من الطعام والشراب والنكاح. صرت مفتونة بالرُّؤى والمنامات التي تُؤانسني فيها سِتِّي "أم إدريس"، ولما كانت تغيب لبضعة أيام عن التحليق فوق فراشي، كُنتُ أذهب إلى غرفتها في القرافة، فأجدها جالسة على سريرها كالبدر المنير، تتجمَّل بالجمال اليوسفي الروحاني، وليس الجمال الطيني مثل سائر البشر، فتنعم بمجالستها نفسي، وأعود إلى غرفتي راضية مرضية. لم أعد أقرب البلكون أبدًا لأنني تخلصت من الأهواء الإبليسية، التي تدعو المرء للشُّهرة وحب الظهور. أسمع خبطًا على الباب ورنينًا متواصلًا على جرس الشقة، وأصوات "وديدة" و"مأمون" يكرِّران اسمي لبضعة أيام. ولولا أن "ميراي" هي التي نقرت على الباب في المرَّة الأخيرة ونادتني بصوت هادئ، ما كُنتُ لأسمح لغيرها بالدخول، ومشاركتي خلوتي الأثيرة.

أجمل ما في "ميراي" أنها لا تحاول أن تثنيني عن طريق أسلكه، أو تسخر منِّي حين أحاول الارتقاء في المقامات، فهي تعرف أنني و"تمارا" قد وُلدنا في ليلة الإسراء والمعراج، وقد نلت أنا نصيبًا من الخصوصية، وصار لي معراج كشفي. كُنتُ أعرف أن "شادي عبد الهادي" شر، وأن "فادي أباظة" خنوع، وأن "ضيا" لعوب، وأن "ألبرت" الإنجليزي مضطرب، وأن "مطيع" اقترب أجله. كما أريد أن أحذر "تمارا" أن ما هي مقبلة عليه كرمز للحياة، فهو نذير شؤم بالنسبة لامرأة بمواصفاتها، فهي تُشبه مشروعها "تمارا تتُّورة" بتتُّورة الصوفي، وكأنها لا تعلم أن الصوفي يلبس الأبيض كرمز للكفن، والأسود رمز الموت، والقلنسوة اللباد رمز شاهد القبر، والدورات الثلاث في ساحة الرقص هي مراحل التقرب إلى اللّٰه؛ العلم والرؤية والوصال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين أرادت سِتِّي "أم إدريس" أن تُحبِّبني في الصلاة، قالت لي إنني سأستطيع أن أمتطي حصانًا أبيضَ له أجنحة لو أدَّيت الصلوات الخمس. فالصلاة شكل من أشكال الإسراء والمعراج؛ مقام الوقوف يساوي الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، والركوب فيها البراق. ومقام الركوع هو المعراج، وهو رحلة الارتقاء من عالم الأرض إلى عالم السماء. أما مقام السجود، فهو دنو "جبريل" عليه السلام. لهذا صرت أحرص على الخشوع في صلواتي، خاصة حين أنصت في مقام السجود إلى الإلهامات التي يرسلها لي سيدنا "جبريل"، وقد دنا بروحه القُدُس ليلة أمس، وأوحى لي بأن أحسن الوضوء لصلاة العشاء، حيث سيلوح لي براق عند نافذتي مثلما ظهر لـ"تمارا"، سأمتطيه وأعرج إلى غرفتها في "تبليسي" في لمحة برق. ستكون ساجدة في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء، وبجوارها مقص ذهبي كبير، ستقوم بتصويره وتجعله شعارًا لحُلمها، مثلما أوصاها جدها "جمال الشوافيلي". ولأن "تمارا" هي نصفي الذي يثقل روحي ويشدُّها إلى ظلمات الأرض، ويحجب عنِّي صفتي الرؤية والوصال. حدثني الصوت بأنك جئت إلى هذا العالم دون أن تتركي أثرًا أو تنقذي بشرًا. فلتمسك يدك الطاهرة ذلك المقص الذهبي اللامع ولتغرسه في قلب الشهوة الأرضية الراسخة في نفس "تمارا" لتتخفف من المفاسد والشبهات. سيكون البراق بانتظاركما، اركباه وحلِّقا معًا في مقامات المُريدين المحبوبين، وانعما بكرم إلهي يُنير القلوب ويفتحها لحضرة علام الغيوب.

(20)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ميراي"

لم أتخيَّل أنني سأكون مطلوبة للشهادة، وتحاصرني الاتهامات في قضية قتل في يوم من الأيام، وأن أقف أمام ضابط مباحث لا يقول لي سين وجيم، بل يشعل سيجارة ويقول لي: "إحكي لي كل ما تعرفينه عن المجني عليها".

فتحت باب غرفة "تُقى" في المصحَّة التي تطوَّعت للعمل بها مُمرِّضة لأضع لها صينية الإفطار وجرعتها من الأدوية والحقن المُهدِّئة. لم تكن "تُقى" مجرد مريضة أو نزيلة عادية بالمصحَّة، فهي رفيقة الدراسة، وصديقة الطفولة، وجارة العُمر، ولم يكن بالأمر الهيِّن أن أرى ذلك المقص الحادَّ مغروسًا في قلبها وهي غارقة في دمائها على سجَّادة الصلاة في وضع السجود.

صرتُ أنا و"تُقى" صديقتين منذ اليوم الذي فقدت فيه سيطرتها، وبلَّلت ملابسها في الفصل. كنا في حصة التاريخ، وأخرجتها ميس "عايدة". صارت "تُقى" أضحوكة الفصل، ومحل سُخرية البنات، إلا أنا، فقد كُنتُ الوحيدة التي سمحت لها أن تجلس بجانبي على الدِّكَّة نفسها، دون أن يصيبني القرف. كُنتُ أشعر

8 دقيقة متبقية من «تمار..»
97%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لشيء سوى أنني كُنتُ واحدة منهم. لم يكن لون بشرتي الدَّاكنة وشعري الأكرت وحواجبي الكثيفة بالأمر الجاذب للفتيات، كما لم يكن لديَّ أي أمل في أن يعجب بي شاب حتى ولو كان مُسلمًا. فكَّرت أن ألتحق بالدير، وأن أهب نفسي للخدمة؛ لكنني لم أكن على درجة من التديُّن تجعلني أطيق حياة الرَّهبنة، فاخترت الدنيا مع التَّطوُّع في الجمعيات الأهلية، ومُساعدة فقراء الكنيسة، ورعاية "تُقى" في المصحَّة النفسية التي يعمل بها أحد أقارب والدتي.

عادت "تُقى" من ألمانيا، بعد أن قضت فترة نقاهة في مصحَّة نفسية بعد طلاقها من شخص يُدعى "علاء المصري". كانت أحيانًا تقول عليها ألمانيا، وأحيانًا أخرى تقول عليها هولندا، لكنني لم أعتد أن أُعارضها، طالما ما تقوله لا يضرُّ الغير، كما أنني اعتدت منذ الصغر على أن أسمع منها حكايات خيالية كانت تجعلها في حالة أفضل، وتسلِّيني في الوقت نفسه. فقد كانت تتخيَّل أحيانًا أنها هي نفسها أختها "تمارا"، وأنها تعيش في "جاردن سيتي" مع جدِّها الثري، وكانت تقول إن لديهم سيارة "مرسيدس"، ويأكلون التفاح، ويسافرون إلى باريس.

كان خيالها يُصوِّر لها أشياء تُعذِّبها، فلقد تصوَّرت أن خالها عادل قد تحرَّش بها، مع أنني كُنتُ أسير بجانبها حين أمسك "عادل" المكوجي صدرها، وهرب إلى بلده، فصارت تظنُّ الظنون بأي شخص يُدعى "عادل". هي مَن قالت لي ذلك في البداية، ثم سيطرت على رأسها فكرة أن خالها "عادل" يُريد أن يطردها ويُغيِّر عقد الشقة باسمه، مع أنه هاجر واستقرَّ منذ سنوات في ألمانيا، وتزوَّج، وله أبناء من امرأة أجنبية، ويمتلكان مسرحًا صغيرًا في "ميونيخ". ما يجعلني أؤمن ببراءة خالها أن "باتريك" الإنجليزي الذي يسكن في شقة الدور الأرضي قد عرض عليه أن يشتري شقتهم، ويقيم مشروعًا سياحيًّا لاستضافة الأجانب، مثل "أنستازيا" التي تسكن في الشقة المُقابلة. لكن خالها قال إن هذه شقة "تُقى"، ولا يحق له التَّصرُّف فيها، وهو نفسه من يدفع التكاليف الباهظة للمصحَّة والعلاج بحوالات بريدية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا أنا و"تُقى" نختلس الفُرجة على مجلات "البوردا" القديمة عند بائع الجرائد، ونشتهي أن نكون مثل النساء الأنيقات اللاتي تظهر صورهن فيها، ونحن على يقين بأنه لا أمل في ذلك أبدًا؛ أنا لأنني أحتاج إلى جيش من خبراء الموضة والتجميل والأموال الطائلة، و"تُقى" لبدانتها التي لا سبيل إلى التَّخلُّص منها لحُبِّها وولعها بالطعام. وذات يوم، كانت بكرَّاستي صورة صغيرة لـ"مارجرجس"، اشتريتها من الكنيسة، فسألتني "تُقى" عن حكايته، وما هذا التنين الضخم الذي يقتله وهو راكب على حصانه. فقلتُ لها إنه كان يعيش في بلد يُدعى "كبادوكيا"، أي أرض الخيول الجميلة، في آسيا الوسطى، وكانت أمه من فلسطين. كان قلبه مُلتهبًا بنار الحب الإلهي، ودافع عن المسيحية ضد الملك الوثني، الذي مكث يعذبه ثلاث سنوات، وقد كانت يد الله تسنده ليقتنص نفوسًا كثيرة للإيمان خلال عذاباته، فقد مات ثلاث مرَّات، وكان الرب يقيمه ليتمجد فيه، حتى استشهد في المرَّة الرابعة، كما كان ينعم برُؤى سماوية وسط الآلام تسنده وتُعينه. وبعد موته، أخذ خادمه جسده الطاهر ولفَّه في أكفان غالية فاخرة، ومضى به إلى مدينة "اللد" بفلسطين، وبُنيت على اسمه كنيسة عظيمة هناك، وأجرى فيها الرب آيات وعجائب كثيرة. سألتني "تُقى" عن التنين، فقلتُ لها إنه يرمز إلى الشيطان الذي يُحرِّك العالم الشرير ضد الإيمان، وهزيمة التنين تشير إلى هزيمة الشر بقوة الإيمان. حكت لي "تُقى" عن البراق الذي يشبه حصان "مارجرجس"، وقالت لي إن "أم إدريس" قريبتها قالت لها إنه الخضر الفلسطيني. صارت "تُقى" مهووسة بتجميع صور "مارجرجس"، حتى بعد أن ضربتها جدَّتها ظنًّا منها أنني أريدها أن تتنصَّر، ولم تُخلِّصها من يد جدَّتها إلا "أم إدريس" التي حبَّبتها في صلاة المسلمين. إلا أن حكاية "مارجرجس" ظلَّت مُسيطرةً عليها، حتى بعد أن التحقت بقسم التاريخ كيدًا في ميس "عايدة". تركتِ المنهج الأساسي وأخذتْ تقرأ تاريخ البلاد التي تتَّخذ "مارجرجس" شفيعًا لها، وتضع صليبه على علمها، ولا تتحدَّث إلا عن تلك الدول؛ چورچيا وإنجلترا وروسيا وفلسطين. في تلك الأثناء، بدأت "تُقى" تُردِّد كلمات غريبة، مثل أنها ترى حصانًا أبيضَ يطير أمام نافذتها، وأنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشعر أن تنّين "مارجرجس" يسكن جسدها. وفي أحيان أخرى، تقول إن التِّنِّين هو "تمارا" نفسها. قالت لي "تُقى" إن "تمارا" قد أحضرت لها تورتة الشوكولاتة، لكي تصرفها عن رعاية جدَّتها "زكية"، وجعلتها تتجاهل نداءها، فوقعت الجدَّة وتكسَّرت عظامها وماتت. ثم قالت إنها تظن أن خالها لم يكن يُريد أن يعتدي عليها هي؛ لأنها غير جميلة، أما المغوية فهي "تمارا"، مثل "ثامار" التي سمعت حكايتها ذات يوم في بيتنا، وليتها ما سمعتها.

رسبت "تُقى" عامًا بعد عام، ولم تفلح في دراسة التاريخ، فانتقلت إلى كلية الحقوق التي كُنتُ قد التحقت أنا بها وكنت على وشك التَّخـرُّج، وصـارت تُردِّد كلامـي كـالببغاء بأنـها تـدرس الحقـوق لـ"تعرف كيف تغزل الخيوط التي تُحاك منها أكفان الحق والعدل"، ولتصير نصيرة المنبوذين، إلا أنها عندما رسبت لعامين، قرَّر خالها أن يأخـذها لتعيش معه فـي الخـارج، وعملـت هناك فـي خدمة الغرف بفندق. وفي أوَّل إجازة لها، صارت تُردِّد كلامًا أكثر غرابة عن "تمارا" التِّنِّين التي تتلوَّى في بطنها وقلبها، وأنها تحقَّقت في ألمانيا من صدق ما تقوله. فقد صدمتها سيارة وفقدت كثيرًا من دمائها، وحين أرادوا عمل نقل دم لها، لم يتعرَّفوا على فصيلتها، فسألوا إن كانت لـ"تُقى" أخت توأم.

فـي تلـك الإجـازة، لـم تبـرح "تُقـى" البـيت، وأخـذت تقـرأ عـن "الكايميرا"، أو التوأم المُتلاشي، الذي يحدث في رحم الأم بسبب امتصـاص أحـد التوأمـين لخلايـا الجنـين الآخـر، ويحمـل خلايا شقيقه، فيصبح شخصين في شخص واحد. لم يستوعب عقلي ما كانت تقوله، خاصَّةً أنني تعوَّدت أنها تأتي بحكاية واختراع جديد كل فترة. حتى هي لم تُكرِّر هذه الحكاية مرَّة ثانية؛ لأنها قالت إن "تمارا" ستنتقل للعيش معها في الدرب. أعترف بأنني كُنتُ قد فقدت شغفي الطفولي باختراعات "تُقى"، وكنت مُنشغلة بالمُذاكرة لاختبارات آخر العام، ثم سافرت "تُقى" ثانية وتزوَّجت، وطُلِّقـت، ثـم عـادت علـى تلـك الحالـة الـذاهلة والهزال الشديد، فنقلناها إلى هذه المصحَّة، وأخذت أقوم على رعايتها بنفسي. شخَّص بعض الأطبَّاء حالتها على أنها فصام، وشخَّصها آخرون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علـى أنـها اكتئـاب ثُنـائي القُطبـين، مصـحوب بفقـدان الشـهية العصابي. أما "تُقى" فقد ائتمنتني على سرِّها الذي لم يكتشفه الأطبَّاء النفسيون، وقالت لي إنه أهون عليها أن يتَّهموها بالجنون أفضل مَن يُشاع عنها أنها ابتلعت أختها وأذابتها في جسدها، كما فـرَّجتني علـى سُتـرتين مُتطـابقتين مكتـوب علـى كـل منـهما بالإنجليزية: "هي الفاعلة".

اتَّهمنـي المُحـقِّق بـأنني سـاعدت مريضـة مضـطربة نفسـيًّا علـى الانتحار حين تركت لها آلة حادَّة في مُتناول يدها، فقلت له إن تحسُّنًا ملحوظًا قد طرأ على حالتها منذ أكثر من شهر، وصارت تأكل بشكل طبيعي، واستعادت كثيرًا من وزنها بعد أن صار لديها شغف بالفطائر والمعجِّنات. كانت كلما طلبت شيئًا أحضرته لها بعد استشارة الطبيب، فقد طلبت أعدادًا من مجلات الموضة، وتليفونًا محمولًا به وصلة للإنترنت لم تضع عليه سوى رقمي، وكانت تتَّصل بي أحيانًا لنشاهد فيديوهات سياحية عن چورچيا، والحكايات التي ترويها النساء الفلسطينيات. واستدعتني أمس لأشاهد معها فيلمًا لـ"رشدي أباظة"، وطلبت منِّي مقصًّا جيِّدًا؛ لأنها تريـد أن تقصَّ شعرها مثل "سعاد حسني"، في الفيلم الأبيض والأسود الذي كانت تتفرَّج عليه.

لم يخطر ببالي أنها ستُقدم على ارتكاب جريمة، فلقد تحسَّنت حالتها للدرجة التي قلَّل الأطبَّاء جرعات الدواء إلى الربع، وكانوا على وشك كتابة تقرير يسمح بخروجها وممارسة حياتها بشكل طبيعي خارج المصحَّة. حتى ما ردَّدته من أقوال غريبة أمس، كُنـــتُ أظنـــه ضـمن الطـرائف والعجـائب التـي تشـاهدها فـي فيديوهات على الإنترنت، فقد قالت إنها اكتشفت أنهم يُسمُّون ظاهرة التوائم المُتلاشية بالـ"كايميرا" على اسم حيوان أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية. وهي مجموعة من الخرافات آمن بها اليونـانيون القـدماء، حيـث كانوا يؤمنون بـوجود وحـش يُدعـى "كايميرا" له رأس أسد، ورأس ماعز، سيقانه الأمامية تنتمي لأسد، والخلفية للماعز، وله أيضًا ذيل أفعى، وحسب الأسطورة إنه كان مصدر رُعب، حيث كان يقتل الأطفال، ولديه قُدرة قوية على نفخ

99%
2 دقيقة متبقية من «تمار ..»
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النيران، فيقوم بحرق الأراضي؛ لكن في النهاية تم قتل الوحش على يد الفارس الشجاع "بيبلروفون"، ثم ظهرت على وجهها علامات ارتياح وصفاء نفسي بعد أن قالت لي في هدوء: "تصبحي على خير"، فقد كانت قد انتهت توًّا من ختم جزء من القرآن، ووضعت المصحف على الكومود بجوار كتالوجات الموضة ومجموعتها الحبيبة من صور "مارجرجس".

تنهَّد المُحقِّق في زهق، ولم يُعلِّق بكلمة أخرى على ما حكيته له، وكان يُدوِّنه شخص آخر يجلس معنا. وجَّه المُحقِّق الكلام للرجل الذي يكتب وكأنه يُمليه قائلًا:

- بعد الاطِّلاع على الأدلَّة وسماع أقوال الشُّهود، قرَّرنا الآتي: يُقفل المحضر في حينه، وتُقيَّد الجريمة "اضطراب نفسي أدَّى إلى انتحار".

- تمَّت -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner